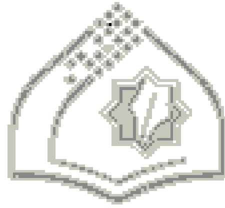
التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحـاد الكتاب العـرب ـ دمشق

العدد : ٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٨ كانون ٢ «يناير» ١٩٨٨ السنة ٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٣٠ - جمادى الأولى ١٤٠٨ كانون الثاني « يناير » ١٩٨٨ - السنة الثامنة

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ - ☎ ٢٤٤٢٩٩ - ٢٤٦٣٢٩

المواد المنشورة في المجلة تعبّر عن رأي أصحابها



الاشتراك السنوي

٦٠ ل.س للأفراد داخل القطر

١٠٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان العربية مع أجور البريد

١٥٠ ل.س للدوائر الرسمية والمؤسسات داخل القطر

٢٠٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان الأجنبية مع أجور البريد

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

الاخراج الفني : أكرم أقدار

المحتويات

☐ أبو نصر الفارابي ـ المعلم الثاني ....
د. عبد الكريم اليافي ٧

☐ المجالات الثقافية للمرأة العربية في بلاد الشام ....
د. صالحة سنقر ١٥

☐ النحاة والمفعولات ....
صلاح الدين الزعبلاوي ٣٣

☐ ابن خلدون شاعراً ....
محمد خير شيخ موسى ٤٩

☐ وحدة القصيدة في نقد القرطاجني ....
خليل الموسى ٦٥

☐ شعر أبي الطمّحان القيني بين جمعين ....
ياسين محمد الفاخوري ٧٤

☐ رحلة مع يعقوب بن كلس ....
د. عارف تامر ٨٣

☐ الحياة الفكرية في العصر المملوكي ....
د. صادق آئينه وند ٩٠

☐ وهنا ... كان العرب أيضاً ....
نهلة الحمصي ٩٨

☐ الصيدلاني الأندلسي أبو العباس النباتي(ابن الرومية) ....
فاضل السباعي ١١٦

☐ أسباب الخلاف اللغوي وأسلوب البحث في تراث العالم ....
محمد وليد حافظ ١٢٢

☐ ابن رشد العالم والفيلسوف ....
حسان الكاتب ١٣٣

☐ سور دمشق ـ حارس أعفي من الخدمة بعد ١٥٠٠ عام ....
محمود عصام الميداني ١٣٩

☐ تلخيص المتشابه في الرسم ....
عرض : د. نسيب نشاوي ١٤٦

☐ التراث العربي .. خطة ومنهج ....
د. شكري فيصل ١٤٩

☐ كتب وأنباء تراثية .... فاطمة عصام صبري ١٥٨



أبو نصر الفارابي
المعلم الثاني

د. عبدالكريم اليافي

أبو نصر الفارابي محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ من أكبر رجال الفكر في تاريخ الثقافة الانسانية عامة والعربية الاسلامية خاصة • وهو صاحب التصانيف الكثيرة في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من العلوم والفنون. يقول ابن خلكان : « هو أكبر فلاسفة المسلمين • ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه • والرئيس أبو علي بن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه».

ولد حوالى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) في مدينة وسيج من منطقة فاراب التي كانت مدينة فاراب قصبتها فنسب الى المنطقة • ويذكر ابن خلكان أن مدينة فاراب كانت تسمى في عهده أطرار • وقد ذكر أن ولادته كانت في سنة ٢٦٠ ولكنا نؤثر سنة ٢٥٩ لما نعرف في علم السكان أن الأعمار غالباً تقرّب من الأرقام المدورة أي التي تنتهي بالصفر أو الخمسة وهذا التقريب الذي ينتهي بتراكم الأعمار في تلك الأرقام يظهر خاصة في تعدادات السكان الرسمية في العصر الحاضر ويقال لهذه الظاهرة جاذبية الأرقام المدورة •

هذا وحين يرد ذكر فاراب التي تقع في تركستان أو فيما وراء النهر تطالعنا الكثرة الكاثرة من علماء تلك المناطق في شتى الميادين فهم يكادون يتصدرون الحضارة العربية الاسلامية • وقد ذكر ياقوت في مادة فاراب بعض العلماء الذين خرجوا من هذه المدينة فعدّ في طليعتهم اسماعيل بن حماد الجوهري مصنف الصّحاح وهو بين المعجمات أحد أركانها ، وخاله أبا ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي صاحب « ديوان الأدب » في اللغة أيضاً كما ذكر أسماء بعض المحدثين والقراء • والعلماء الكثر من بقية مناطق تركستان وخوارزم وخراسان أكثر من أن يحيط بهم الحصر •

ويذهب بنا الخيال حين نتحدث عن بعض أولئك العلماء الأعلام الى الأبطال الفرسان العرب المسلمين الذين حملوا راية الاسلام والسلام والهدى والعلم وانتشروا كالبرق في

بقاع المعمورة شمالا وشرقاً وجنوباً وغرباًليظهروا تلك الرسالة الكريمة كما نتصور المغازي المنظمة والمؤزرة بالنصر التي انطلقت بهم من مراكز مشهورة الى مختلف الجهات . نحن هنا نذكر المغازي التي فصّلت من العراق الى الشمال والى الشرق . فكانت الكوفة مركزاً للتي اتجهت نحو الري وأذربيجان ، وكانت البصرة مركزاً للتي انطلقت نحو فارس وخراسان . وكانت جميعاً في جهادها تخرج الناس من حنادس الجهل وتحررهم من قيود الطغيان وتصلهم من وراء الدين الجديد برفعة السماء وبالقيم العليا من عدالة ومساواة وتنظيم ومعاملة كريمة بينهم ثم بينهم وبين الآخرين . وكانت أمواج القبائل العربية المرتحلة تنزل في تلك الربوع الجميلة وتستوطنها وتختلط بأهاليها تماملا وتزاوجاً لتكوّن فيما بعد أمة واحدة هي الأمة الاسلامية لا تفريق فيها بين الأفراد من جهة النسب والحسب والأصول الا بالعلم مقروناً بالعمل الصالح لأن العلماء عندهم ورثة الأنبياء .

كان أولئك المجاهدون يتقدمون لا يخشون عقبة من العقبات ولا جبلا من الجبال ولا وادياً من الوديان ينفقون أموالهم وأرواحهم ويذكرون الآية الكريمة : « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (التوبة ١٢) . ويتبادر للذهن أبيات للشاعر الحميري يزيد بن مفرغ الذي كان بعد تلك المغازي في جيش عبّاد بن زياد المتجه نحو الهند يصف فيها رمم الأبطال القتلى وأشلاءهم وجماجمهم وسرابيلهم المخضبة بالدماء في ساحات الجهاد وفي فجاج الجبال :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم ... ومن جماجم قتلى ما هم قبروا

ومن سرابيل أبطال مضرجة ... ساروا الى الحرب ما خاموا ولا ذعروا

بقندهار ومن تلحتم منيته ... بقندهار يرجّم دونه الخبر

ومهما كان من أمر فان الفتى الفارابي عكف في مسقط رأسه على دراسة طائفة من العلوم والفلسفة واللغات بالاضافة الى لغته التركية، فدرس العربية والفارسية واليونانية ثم انتقل به أبوه الى العراق واستوطن بغداد حيث أتم دراساته العلمية والفلسفية واللغوية فدرس فيها على أبي بشر متى بن يونس من أشهر مترجمي الكتب اليونانية ومن أبرز الباحثين في الفلسفة والمنطق . « وله اذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية ويجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق » كما يقول ابن خلكان . ثم « ارتحل الى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً ، ثم انه قفل راجعاً الى بغداد ، وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهّر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها » كما جاء أيضاً في كتاب « وفيات الأعيان » . وكذلك درس في بغداد العلوم العربية على ابن السراج وأتيح له فيها أيضاً اتمام دراساته في الرياضيات والطب والموسيقى ووصل في هذه الميادين خاصة في الفلسفة الى القمة والى درجة من النبوغ عالية ، فطبقت شهرته الآفاق . اهتم بفلسفة اليونان ولاسيما بكتب أرسطو فشرحها وعلق عليها تعليقات كثيرة بعبارات حسنة واشارات لطيفة واصطلاحات عربية مناسبة و « تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة » حتى انه لا يعتبر في رأينا شارحاً بل معقباً

ومتمماً فاطلق عليه لقب « المعلم الثاني » كما كان يطلق على أرسطو « المعلم الأول » . وليس شيء أدل على تبسيط الفارابي لفلسفة اليونان وايضاحها مما ذكره ابن سينا في ترجمته هو لنفسه اذ قال : « وانتهيت الى العلم الالهي ،وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علي غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسي وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه.

فحضرت يوماً ــ وقت العصر ــ في الوراقين . فتقدم دلال بيده مجلد ينادي عليه ، فعرضه علي ، فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم فقال : اشتره ، فصاحبه محتاج الى ثمنه ، وهو رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم ، فاشتريته ، فاذا هو كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة . فرجعت الى داري ، وأسرعت قراءته ، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، لأنه كان صار لي محفوظاً على ظهر القلب ، ففرحت بذلك وتصدقت في اليوم الثاني بشيء كثير على الفقراء ، شكراً لله تعالى .. »

هذا وأكبر الفضل في توطيد علوم الفلسفة في الحضارة العربية الاسلامية انما يعود اليه بعد أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي الملقب بفيلسوف العرب . وقد توفي الكندي حوالي عام ٢٦٠ أي قريباً من تاريخ ميلاد الفارابي كان جذوة نار الفلسفة التي اشتعلت في تلك الحضارة ينبغي لها بعدئذ الا تخمد بل أن تشتد وتزداد توقداً ، اذ نبغ بعد حين الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في المشرق ثم نهض بعد حين أيضاً القاضي أبو الوليد ابن رشد في المغرب . هذا في اختصاص الفلسفة الأرسطية المشائية وحدها دون الاشادة بأعلام الفلاسفة والحكماء في المجالات الأخرى كأبي الريحان البيروني وهبة الله أبي البركات البغدادي والغزالي وأمثالهم الكثيرين .

وقد غمرت كتب ابن سينا وابن رشد الفلسفية الباحثين حتى انها صرفتهم بعض الشيء عن الرجوع الى الأصول التي تفرعت عنها الا وهي كتب الفارابي .

أنافت كتب الفارابي التي ألفها على المائة . وقد طبع بعضها . وفي دور الكتب والخزائن العامة والخاصة في المشرق والمغرب طائفة من مخطوطاتها ، كما ترجم قسط منها الى الفارسية والتركية والعبرية واللاتينية والألمانية والفرنسية والانكليزية والاسبانية .

ويبدو أن الفارابي وهو الفيلسوف المنقطع الى الفكر قد ضاق ذرعاً ببغداد على الرغم مما زوّدته به من علوم لجوّها السياسي والعسكري القلق فقد شهد عهد الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي والمتقي وكلها عهود مضطربة وهو من طبعه الهدوء والتأمل وحب السلم فخرج منها حوالي عام ٣٣٠ قاصداً بلاد الشام ولم يغادرها سوى رحلة قصيرة أو رحلتين الى مصر .

وكان في مقامه بدمشق لا يكون غالباً الا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض كما ذكر ابن خلكان وكان « كثير الانفراد بنفسه ويلازم غياض السفرجل وربما صنف هناك وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق وتنقلها من مكان الى مكان » كما ذكر الصفدي في الوافي بالوفيات . ويحدثنا ابن خلكان أيضاً عنه فيقول :

« وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم وهو الذي اقتصر عليها لقناعته .

ولم يزل على ذلك الى أن توفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (٩٥٠ م) بدمشق وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير » .

لا تستطيع هذه العجالة أن تأتي على جوانب أبي نصر المتعددة في شتى العلوم . وانما نشير هنا الى كتاب مهم ــ وكل كتبه ذات شأن ــ ألا وهو « احصاء العلوم » يعده بعض الباحثين على صغر حجمه أول موسوعة وضعت في العالم أحصى فيه العلوم المشهورة اذ ذاك علماً علماً وتوخى في عرضها البساطة والسهولة ليقدم فكرة عامة واضحة عن موضوع كل علم ومنفعته نظراً وعملاً . وذلك كله في خمسة فصول :

الأول : علم اللسان وفروعه من نحو وصرف وبيان وشعر وما الى ذلك .

والثاني : علم المنطق وأجزاؤه .

والثالث : علوم التعاليم أي الرياضيات .

والرابع : العلم الطبيعي والعلم الالهي .

والخامس : العلوم المدنية أي علم الأخلاق وسياسة المدن وعلم الفقه وعلم الكلام .

وفي رسالته « التنبيه على سبيل السعادة » التي حققها صديقنا الدكتور سحبان خليفات شبه بهذا التقسيم . وقد عالج أبو نصر غالبية هذه الأقسام ولا سيما ما له علاقة بالفلسفة معالجة واسعة . وبحثنا هذا لبيان سعة بحوثه والتنويه بمكانتها ، لا لتفصيل عناصرها فذلك شأن آخر .

ومن أشهر كتبه « السياسات المدنية » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » وموضوع هذين الكتابين يدخل في الفلسفة والاجتماع . وما يتضمنانه من آراء يجعل مؤلفهما في طليعة الصفوة المختارة من أصحاب الفكر الاجتماعي الذين نادوا بانشاء مجتمع عالمي سليم تتعاون الأمم جميعاً فيه على احلال السلام وممارسة الفضائل وتحصيل السعادة ليكوّن ما يدعى بالمعمورة الفاضلة . وقد يكون من المناسب أن نتوقف قليلا عند تفكيره الاجتماعي . لقد قسم الفارابي الاجتماعات الانسانية أقساماً فمنها الكاملة ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث عظمى ووسطى وصغرى . فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة . وغير الكاملة اجتماع أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل وأصغرها المنزلة .

والخير الأفضل والكمال الأقصى انما ينال أولا بالمدينة ثم بالمعمورة لا بالاجتماع الذي هو أنقص من المدينة . ومن هذا نرى دقة ذهن الفارابي وتمييزه صنوفاً مختلفة للاجتماع . ويريد بالكمال استطاعة المجتمعين الاكتفاء بأنفسهم من جهة المعاش والحياة الاقتصادية .

وقد تغيرت الأمور في الوقت الحاضر · ولكننا نجده يتسامى فيتصور اجتماع الأمم كلها اجتماعاً كاملا ويخرج بهذا التصور الأممي عن عادة اليونان لأن أغلب فلاسفتهم لم يتجاوزوا في ترتيب أمورهم الاجتماعية نطاق مدنهم · وربما بعثه على هذا اتجاه الدين الاسلامي ·

ونظام المدينة الفاضلة والأمة الفاضلة والمعمورة الفاضلة كنظام البدن التام السليم الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياته وعلى حفظها عليه · ثم يستمر في هذا التشبيه البيولوجي ويشرح به النسق الاجتماعي · ففي البدن القلب وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس وكل واحد فيها جعلت فيه قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس وأعضاء أخرى فيها قوى أخرى متمايزة ولكنها متفاوتة ومتضامنة ، كذلك ترتيب المجتمع بحيث يكون الرئيس فيلسوفاً أو نبياً أو جملة من الفلاسفة والحكماء وبحيث يؤدي الانسان في المجتمع الفاضل عمله أداء تاماً ويقوم فيه بما يحسن على غرار ما يجري في البدن من انسجام في وظائف أعضائه ونسجه · هذا ومن المناسب أن ننوه بأن اللغة العربية ربطت بين الحكم والحكمة والحكومة والحكماء والحكام فجعلت هذه الألفاظ كلها من أصل واحد اشارة الى لزوم الحكمة في ادارة الدولة · كذلك يجدر الايحاء في تشبيه المجتمع بالبدن الى ما سبق به الحديث الشريف : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ولا يخفى أنه يترتب على التفصيل في هذا التشبيه قضايا سياسية واجتماعية متعددة تتعلق بنظام الحكم وشكل الرئاسة وحكم النخبة المختارة والتماسك الاجتماعي والطبقات الاجتماعية وأمور التخطيط وكلها يمكن أن تشتق من هذا المذهب العضوي الاجتماعي ·

ان الفارابي الى جانب تفوقه في الفلسفة والتفكير الاجتماعي المثالي ومعرفته بشتى العلوم كالرياضيات والطب وما الى ذلك كان الوجه المنيف في علم الموسيقى والتأليف فيه ابان الحضارة العربية الاسلامية · وكتاب الموسيقى الكبير الذي ألفه وقد طبع حديثاً بمصر محققاً في سلسلة تراثنا مصدر أساسي للاطلاع على فن الموسيقى وتاريخها وأصول صناعتها والأمور العامة منها وأصناف الألحان والايقاع ووجوه استخراج النغم من الآلات المشهورة وما الى ذلك · ويدل الكتاب على مدى تعمق المؤلف في هذه الصناعة. وله كتابان آخران في الموسيقى يذكرهما المترجمون له · وقد ربط الألحان أحياناً بالحالات النفسية · ويحكى أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه وهو أول من ركبها هذا التركيب · وشهرته الموسيقية نسجت حوله الأساطير ، منها ما ذكره ابن خلكان في أول لقائه سيف الدولة الحمداني في مدينة حلب · ولا نستطيع أن نملك أنفسنا دون ذكرها · هذا وان الأساطير انما تنسج لتوكيد فكرة أو تمثيلها أو توطيد شهرة · قال صاحب الوفيات : ورأيت في بعض المجاميع أن أبا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف ، فادخل عليه وهو بزي الأتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف ، فقال له سيف الدولة : اقعد ، قال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يسارهم به قلَّ أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : ان هذا الشيخ قد أساء الأدب ، واني مسائله عن أشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به ، فقال

له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ، اصبرفان الأمور بمواقبها ، فعجب سيف الدولة منه، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ فقال: لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آلته الا وعابه أبو نصر وقال له : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركّبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركّبها تركيباً آخر ، ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها ، وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج ٠

ويعلق الصفدي في الوافي بالوفيات على هذه الأسطورة فيكتب : « قلت : وهذه الواقعة ممكنة من قبل أبي نصر لأنه اذا غنى السامعين مثلا بما لابن حجاج من ذلك المجون الحلو في نغم فان السامع يضحك ٠ واذا غنى باشعار متيمي العرب والرقيق من فراقياتهم وحزنياتهم في نغم النوى وما أشبه ذلك فان السامع يبكي، وكذا حاله اذا أراد أن يشجّع أو أن يسمّح أو غير ذلك ٠ »

وثمة أسطورة ثانية ذكرها ظهير الدين البيهقي المتوفى ٥٦٥ هـ في كتابه تاريخ حكماء الاسلام وهي رواية أخرى للأسطورة السابقة ولكنها تتعلق بالصاحب اسماعيل بن عباد أشد تعبيراً عن تأثير موسيقى الفارابي في المستمعين. وكذلك نجد أسطورة ثالثة دبّجها محمد بن اسماعيل شهاب الدين الحجازي المصري الشافعي المتوفى سنة ١٢٧٤ هـ في كتابه سفينة الملك ونفيسة الفلك تتعلق باختراع الفارابي لآلة العود ٠ ان هذه الروايات نظنها مصطنعة للدلالة على مكانة الفارابي في الموسيقى ٠

والخلاصة أن الفارابي غرة من غرر الحضارة العربية الاسلامية وكوكب متالق من كواكبها الكثيرة النيرة الدرية تزهى به وبأمثاله الحضارة الانسانية كلها بَلْه الحضارة الاسلامية. وهو فيما سبق اليه من تفكير في تعاون الأمم على انشاء المعمورة الفاضلة حقيق بأن يخلد اسمه في كل منظمة عالمية ترفع ذلك الشعار وتحلم بتلك الغاية النبيلة وتسعى فيما تستطيع نحو تحقيقها ٠ ولا شك أن أكبر الأعمال الانسانية بدأت بالأحلام السليمة العالية ٠

لما أنهيت كتابة هذا البحث طويت أوراقي وأغمضت عيني أسبح في أمواج الأحلام فاذا بي أتوهم خيالا بقربي أوجسته خيال أبي نصر وكان خيالا شاعرياً فذكرت أنه ينسب اليه شعر لا بأس به فسألته عن صحة ما ينسب اليه منه فاذا بصوته يقرع جدار القلب بلطف واصيخ فأتبين ألفاظه :

تركت الشعر للشعراء غيري	ولكنـي ألـمّ بـه لمامـا
لعل القول ينفذ في قلوب	فيوقظها اذا كانت نياما

ثم يرين الصمت . فاذا بالخيال ينبس بهذه الأبيات التي تشرح اعجاب الفارابي بالحضارة العربية الاسلامية :

الفارس العربي فوق حصانه ... كالبرق بين سباسب وروابي
يمضي وفي يده الكتاب مبشرا ... بالغار والزيتون والأطياب
أعلى حضارات الأنام حضارة ... كالشمس لاحت من بيان كتاب
ضاءت رحاب الكون من اشراقها ... وتزينت بالعلم والآداب
ملأت محبتها حشاشة مهجتي ... وتقرحت في فكرها أهدابي
كم مرة حاولت حصر كنوزها ... فاذا بها تسمو على استيعاب
الدين قلبي والعروبة منطقي ... ونوابغ اليونان هم اترابي
فاراب مثل بقية المدن التي ... لمعت وكم في الأرض من فاراب
أواه كم حلّ الربيع وكم حلا ... ثمر بظلّ مآذن وقباب
وتواصل الخصب العميم وشرّعت ... رايات علم محكم وصواب
وخرجت من بغداد اقصد جلّقا ... ارتاض في اقليمها الخلاب
وخميلة بالنيربين عهدتها ... ملهاي في تموز او في آب
عطفت عليّ بظلها وثمارها ... والجو كالحلم البديع السابي
متنقلا في روضها متأملا ... في حلّ مشكلة وشرح صعاب
وزجاجتين هما معي فزجاجة ... لكتابتي وزجاجة لشرابي
وتطوف بي الدنيا فانكر شرها ... بيني وبين الشر الف حجاب
الفكر والنغم الطروب صناعتي ... والزهد خلقي والتقى جلبابي
أرعى نجوم الليل في خفقانها ... وابثها مما أدوّن ما بي
كم كنت افكر في تلمّس ناظم ... لمسبّبات الشيء والأسباب
واجيل فكري في الوجود ونوعه ... من ممكن ثرّ ومن ايجاب
واصوغ للحن الرخيم فواصلا ... اعيت على غيري من الحسّاب
فكتبت في سفر الخلود صحائفا ... تبقى على الأزمان والأحقاب
وجهدت ارسم عالما فيه ارى ... نسب الفضيلة اشرف الأنساب

تبا لمجتمع حديث عائم ... في ضفتيه مخادع ومرابي
ومكافح الارهاب في اقواله ... سرا يدبئر اقبح الارهاب
ويح لأبناء التراب تناحروا ... سفها وشاو مصيرهم لتراب
أولا يرون الحق في توطيده ... يسمو على الأهواء والآراب
لهفي على القيم الرفيعة بدلت ... وغدت شعار ثعالب وذئاب
وحضارة لمعت بغير فضيلة ... كالقفر لاح عليه لمع سراب
ليت المواطن كلهن توحدت ... في ظل حكم موثق الأسباب
العدل من أركانه والسلم من ... اهدافه وحماته كالغاب

* * *

ما أجمل الدنيا اذا ما سادها ... سلم وعاش الناس كالأحباب
وتهطلت نعم السماء عليهم ... مثل السحاب يمر خلف سحاب
هل كنت الا كوكبا عبر الدجى ... أشرقت قدما من بيان كتاب
لم يبق بعد سطوع شمس المصطفى ... عذر لمنحرف ولا مرتاب

* * *

اجلالنا للفكر نرفعه معا ... لمعلم الأجيال للفارابي

* * *

المجالات الثقافية للمرأة العربية في بلاد الشام في العصرين الأموي والعباسي

د. صالحة سنقر

تهتم هذه الدراسة ببيان ثقافة المراة العربية في بلاد الشام في العصرين الاموي والعباسي • وتاخذ بعين الحسبان ارتباط ثقافة المراة في هذين العصرين بالعلوم الشائعة والقيم السائدة وتاثرها بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لبلاد الشام في تلك الفترة •

ومن الطبيعي أن تكون ثقافة المراة آنذاك جزءا من الثقافة القائمة في البيئة الشامية بما فيها من تنوع وتعدد وما تتضمنه من ثقافة نظرية غالباً وعملية احيانا ، وما اتسمت به من توجه ديني تشريعي •

ومع أن من الأفضل أن نعتمد في حديثنا عن ثقافة المرأة العربية ما كتبته هي عن ذاتها ، الا أن عدم توفر هذه الكتابات يضطرنا الى الوقوف على ما كتبه الرجل عنها وما ورد في الكتب التاريخية والأدبية والتشريعية والعلمية ، وسنعمد في تحليل ثقافة المرأة العربية الى بيان المجالات التي طرقتها كأداة لتقويم تلك الثقافة ، رغم أن تلك الفترة التاريخية هيأت للرجل المناخ الثقافي المناسب ، وأضفت عليه قيمة معينة سواء بالأدوار التي يقوم بها أو النشاطات التي يمارسها ، وتركت المرأة ملحقة به ، آخذة عنه تعيش حياتها بين العزلة والمشاركة بين أن تكون فعالة في جميع مجالات الحياة ، وبين أن تكون سلبية تأخذ بأفكار غيرها وتتوجه وفق رغباتهم وأفكارهم •

وسيقتصر البحث على المرأة الفاعلة المثقفة التي استطاعت أن تتجاوز واقعها وتبني ذاتها وتنمي فكرها وثقافتها ، آخذين بعين الحسبان أن الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية القائمة آنذاك حالت دون تحقيق جماهير النساء عامة ما تصبو اليه أنفسهن ، معتمدين دراسة المجالات الثقافية وتحليلها وبيان فاعلية المرأة فيها ، وأثر ذلك على المجتمع عامة وعلى علاقة المرأة بالرجل بخاصة ، مبينين دور المرأة

العربيــة في مجال الحديث والتصوف والأدبوالتربية والسياســة لنخلص في النهــاية الى رسم صورة لدور المرأة في الحيــاة الثقافيــةوموقفها بالنسبة للرجل مــن خــلال المجالات المتوفرة لها والقيم التي عاشت بين ظهرانيها.

☐ المراة والعلوم النقليــة :

اهتمت بلاد الشام في العصرين الأمويوالعباسي بالعلوم النقليــة عامة وبالحديث بخاصة سماعاً وحفظاً ورواية وتحليلاً ، فقدبلغ عدد النساء المحدثات « ٦٤ » محدثة منهن فاطمة بنت الحسين(١) التي عاشت في العصرالأموي في مدينــة دمشق واشتهرت بروايــة الحديث عــن جدتها فاطمة بنت محمد عليهالسلام .

و « ٦٣ » محدثة تسعة منهن وجدن فيالعصر العباسي الأول و « ٥٤ » محدثة عشن في العصر العباسي الثــاني .

وقد أدى توفر المناخ الثقافي في البيئــةالمناسبة في بعض المدن الى دفع المرأة للتعلم فيها أكثر مما هو في بيئات أخرى . ونلحظ تمركزاً واضحاً للمحدثات في مدينة دمشق التي ضمت في العصــرين الأموي والعبــاسي« ٥٥ » محدثة ، في حين شهدت مدينة حلب « ٤ » محدثات فقط ، وشــهد بيت المقــدس« ٥ » محدثات(٢) .

العصــور	المــدن دمشق عدد المحدثات	حلب عدد المحدثات	بيت المقدس عدد المحدثات
العصــر الأموي (٤١ هـ ــ ١٣٢ هـ)	١	ــ	ــ
العصــر العباسي الأول (١٣٢ هـ ــ ٦٥٦ هـ)	٩	ــ	ــ
العصــر العباسي الثــاني (دويلات وفاطمي) (٦٥٦ هـ ــ ٩٢٣ هـ)	٤٥	٤	٩

جدول رقم (١) توزع المحدثات بحسب العصور .

وقد وجدت فروق في مستوى المحدثاتبين محدثات أتقــنّ علم القراءات والتفسير والحديث والفقه وبين محدثات أتقنّ بعضاً مــن هــذه العلوم . ونظرة تحليلية لواقــع المحدثات في بلاد الشام في هــذين العصرينتكشف لنــا عــن أن بعض المحدثات تعلمن وعلمن الآخرين وأن بعضــا منهــن تجاوزنالتعلم والتعليم الى اجازة الآخرين في الحديث وذلك بحسب قابليات كل منهن ، وما تمتعتبه بعض النساء من قدرات فائقــة .

والمرأة خلال فترة تعلمها كانت تتلمذ على أيدي بعض العلماء وتتابع تعلمها منهم واستماعها عنهم ·

وتذكر كتب التاريخ أن (٥٣) محدثة استمعن الى ١٢٠ عالما ، أي ان وسطي الذين كانت تتعلم منهم يتراوح بين اثنين الى ثلاثة علماء ومن الطبيعي وجود تباين في عدد العلماء والمحدثين ، الذين أخذت عنهم النساء آنذاك بين امرأة وأخرى · ففاطمة الجلية وكريمة الزبيرية وخديجة الدمشقية وسواهن قد سمعن عن محدث واحد ، في حين سمعت عائشة المقدسية(٣) عن تسعة محدثين(٤) ·

عدد العلماء	:	١ ـ ٣	٤ ـ ٦	٧ ـ ٩
عدد المحدثات	:	٤٥	٤	٤

الجدول رقم (٢) ـ عدد العلماء الذين استمعت اليهم المحدثات ·

ومما لا شك فيه أن متابعة التعلم واتقان قراءة الحديث وتفسيره وتعرف معانيه وبيان مدلولاته يجعل المرأة المتقنة لذلك جديرة بان يعترف بأهليتها كمحدثة وأن يجاز لها رواية الحديث وتفسيره وقد تبين أن « ٢٢ » محدثة أجاز لها « ٢٧ » عالما رواية الحديث أي ان وسطي عدد العلماء الذين أجازوا للمرأة رواية الحديث يتجاوز (١٢) عالماً وهو عدد يثبت كفاءة المرأة واتقانها للعلوم النقلية والدراسات المعاصرة في علم التقويم (علم الديسمولوجيا) تشير الى أن تقويم معرفة الانسان لشيء ما يتطلب الوقوف على آراء عدد من المقومين يتراوح بين (٥ ـ ٧) أشخاص ·

ومن اللافت للنظر ما حصلت عليه المحدثة فاطمة بنت سليمان بن عبدالكريم الأنصارية(٥) الدمشقية من ثقة العلماء واعترافهم بجدارتها وقدرتها في هذا العلم اذ تجاوز عدد العلماء الذين أجازوا لها رواية الحديث المائة ·

واذا وصلت بعض النساء المثقفات الى مثل هذا المستوى من التحصيل والاتقان فانه من البدهي أن تفيد الآخرين وأن تزودهم بعلمها قراءة ورواية للحديث فقد قرأت (٢٥) محدثة على (٦٢) طالب علم أي بوسطي يتراوح بين اثنين الى ثلاثة طلاب لكل محدثة ·

كما أن رواية الحديث لا تقتصر على قراءته فقط بل تتطلب دراسته وتفسيره ، وقد بلغ عدد المحدثات اللواتي اكتسبن ثقة رواة الحديث وأصبح من المشهود لهن دقة ما يروينه « ١٧ » محدثة روى عنهن « ٢٧ » طالباً · وقد روى عن المحدثة زينب بنت أحمد عبدالرحيم(٦) والتي امتازت بدقة الرواية والأمانة العلمية خمسة من المحدثين · وقد مكن اتقان المرأة المحدثة لدورها كقارئة وراوية وتعليمها الآخرين من أن تجيز بعض متعلميها الذين أصابوا قدراً كافياً من علم الحديث ومعرفته فقد أجازت احدى عشرة محدثة رواية الحديث لطلابها ·

ان هذه الصورة الرقمية لواقع المرأة المحدثة تكشف لنا وبوضوح عن ثقافة المرأة في العلوم النقلية وتعدد الأدوار التي تقوم بها من خلال تعلمها من الآخرين وتعليمها لغيرها وتقويمها لمن تابع الدراسة والحديث وعدم اقتصارها على جانب دون جوانب أخرى مما يتيح لنا القول بان ما قامت به المرأة وما شغلته من ادوار يماثل في هذا الجانب الأدوار التي قام بها الرجل الى حد كبير مع اختلاف في الكم ·

واذا كانت معرفة الأدوار التي قامت بها المرأة ذات دلالة كبيرة على فعاليتها ، الا أن ما يزيد الصورة وضوحاً ويعطي الدلالات تأكيداً هو معرفة المادة التي كنَّ يقرأنها ويروينها ويخبرن من خلالها والوقوف على أسماء الكتب والمؤلفات التي كانت مجال القراءة والبحث والتحليل والتفسير تكشف عن نوعية الثقافة المتداولة في ذلك الحين ، ومن سبر أسماء الكتب التي قرأتها المحدثات والتي بلغ عددها (٢٤٠) كتاباً يتبين لنا أن « ٧٦ »(٧) كتاباً منها كانت كتباً دينية ركزت على الجانب التشريعي · وان أربعة منها كانت كتباً أخلاقية وثلاثة كانت كتباً لغوية، وثلاثة أخر كانت كتباً لشخصيات عربية ·

ورغم هذا التنوع المحدود في محتوى الكتب بين جانب تشريعي وأخلاقي ولغوي وصوفي ، الا أن نسبة الكتب التشريعية وحدها بالنسبة للمجموع العام بلغت ٨٠٪ ·

وهذا يعكس طبيعة الثقافة الدينية والمفاهيم المتداولة في ذلك العصر ، وقد شاع تداول كتب معينة بين المحدثات ، وكأنها أساس علم الحديث واتقانه ·

فقد ذكر المؤرخون أن كتاب صحيح البخاري قد تداولت قراءته الكثيرات وكذلك الحال في كتاب ابن عرفة وكتاب الفوائد وكتاب انتخاب الطبراني وغيرها ·

ورغم أن بعض المحدثات قد اطلعن على مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا الا أن تركيزهن انصب على مؤلفاته الدينية فلم يتناولن اطلاقاً مؤلفاته العلمية والطبية والنفسية ·

□ المرأة والتأليف :

تحتاج عملية التأليف الى الكثير من التعمق والتخصص في الميدان الذي يؤلف فيه، وهذا يتطلب تفرغاً كاملاً للبحث والدراسة·

ومن العسير على المرأة آنذاك وما تؤديه من واجبات متعددة أن يتحقق لها ذلك ، ومع هذا نلحظ أن البيئة في العصر العباسي قد يسرت لبعض النساء الظروف المساعدة والمناخ المناسب للتأليف · فقد قامت فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي(٨) بتأليف كتب عديدة في الفقه والحديث اعتمدتها في تدريسها لطلابها ، ولم تكتف بأن تجعل محتوى الكتب يدور حول العلوم النقلية وما تداوله الرواة بل تحلت كتبها بنظرات ابداعية تجديدية، واتصفت فتاواها بالأمانة العلمية،حيث حرصت الا تخرج أي فتوى الا موثقة بخطها وخط أبيها وخط زوجها ·

ولتضلعها في المسائل الفقهية وتبحرها فيها جعلها الملك العادل نورالدين الشهيد مستشارة له في بعض الأمور الداخلية والمسائل الفقهية ·

ولم يكن تاليف الكتب قصراً على المراةالحرة بل استطاعت بعض الجواري أن يسهمن في التاليف، فقد تميزت لبنة جارية(٩) الخليفةالحكم بن عبدالرحمن بالكتابة في مجالالشعر والنحو والحساب والعروض ·

☐ المراة وتكريم العلمـاء :

ان وجود العلماء في أمة ما يعطيها حقها في اثبات الوجود والأصالة وتفرد الشخصية بين الأمم الأخرى ، وتقوّم الدول بما تملكمن علماء ومبدعين ، مما يجعلها تحرص على توفير المناخ المناسب للنشاط العلمي وتامين الحوافز المناسبة المادية منها والمعنوية لهم ، ليجتهدوا في العلم الراغبين فيـه ·

وقد ساهمت المراة في العصرين الأموي والعباسي بتكريـم العلمـاء ، حيث باعت فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي(١٠)سواريها لتقدم الفطور في كل ليلة من ليالي رمضان للعلماء والفقهاء ·

☐ المـراة والتصـوف :

شهدت تلك الفترة الى جانب المحدثات الفقيهات والواعظات نساء صالحات قانتـات عابدات متصوفات تمتعن بالجراة في اعـلان مبادئهن والمغالاة فيهـا في كثير من الأحيان والتضحيـة في سبيلهـا ·

ولم يكن تصوف أكثرهن عن جهل ، فقد تمتعن بالفصاحة والبيـان وربط التصوف لديهن بالقيم الانسانية والتربوية ·

وقد امتازت رابعة العدوية(١١) مثلاً كما وصفها ماسينيون بقدرتها على معالجة الأحوال الصوفية المختلفـة وعلى البحث في فروض دقيقـة في العمليات والعقائد ومـن اقوالها (اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكـم) الا أن التصـوف ارتبط لـدى بعض النساء بأدآء سـلوكات خاصة فقـد كانت النساء المتصوفات اذا ضعفن عـن القيام في صلاتهن تعلقن بالحبال ، كما ارتبط التصوف لدى بعضهن بالزهد واليأس أمثال أم هارون الخراسانية(١٢) التي عاشت حياتها في دمشق تاكل الخبز وحده وكانت تزور بيت المقدس شهرياً مشياً على الأقدام ·

وأمثال زجلة العابدة(١٣) التي وصفها الحواص بأنها صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى اقـعـدت ·

والتصوف سلوك تصمّـد فيـه بعض النساء ميولهن نحـو حب الله ، فقد وصفت اليصا بنت المفضل(١٤) المحبة لله المتصوف ب : (انسه في الوحدة ، طعامه الحب عند الجوع ، وشرابه الحب عنـد الظمأ لا يملّ من طول خدمته لله تعـالى) ·

ومن الطبيعي أن تعرض بعض المتصوفات اللواتي عرفن بزهدهن وانصرافهن عن الحيـاة الدنيا وخروجهن عـن قواعد الدين أنفسهن الى القتل أمثال حمادة الصوفية(١٥) التي قتلت صلبـاً ٠

□ المـراة والأدب :

لم تكن المراة العربية بمعزل عن الحركة الأدبية في العصرين الأموي والعباسي ، فقـد شاركت في فروع الأدب جميعها ونظمت الشعر الجيد بتنوع موضوعاته وتعددها مـن وصف ورثاء وفخر وحب وعتاب وهجاء ٠٠ الخ ٠

وامتاز أدبها بصورة عامة بسعة الثقافة وبرقة اللفظ وعذوبة المعنى ٠ كمـا اهتمت بالنثر ، والخطابة والبيان ، ويمكن القول ان طرق المراة لباب الأدب شعراً كان أم نثراً جاء وسيلة لاثبات الذات والتعبير عن النفس والحفاظ على الشخصية ، وساعدها في ذلك ما تتمتع به من رقة الاحساس وشدة العاطفة فقـد استعانت بالشعر للتعبير عن مكنونات نفسها وعميق انفعالاتها فليس كالشعر وسيلة معينـة للتعبير عـن الحب ومثيل ذلك فعلت عفراء بنت عقال(١٦) حيث نظمت الشعر في ابن عمها عروة بن حزام الذي قتله هـواها ومعرفة غـدر الآخرين بهما حيث تقـول :

يا عروة ان الحي قـد نقضوا عهـد الإلـه وحاولوا الغـدرا

وحين تجزع لوفاته لا تجد الا الشعر بديلاً لرثائه ، والتعبير عن عظيم مصابها فتقول :

الا أيها الركب المخبون ويحكم بحـق نعيتم عروة بـن حزام
فلا تهنىء الفتيان بعـدك لذة ولا رجعوا مـن غيبـة بسلام
وقل للحبالى لا ترجـين غائبا ولا فـرحـات بعـده بغـلام

وتستمر عفراء في ندبه الى أن توافيها المنية في اليوم الرابع لوفاتـه كذلك ترثي ابنـة أبي عبابة(١٧) أباها الذي مات مـن ضرب السياط التي عرضه لها بشر بن مروان٠

وترثي ميسون الباهليـة(١٨) أخـاها المقصص بقولهـا :

يا طول يومي بالقليب فلم تكد شمس الظهـيرة تتقي بحجـاب
لكم المقصص لا لنـا ان انتم لـم ياتكم قـوم ذوو أحساب

وليس أبلغ من رثاء أروى بنت الحارث(١٩) بن عبدالمطلب لأمير المؤمنـين علـي بن أبي طالب حيث تقـول :

الا يا عـين ويحـك أسعدينا الا وابكـي أمـير المؤمنينـــا
رزينا خير مـن ركب المطـايا وفارسها ومن ركب السفينـــا

وهي أبيات حكم معاوية بن أبي سفيان حين سمعها على نساء بني هاشم بالفصاحة قائلاً : (ان نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم) ·

أما امرأة يزيد بن سنان(٢٠) التي أرقها الشوق والحنين وكابدت الكثير من ألم فراقها لزوجها الذي طال غيابه في الحرب تقول :

تطاول هذا الليل فالعين تدمع	وأرقني حزني فقلبي موجع
فبت أقاسي الليل أرعى نجومه	وبات فؤادي عانيا يتقرع
اذا غاب منها كوكب في مغيبه	لمحت بعيني آخرا حين يطلع
اذا ما تذكرت الذي كان بيننا	وجدت فؤادي للهوى يتقطع
وكل حبيب ذاكر لحبيبه	يرجي لقاه كل يوم ويطمع
فذا العرش فرّج ماترى من صبابتي	فانت الذي ترعى أموري وتسمع

وهذا ما جعل عبدالملك بن مروان حين سمع هذه الأبيات يأمر بألا يبعد المقاتلون عن بيوتهم أكثر من ستة أشهر ·

وخديجة بنت أحمد كلثوم المعافري(٢١) التي كانت تعاني من ألم فرقة حبيبها أبي مروان عبدالملك بن زيادة الله بعد أن تآمر من حولهم للتفريق بينهما تقول في أبيات عاطفية رقيقة :

فرّقوا بيننا فلما اجتمعنا	مزّقونا بالزور والبهتان
ما أرى فعلهم بنا اليوم الا	مثل فعل الشيطان بالانسان
لهف نفسي عليك بل لهف نفسي	منك أن بنت يا أبا مروان

ولم يكن أمامها سوى الشعر وسيلة للتعبير عن الاحتجاج على قسوة الحكم الذي فرضه أخوها الكبير عليها حين أمر بألا ترى من أحبته ·

فتقول :

أخي الكبير وسيدي ورئيسي	ما بال حظي منك حظ بخيس
أبغي رضاك بطاعة مقرونة	عندي لطاعة ربي القدوس
يا سيدي ما هكذا حكم النهى	حق الرئيس الرفق بالمرؤوس
واذا رضيت لي الهوان رضيته	ورأيت ثوب الذل خير لبوس

واذا وجدت المرأة ضالتها في الشعر للتعبير عن حبها ولوعتها فانها كثيراً ما استعانت

بشعر الهجاء للتعبير عن مشاعرها السلبية تجاه الخاطئين بحقها ، فحميدة بنت النعمان بن بشير(٢٢) حين تشمر بعدم أهلية زوجها روح بن زنباع لها فتهجوه بقولها :

وهل انا الا مهرة عربية سليلة افراس تجللها بغل
فان أنتجت مهراً كريما فبالحرا وان يك إقراف فما أنجب الفحل

وحين تبلى بالزوج الآخر الفيض بن محمد بن أبي عقيل الذي يدمن الشراب ويستمر فيه الى أن يفقد وعيه فيلطم وجهها ويقيء في حجرها فانها تهجوه بقولها :

وليس فيض بفياض العطاء لنا لكن فيضا لنا بالقيء فياض
ليث الليوث علينا باسل شرس وفي الحروب هيوب الصدر جياض

وحين ترغم عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية(٢٣) على الزواج ممن لا يليق بها ولا يكافيء قبيلتها ، تلوم أخاها أبان بن النعمان قائلة :

اطال الله شاوك من غلام متى كانت مناكحنا جذام
أترضى بالاكارع والذنابى وقد كنا يقر بنا السنام

ولم تقتصر المرأة العربية على نظم الشعر هجاء ولوماً وعتاباً بل اعتمدت الى جانبه النثر وسيلة لذلك .

فأم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان(٢٤) تعتمد أسلوباً نثرياً بليغاً حين ترد على الحجاج بن يوسف الذي وفد على زوجها الوليد بن عبدالملك ونصحه بأن يدع عن نفسه مفاكهة النساء لأن المرأة برأيه ريحانة لا قهرمانة ، ولا يجوز اطلاعها على الأسرار أو مشاورتها في الأمور لأن رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن وانه من الأوفر للعقل أن لا يجلس أمير المؤمنين معهن ... الخ .

فهي تخاطب الحجاج قائلة : (أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما أبتلاك برمي الكعبة ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود في الاسلام ، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من الامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فان كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وان كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فانه غير قابل منك ولا مصغ الى نصيحتك) .

وأم علقمة الخارجية(٢٥) التي عرفت بجرأتها في قول الحق ولو أدى ذلك الى حتفها تهجو الحجاج بن يوسف قائلة : (لقد خفت الله خوفاً صيرك في عيني أصغر من ذبابة) .

وحين طلب أن تنظر اليه قالت (أكره أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه) .

وحين يريد استشارة جلسائه من أهل الشام في أمرها قالت : (لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حين استشارهم في أمر موسى) .

وام عوف امرأة ابي الأسود الدؤلي(٢٦) التي طلقها زوجها والبسها صفات ليست منها تهجو زوجها في مجلس معاوية قائله : (يا امير المؤمنين ما علمته الا سؤولا جهولا ملحا بخيلا ، اذا قال فشر قائل ، وان سكت فذو دغائل ، ليث حين يامن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يضاف ، اذا ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر رشائه ، ولؤم آبائه ، ضيفه جائع وجاره ضائع ، لايحفظ جارا ، ولا يحمي ذمارا ، ولا يدرك ثارا ، اكرم الناس عليه من اهانه واهونهم عليه من أكرمه) .

وأجادت المرأة المدح وسلكت مسلك الشعراء في مدح الملوك والأمراء فكانت تفد عليهم وتنشدهم من قصائدها فيكرمونها ويصلونها ويستضيفونها مدة طويلة ، فقد اجادت الشاعرة سارة الحلبية صناعات كثيرة ومدحت أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي بقولها :

الشرق يزهو بكم والمغرب وكذا الزمان يتيه بكم ويقرب

وحين ارتحلت الى ابن الأحمر في الأندلس انشدته بقولها :

سما لك ملكا لا يزول مجددا وعزا وتاييدا ونصرا مؤيدا

وحين انتقلت الى ملك المغرب الأمير يوسف بن عبدالحق المريني أنشدته قائلة :

ملأتم الارض من قسط ومن عدل وقلب أعدائكم بالرعب والذعر

وعندما تتحسس المرأة العربية الاهانة ولا تقوى على الدفاع عن ذاتها تعتمد شعر العتاب لتنبه الآخرين الى الظلم الذي وقعت فيه ، فها هي المغنية جوهر(٢٧) تعاتب مروان الشامي الذي باعها للمهدي بيع المتاع بقولها :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم

وابرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا ارمى وانت سليم

وأتقنت المرأة وصف ما حولها شعرا ونثرا بما امتازت به من دقة الملاحظة وعميق الاحساس فليلى بنت عبدالله بن الرحال بن شداد الأخيلية(٢٨) وصفت توبة بن حمير الذي كان يهواها ورفض أبوها زواجها منه وزوجها لغيره بقولها :

(كان سبط البنان ، حديد اللسان ، شجا للأحزان ، كريم المخبر ، نظيف المئزر ، جميل المنظر) .

وقد وصفته شعرا بقولها :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قفره الد ملد يغلب الحق باطله

اذا حل ركب في ذراه وظله ليمنعهم مما يخاف نوازله

حماهم بنصل السيف من كل فادح يخافونه حتى تموت خصائله

كما وصفت ميسون بنت حميد بن بحدل الكلبية(٢٩) زوجة معاوية بن أبي سفيان بيئتها البدوية الأولى التي عاشت فيها طفولتها ومراهقتها بقولها :

للبس عباءة وتقرّ عيني ... أحب اليّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرياح فيه ... أحب اليّ من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب اليّ من بغل زفوف

أما عائشة الباعونية الدمشقية(٣٠) فقد وصفت مدينة دمشق بقولها :

نزّه الطرف في دمشق ففيها ... كل ما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل ... كيف تجري من تحتها الأنهار
وتناغيك بينها صارخات ... خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال ... وقصور مشيدة وديار

واذا كان بعض رجال ذلك العصر قد فاخروا من خلال الشعر بشرابهم فوصفوا الشراب وألوانه وآنيته وساقيته والحانة التي يتوفر فيها وتفننوا في ذلك فان بعض النسوة العربيات كام حكيم بنت يحيى الأموية(٣١) زوجة الملك بن عبدالعزيز ومن بعده هشام ابن عبدالملك والتي عاقرت الشراب وأدمنت عليه تقول :

الا فاسقياني من شرابكما الوردي ... وان كنتُ أنفدتُ فاسترهنا بردي
وسواري ودُمْلجي وما ملكت يدي ... مباح لكم نهب فلا تقطعا وردي

والى جانب تلك الصورة السلبية في شعر المرأة نجد المرأة الحازمة الفارسة التي تبث الحماسة في نفوس المقاتلين وتثير اريحيتهم للاقدام والمثابرة أمثال أم البراء بنت صفوان بن هلال(٣٢) التي تنادي المقاتلين لينضوا تحت لواء الخليفة علي بن ابي طالب والحرب معه ضد معاويه حيث تقول :

أسرج جوادك مسرعا ومشمرا ... للحرب غير معرّد لفرار
أجب الإمام ودب تحت لوائه ... وافر العدو بصارم بتار
يا ليتني أصبحت ليس بعورة ... فأذب عنه عساكر الفجار

وهكذا يتبين لنا أن المرأة العربية في العصرين الأموي والعباسي قد أجادت فنون الأدب وطرقت مجالاته ، ولم تكتف بذلك بل تمكنت من تحقيق مكانة متقدمة فيه ، مما جعل النقاد يقيمون المقارنات بين الشاعرات ليبينوا سمات كل شاعرة وخصائص شعرها . فالأصمعي(٣٣) الذي عرف بقدرته اللغوية ومهارته في التحكيم في جودة الشعر رأى أن ليلى الأخيلية أشعر من الخنساء . وعلل ذلك بأن (ليلى أكثر تصرفاً وأغزر بحراً وأقوى لفظاً) .

ولم ينفرد الأصمعي في رأيه هذا فقد أجمع الكثيرون على أن الأخيلية أفصح من الخنساء ونتيجة هذا التفوق والتميز فلم يعد شعر ليلى الأخيلية يقوّم مع شعر نساء أخريات متميزات بل كثيراً ما قوّم مع شعراء متميزين وجدوا في تلك الفترة الزمنية ذاتها كالنابغة الجعدي الذي فضلت عليه ٠

والى جانب تفوق المرأة في مجال الشعر الذي أصبح مجال دراسة ومقارنة فان المرأة العربية في ذلك العصر قد أدت دورها كناقدة ومقومة للشعراء أمثال عزه بنت جميل(٣٤) الغفارية الصخرية التي أحبها كثيّر وعرف بها ،والتي نقدت شعره مبينة أوجه القوة والضعف فيه فهي تدخل عليه متنكرة وتطلب منه أن ينشدها أشد بيت قاله في حب عزه ويجيبها قائلاً :

وجدت بها وجد المضلّ قلوصه بمكة والركبان غادٍ ورائح

وتقف عند معنى هذا البيت لتبين له ، أنه لم يصنع شيئاً فقد يجد المضل ناقة يركبها ٠

ويدقق كثيراً بالمعنى وينشد قائلاً :

وجدت بها ما لم يجد ذو حرارة يمارس جمات الركي النوازح

وتقف ثانية عند معنى البيت المنشود وتجيبه فقد يجد هذا من يسقيه :

وينشد بعدها قوله ٠

وجدت بها ما لم تجد أم واحدٍ بواحدها تُطوى عليه الصفائح

وتوافق عزة على المعنى وتقبل به ٠

ولا تكتفي بسماع الأبيات وتدقيق معانيها وقبول أفضلها بل تتشدد أحياناً حين ترى غلبة بعض الشعراء على حبيبها الشاعر كثير حتى انها حينما يدخل يوماً عليها تقول له :

(ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس لأني رأيت الأحوص ألين جانباً عند الغواني منك في شعرك وأضرع خداً للنساء) ٠

كل هذا جعل الملك بن مروان يدخلها على حرمه ليتعلمن من أدبها فقد سمع شعرها وحوارها الشعري مع كثير ، ونقدها للشعراء ، وأعجب بسرعة بديهتها وحسن منطقها ، حين سألها بعد أن بلغت من العمر عتياً عن الذي عجب كثيراً منها قائلة :

(أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة) ٠

□ المرأة وفن الغناء :

واذا كان الشعر قد حظي باهتمام المرأة في تلك الفترة فان الشعر الملحن والمغنى قد راق لبعضهن حيث اهتمت البيئة بالغناء والموسيقى وحرص الخلفاء والولاة على أن تضم قصورهم الجواري والإماء المتقنات للغناء والفن ٠

فقد حظيت المغنية دنيا بنت أقناعي الدمشقية عند الملك(٣٢) الأشرف بالاهتمام والرعاية وكثيراً ما كانت تخضع الجارية الى تربية وتأديب طويلي المدى لتصل الى درجة اتقان كافية ، تصلح بعدها لأن تكون مغنية عند أحد الخلفاء ٠

وبذل عبدالرحمن بن عنبة بن سعيد العاص جهده في تأديب الجارية بوبه(٣٣) ليهديها بعد ذلك الى هشام بن عبدالملك مماجعل اسماعيل بن عمار يقول فيها :

بوب حييت عن جليسك بوبا ... مخطئا في تحيتي ام مصيبا
بنت عشر اديبة في قريش ... بخ فاكرم بهم ابا ونسيبا
أدبت في بني أمية حتى ... كملت في حجورهم تاديبا

وكثيراً ما ارتبط في أذهان المواطنين أبيات معينة لمغنية بعينها فحبابة(٣٤) جارية يزيد بن عبدالملك اشتهرت بالأبيات التالية :

واني وان فندت في طلب الغنى ... لاعلم اني لست في الحب اوحدا
اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
فما العيش الا ما تلذ وتشتهي ... وان لام فيه ذو الشنان وفندا

واستطاعت بعض المغنيات أن توجد لذاتها طريقة متميزة ومدرسة خاصة يأخذ عنها الآخرون ، فجميلة السلمية(٣٥) التي كانت أعلم المغنيات في العصر الأموي أخذ عنها معبد وابن عائشة وغيرهم كثيرون ، وكان معبد يقول (أصل الغناء جميلة وفروعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين)

كما قال عنها أبو خليفة (لا يشك في فضيلتها في الغناء ولم يدع أحد مقاربتها في ذلك وكل مكي ومدني يشهد لها بالفضل) ٠فكانت تعلم الغناء لمن هو راغب فيه ، ولم تغن لأحد الا في منزلها ٠ ولم يمنع الغناء المغنيات عن العبادة وأداء الواجبات الدينية فجميلة السلمية أدت فرائض الحج برفقة مغنين وجماعة من الأشراف ٠ وخاتون(٣٦) المغنية أقامت مسجداً في دمشق سمي باسمها ٠

☐ المرأة والتربية :

عملت المرأة العربية في بلاد الشام كمربية لأولادها وأفراد أسرتها ، كما شاركت الإماء والجواري في تربية أولاد الأسر التي وجدت فيها ٠

وكانت المرأة تهتم بتربية الأبناء وفق القيم الشائعة والمبادىء التربوية السائدة ، ولم تكن لتعمل في المجال التربوي كاختصاصية وانما يلحظ المتقصي لتلك الفترة أن بعض النساء تميزن باتقانهن طرائق تربوية صحيحة جعلت الآخرين يثقون بهن ويكلفونهن بتربية أولادهم أمثال قبول بنت عبدالله(٣٧) التي كانت مولاة المستنجد بالله والتي تمتعت بنفوذ وسلطان وأشرفت على تربية قطب الدين قيماز وسنقر الصغير ٠

وأمثال هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشقية(٣٨) والتي تكنى بأم الدرداء الصغرى حيث تميزت باتقانها الفقه وربطها العلم بالعمل وحسن روايتها الحديث وقد أخذ عنها الكثيرون أمثال مسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجه وغيرهم ، ومن اقوالها التربوية :

- أفضل العلم المعرفة ٠

- تعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً ٠

- ان كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر ٠

وكانت تحض على العمل وتقول : (مابال احدكم يقول اللهم ارزقني وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء ديناراً ولا درهماً) ٠

ولم تكتف بالقول وانما عمدت الى نشر ما تؤمن به من مبادىء تربوية في دمشق وبيت المقدس حيث كانت تقيم ستة أشهر في دمشق وستة أخرى في بيت المقدس ٠

☐ المرأة والعلوم التطبيقية :

بين النساء المثقفات في العصرين الأموي والعباسي بعض ممن مارسن العلوم التطبيقية أمثال سارة الحلبية(٣٩) التي عملت في الطب والكيمياء ، حيث كانت تحل الذهب بمعرفة وخبرة وتكتسب به ، وكانت تتعاطى الكثير من الصناعات ٠

وأمثال عائشة بنت طلحة بن عبيدالله التيمية(٤٠) التي ملكت خبرة ممتازة في علم النجوم فما مرّ نجم في السماء الا وعرفت اسمه وخصائصه ووقت ظهوره ٠

☐ المرأة والخط العربي :

اذا كان بعض النساء قد أتقنّ رواية الحديث نقلاً بما تمتعن به من ذاكرة قوية الا أن اتقان الحديث والحرص على أمانة النقل تتطلب كتابته على نحو دقيق ٠ مما دفع ببعض النساء الى الاهتمام بكتابة الخط العربي والتفنن بتجميله ٠ فهذه فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي(٤١) وفاطمة بنت محمد بن عبدالقادر بن عثمان(٤٢) والتي تعرف ببنت قزيزان اشتهرتا بجودة الخط والعبارة الفصيحة ٠

والبنة كاتبة المستنصر بالله الأموي(٤٣) لم تقتصر على كتابة الأحاديث بل اهتمت بالكتابة الديوانية أيضاً ٠

☐ المرأة وتشييد المؤسسات :

عمدت النساء الى اقامة المؤسسات وتشييد الأبنية المناسبة التي تتيح لها مجال العمل والتأمل الفكريين عندما تتوفر لها الامكانات المالية الكافية والمرأة العربية التي استطاعت أن تطرق أبواباً علمية متعددة تمكنت من اشادة أبنية مختلفة الأنواع، متعددة الوظائف، يمكن أن نذكر منها :

١ ـ بناء المدارس :

شهدت مدينة دمشق حركة عمرانية كبيرة للمدارس والمؤسسات التربوية فقد استطاعت خاتون بنت ظهير الدين شومان(٤٤) بناء المدرسة الشومانية وعرفت تلك المدرسة باسم الطيبة، كما بنت خاتون بنت مسعود الزنكي(٤٥) مدرسة في جبل قاسيون . وأنشأت خديجة خاتون بنت عبدالملك المعظم بن العادل(٤٦) المدرسة المرشدية على نهر يزيد بالصالحية ، وشيدت ست الشام بنت أيوب أخت الملك العادل(٤٧) المدرسة الشامية والتي دفنت فيها فيما بعد .

وأنشأت عائشة زوجة شجاع الدين بن الدماغ(٤٨) المدرسة الدماغية التي كانت قبلة للعلماء الشافعيين والحنابلة .

كما شيدت عذراء بنت نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب المدرسة العذراوية والتي تخرج منها الكثير من العلماء الى جانب أنها كانت مكاناً يتجمع فيه النساء لسماع الوعظ وتلقي الدروس ، وبنت عزيزة الدين بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين المدرسة الماردانية ، وبنت بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه المدرسة العادلية الصغرى في سوق المصرونية ، كما بنت تركان خاتون بنت مسعود بن قطب مودود بن اتبك زنكي ابن اق سنقر المدرسة الاتابكية في جبل قاسيون . كما بنت ام حسام الدين بنت أيوب المدرسة الجوانية .

وبنت ربيعة خاتون الصاحبة أخت صلاح الدين(٤٩) مدرسة الصاحبة في حي الأكراد .

ولم يكن انشاء المدارس في مدينة دمشق وحدها بل شهدت مدينة حلب بناء مدارس عديدة منها مدرسة الفردوس التي أنشأتها صفية(٥٠) بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب التي وقفت عليها أوقافاً عظيمة ووضعت فيها جماعة من الفقهاء والقراء والصوفية .

٢ ـ بناء مؤسسات للمعوقين :

اهتمت المرأة العربية بتكريم الانسان وأخذ المعوقون جانباً من اهتمامها فها هي فاطمة(٥١) بنت عبدالملك بن مروان تقيم داراً للضيافة لتكون مأوى للمكفوفين في منطقة العقيبة في دمشق .

٣ ـ بناء المساجد :

اقتدت المرأة العربية بأفعال الرجال فرفعت المساجد، واستطاعت الست صفية(٥٢) أن توقف جامعاً باسمها في دمشق وأن تضع جملة شروط تتعلق بمواصفات الخطيب والإمام والمؤذن وغيرهم من العاملين فيه ،وأن توقف مسجداً آخر في مدينة حلب .

٤ ـ بناء الاربطة والاتربة والخانقاهات :

الى جانب تشييد المدارس والمساجد عمدت بعض النساء العربيات الى بناء الأربطة

والأتربة والخانقاهات منها تربة ست الشام بنت أيوب أخت الملك العادل ، وتربة قماري بنت خاتون ، وتربة عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، والتي بنتها الى جانب الرباط .

ولما كانت تلك المؤسسات العلمية والدينية تتطلب رصيداً مالياً كافياً فقد عملت النساء القادرات على وقف المنشآت التي تكفي لرفد تلك المؤسسات بالمال اللازم أمثال خديجة بنت نصر الله الدمشقية(٥٣) التي وقفت بيتها على جامع الحنابلة بدمشق ، وخديجة بنت عبدالله بن عبدالمناف(٥٤) التي وقفت ربع غلة وقفها لمسجدي الطواشي وعبدالغفار وصفية بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب(٥٥) التي وقفت أوقافاً عظيمة لصالح مدرستها بما فيها قرية كفر زيتا وغيرها .

وفاطمة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب التي وقفت خانقاه الكاملية(٥٦) في مدينة حلب ، وأم حسام الدين(٥٧) بنت أيوب التي وقفت حصتها بمزرعتها في جرمانا .

الا أن بعض النساء وقفن ممتلكاتهن على الأشخاص لا على البناء كما فعلت فاطمة(٥٨) بنت علي بن أحمد بن منصور الغساني التي وقفت على امام محراب مسجد دمشق وفقهاء المالكية المشتغلين في المسجد نفسه .

☐ المرأة والسياسة :

شاركت المرأة في العصرين الأموي والعباسي بادارة دفة السياسة وبسطت نفوذها في قصور الأمراء والخلفاء اما بطريق مباشرة أو غير مباشرة .

ومع أن علماء الأنتروبيولوجيا يميلون الى اعتبار السياسة عمل الرجل ولا يستثنى من هذه القاعدة الا بعض النساء الموهوبات المحظيات . وان المفكرين الغربيين من دوركهايم الى بارسوز يرون أن المرأة أكثر عاطفية وتعبيراً وأقل عقلانية ونفعاً من الرجل . الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل دور المرأة الاستراتيجي في العمل السياسي في تلك الفترة فقد سمت المرأة وراء السلطة متعلقة بالرجل محاولة السيطرة على البلاد من خلاله ، بحيث كان بعض رجال السياسة واجهة ، كونه ابن المرأة الحاكمة فعلياً أو زوجها(٥٩) .

فعندما انحرف الحاكم عن الطريق الصحيحة للحكم سارعت أمه الى قتله ، فالزمرد بنت جادلي أخت الملك الدقاق صاحب دمشق ، والتي اشتهرت بالحزم والدين وحسن تدبير الأمور ، أمرت بقتل ولدها شمس الملوك حين تمادى في غيه وكثر فساده وسفكه الدماء ومواطاته الفرنج على بلاد المسلمين وست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي كلفت الوزير ابن دواس بقتل أخيها الحاكم بامر الله لتماديه في بغيه وتقتيله الأبرياء ونهبه الدور واستحيائه للنساء .

وفاخته أم خالد بن يزيد(٦٠) زوجة مروان بن الحكم انتقمت لابنها خالد من زوجها مروان لقوله : (يا ابن الرطبة) .حيث تعاونت وجواريها على قتله .

والمرأة العربية تبقى وفية لأسرتها فاذا مات الحاكم فيها، حفظت الملك واستطاعت تدبير مملكتها على أحسن وجه ، وهكذا فعلت صفية بنت الملك العادل بن أيوب التي ملكت مدينة حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت في الملك تصرف أشهر السلاطين ، وقامت مملكتها أحسن قيام خلال ست سنوات.

وكذلك الحال عند غازية خاتون أم الملك المنصور(٦١) التي حفظت الملك لولدها المنصور صاحب حماة بعد وفاة زوجها الملك المظفر حتى كبر وسلمته السلطة .

وامتازت بعض النساء العربيات ببعد الأفق والنظرة الحكيمة فعاتكة بنت يزيد(٦٢) حين رغب زوجها عبدالملك أن تشهد بميراثها من أبيها لولديها بحضور شهود في مقدمتهم روح بن زنباع الجذامي رفضت ذلك وأعلنت على ملأ من الجميع تصدقها بمالها على الفقراء من بني آل سفيان ، وهذا يكشف عن نظرة ثاقبة في الحفاظ على عائلتها الأموية وعلى محبة الشعب لولديها مما دفع روح بن زنباع الى وصفها بقوله (انها كجدها معاوية في الدهاء) .

ورغم قدرة المرأة على العمل السياسي فقد بقي الغالبية العظمى من الرجال يرون عدم أهليتها لهذه الفعالية ، ولا أدل على ذلك من قول الحجاج بن يوسف للوليد بن عبدالملك(٦٣) : (يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فان المرأة ريحانة لا قهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ،ولا مكايدة عدوك ، ولا تطمعهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلهن في أكثر من زينتهن ،واياك ومشاركتهن في الأمور فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك لهن ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فان ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك) .

ويؤكد هذا الرأي قول صعصعة(٦٤) لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان يستشير زوجته فاختة بنت قرظة بن حبيب بن عبدشمس في كل شؤونه قائلاً :

(يا أمير المؤمنين كيف ننسبك الى العقل وقد غلب عليك نصف انسان(٦٥) .

وكذلك فعل عبدالملك بن مروان الذي كان يأخذ بنصيحة عاتكة بنت يزيد بن معاوية حيث قالت له مرة حين أراد أن يباشر الحرب بنفسه :

(يا أمير المؤمنين لا تخرج السنة لحرب مصعب فان آل الزبير ذكروا خروجك فوجّه الجنود وأقم، فليس الرأي أن يباشر الخليفة الحرب بنفسه) .

وهكذا يتبين لنا أن المرأة العربية في بلاد الشام في العصرين الأموي والعباسي شاركت في مجالات الثقافة جميعها انطلاقاً من الثقافة السائدة آنذاك في المجتمع تلك الثقافة التي يحدد اطارها بصفات عربية اسلامية والتي تحدد قيمها ومنطلقاتها الفكرية من النظرية العربية والشريعة الاسلامية .

وان معرفة ما وصلت اليه المرأة العربية من تقدم يدفع المرأة في وقتنا الحاضر لبذل ما في وسعها للتطور وتفتيح طاقاتهاالابداعية ، فاذا ما أتيح للمرأة العربية الفرص المناسبة استطاعت أن تقوم بجلائل الأعمال ومهمات الأمور ٠

وعصرنا الحالي والتحديات التي تواجهها الأمة العربية أحوج ما تكون للمرأة المثقفة المبدعة والمؤهلة القادرة على أن تقف الى جانب الرجل ليبنيا معاً مجتمع التقدم والعدالة ٠

د. صالحة سنقر

* * *

العواشي :

١ ـ عمر رضا كحالة ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ـ الطبعة الرابعة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٢ الجزء الرابع ـ ص (٤٤) ٠

٢ ـ مراجع الجدول رقم (١) ٠

٣ ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٣٢٠) والجزء الثالث ص (٣) والجزء الرابع ص (٣١) ٠

٤ ـ راجع الجدول رقم (٢) ٠

٥ ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٦٥) ٠

٦ ـ اعلام النساء ـ الجزء الثاني ص (٤٦) ٠

٧ ـ اقتصرنا في تحديد هذا العدد على اسماء الكتب التي يتوضح من عنوانها الكثير من مضمونها ٠

٨ ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٩٥) ٠

٩ ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٢٨٧) ٠

١٠ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٩٥) ٠

١١ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ ـ الجزء الثاني ـ ص (٤٨) ٠

١٢ـ اعلام النساء ـ الجزء الخامس ص (٢٠١) ٠

١٣ـ اعلام النساء ـ الجزء الثاني ص (٣١) ٠

١٤ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٧٤) ٠

١٥ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٢٩٢) ٠

١٦ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٢٩٦) ٠

١٧ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٢٢٥) ٠

١٨ـ اعلام النساء ـ الجزء الخامس ص (١٣٦) ٠

١٩ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٣١) ٠

٢٠ـ اعلام النساء ـ الجزء الخامس ص (٢٩٧) ٠

٢١ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص ص (٣٢٢ ـ ٣٢٣) ٠

٢٢ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص ص (٣٠٠ ـ ٣٠١) ٠

٢٣ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٣٦١) ٠

٢٤ـ ابن قتيبة الدينوري ـ عيون الاخبار ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ مطبعة مصر ـ ١٩٦٤ ـ المجلد الرابع ص (٧٨) ٠

٢٥ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٣٢٨) ٠

٢٦ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٥٠) ٠

٢٧ـ اهتم الأدباء والشعراء بتعليم الجواري اكثر من اهتمامهم بتعليم الحرائر ، هادفين من ذلك الى تحقيق ربح مادي ٠ فقد كان علم الجارية وأدبها يقوّم في سوق الرقيق باكثر مما يقوم به جمالها ، وكانت الجواري يغنين الشعر ويدربن على حفظ القصائد الشعرية التي تصلح للغناء والتي تمتاز بسهولتها وقرب معناها وعذوبة لفظها للتوسع راجع : ابو الفرج الأصفهاني ـ كتاب الأغاني ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٢٩ ـ الجزء الثالث ص ٣٤٤ ـ ٣٦٦ ـ ٢٥٩ ـ ١٥ ـ ٣١٩ ـ ٣٦٨ ـ ٢٦٨ ـ ١٦٥ ـ ١٨٨ ـ ١٩٣ ـ ٢٠٠ ـ ٢١١ ـ ٢٤٣ ـ ٢٦٦

٢٨ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٣٣٢) ٠

٢٩ـ اعلام النساء ـ الجزء الخامس ص (١٣٦) ٠

٣٠ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (١٩٧) ٠

٣١ـ كانت ام حكيم تشرب الخمر في كاس خاص يزن ثمانين مثقالا من الذهب للتوسع راجع اعلام النساء ـ الجزء الاول (٢٨٧) ٠

٣٢ـ اعلام النساء ـ الجزء الاول ص (١٢٣) ٠

٣٣ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٢٧٢) ٠

٣٤ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٤١٩) ٠

٣٥ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (١٥٨) ٠

٣٦ـ اعلام النساء الجزء الاول ص (٢٣٤) ٠

٣٧ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٢١١) ٠

٣٨ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (٣١٢) ٠

٣٩ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (١٨٤) ٠

٤٠ـ اعلام النساء الجزء الخامس ص (٢٥٠) ٠

٤١ـ اعلام النساء ـ الجزء الثاني ص (٣٢٠) ٠

٤٢ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (١٥٤) ٠

٤٣ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٩٥) ٠

٤٤ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٧٤) ٠

٤٥ـ اعلام النساء الجزء الرابع ص (٢٨٧) ٠

٤٦ـ اعلام النساء الجزء الأول ص (٣٤٦) ٠

٤٧ـ اعلام النساء الجزء الثاني ص (١٥٤) ٠

٤٨ـ اعلام النساء الجزء الثالث ص (١٨٧) ٠

٤٩ـ اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٠٩) ٠

٥٠ـ اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٤٠) ٠

٥١ـ اعلام النساء الجزء الرابع ص (٧٦) ٠

٥٢ـ اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٣٠) ٠

٥٣ـ اعلام النساء الجزء الاول ص (٣٤٤) ٠

٥٤ـ اعلام النساء الجزء الأول ص (٣٣٣) ٠

٥٥ـ اعلام النساء الجزء الثاني ص (٣٤٠) ٠

٥٦ـ اعلام النساء الجزء الرابع ص (١٠٦) ٠

٥٧ـ اعلام النساء الجزء الخامس ص (٣٠٩) ٠

٥٨ـ اعلام النساء الجزء الرابع ص (٨٠) ٠

٥٩ـ ميشيل زمبلست ـ المراة والثقافة والمجتمع ـ ترجمة هيفاء هاشم ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٩٧٦ ص ٦ ٠

٦٠ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (١٤) ٠

٦١ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (٣) ٠

٦٢ـ اعلام النساء ـ الجزء الثالث ص (٢١٩) ٠

٦٣ـ اعلام النساء ـ الجزء الأول ص (١٥٢) ٠

٦٤ـ اعلام النساء ـ الجزء الرابع ص (١٤) ٠

٦٥ـ يريد غلبة امراته فاختة بنت قرظة عليه ٠

★ ★ ★

النحاة والمفعولات

صلاح الدين الزعبلاوي

لا شك ان على الباحثين ان يكشفوا عما يقع من هفوات العلماء ويتفق من زلاتهم ، وان يتداركوا ما فاتهم بحثه فاغفلوه ، وهل يُعقب السكوت عن الخطأ الا جهلاً او تلقح المشايعة فيه الا شراً . على ان عليهم ان ياخذوا فيما يبحثون بسبب وثيق ، فلا يخطئوا السبيل الى الحق ولا ينوا عن مزاولة الصبر واستنفاد الوسع في التماسه . وأن يحسنوا التحقيق والتثبت فيما يعيبون فلا يعجلوا بالحكم قبل استيفاء الحجة فيتجه من نقلهم غض او انتهاك لمن حبسوا انفسهم على اللغة فصدقت نياتهم في تحري الصواب وابتغاء الحق .

من ذلك ما شُغف به الدكتور مصطفى جواد ، عضو المجمع العلمي العراقي ، رحمه الله ، من تتبع للنحاة ، فيما تناوله من مباحث لغوية بارعة في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف) . واذا كان له في هذا المضمار طرائف تبعث على النظر وفرائد تُغري بالتأمل والتدبر فان له منازع تشف عن حيف لفضل هؤلاء وانتقاص لعظم شأنهم فيما قدّموه ، وعلوّ مرتبتهم فيما أسلفوه .

فكيف يدرك النقد غرضه اذا صار أمره الى أن تحيّف على الحق فلم يعلق منه بسبب ، ومال عن القصد فلم يحظَ منه بطائل .

اسماء المفعولات

عقد الدكتور جواد في كتابه الذي اشرنا اليه فصلاً فيما أسماه (اسماء المفعولات) نحاول التفريق بين المفعول المطلق من جهة ، وبين سائر المفعولات كالمفعول به والمفعول فيه والمفعول لاجله والمفعول معه ، من جهة أخرى . فالمفعول المطلق هو المفعول الحقيقي،

أما ما عـداه فليس مفعولاً حقيقياً في واقع الامر وجوهره • فالمفعول به هو (المفعول به فعـل") أي الذي فُعِل به فعل" • والمفعول فيه هو (المفعول فيه فعل") • واذ آثرنا شرح ما عناه والكشف عنه والتمثيل له قلنا : اذا قلت: ضربت ضرباً فقد أحدثت الضرب فعلاً، فـ (ضـرباً) مفعول حقيقي • أما اذا قلت :ضربت الباب ، فأنت لم تحدث البابَ الذي أسميته مفعولاً ، وانمـا أحدثت الضـربَ بالبـاب • وكذلك قولك : أكلت في السوق ، فانك لم تُحدث السوق في قولك هذا، والسوق هو المفعول ، وانما أوقعت الاكل فيه • ونظير هذا قولك: سعيت طلباً للرزق، فانك لم توقع الطلبَ وقـد جعلته مفعولاً ، وانما أوقعت سعيك من أجل الطلب ، وهكذا •

المفعـول المطلـق عند الدكتور جـواد

ذكر الدكتور جـواد أن المفعول الحقيقي قد أسمي (مطلقاً) لخلوه من كل قيـد ، على حين قيد كل مفعول سواء بصلة من الصـلات ،فـ (به) و (فيه) و (لأجله) و (معه) هي هـذه الصـلات • وما اتى به الأستاذ جـواد مَنسَّق سديد ، واضح القصد ، بين الدلالة والغرض ، وقـد بسط رأيه هـذا ، وأردف (واذا كان تطبيق الرأي على واقع العربية صحيحاً ، لم يجز لمعترض أن يقول لي : هذا لم يقل به العلماء • فالقواعد النحوية لم تنشأ مجموعةً ولم يبتدعها الجمهور في زمن واحـد ، بـل نشأت بالتدريج ، وابتدعها نحويون مختلفون في ازمان مختلفة باستقراء كلام العرب وماجاء على مثال كلامهم••) وتابع حديثه فقال (ومن أثبت من علماء النحو المجتهدين رأيه بالدليـل المبين ، فانه مـن الخطـل والحمق والبلادة أن يقال له : هـذا لم يقل به أحـد غيرك ، فهـو مجتهد ، وبالاجتهاد تمت تلك الجمهرة مـن القواعـد ••• وانما يجـوز للمعترض أن يبطلـه باستدلال آخر يدعمـه بالبراهين النيِّرة والشواهد الكافية) • وأقوال الاستاذ هذه ، محكمة أيضاً ، ماثلة الأغراض ، لا قلق فيها ولا اضطراب ، وهو في ذلك دقيـق البحث ، بعيد الغور ، سليم الحجة •

ولكن ما الذي يعنيه ظاهر رأيه هذا وواضح قوله في الكشف عنـه ؟ الا يعنيـان أن النحاة قد أغفلوا ذلك وتجاوزوه • فلم يفطنوا اله أو يلتفتوا اليه ، وأنه قد استدرك عليهم ما فاتهم وغاب عنهم فلم يحفلوا به أو يأبهوا له ؟ ومؤدى ذلك أنه تفرد بما سـاقه مـن الأراء والأدلة فأتى بما لم تُفتح العين على مثله ، ونزع الى ما لم يُسبق الى شيء منه •

فهـل خفي على النحاة حقاً أن يميزوا (المفعول المطلق) مـن سائر المفعولات ، وأن يخصوه بحـكم ، أو يفردوه بوصف وحال ؟

المفعول المطلق عنـد النحـاة

ان ما قاله الاستاذ جواد في التفريق بين (المفعول المطلق) وسائر المفعولات ، قد قاله النحاة جملة وتفصيلاً ، بل مَضَوا في شرحه وتبيانه وأفاضوا في الحديث عنه وأسهبوا ، وبسطوا القول فيـه بسطاً •

ما ذهب اليه ابن هشام في هذه المسالة :

قال ابن هشام في اعراب قوله تعالى (واعملوا صالحاً ـ المؤمنون/٢٣) على ما حكاه السيوطي في الأشباه والنظائر (٤/٤١) :(ان صالحاً ليس مفعولاً به ، بل هو اما نعت لمصدر محذوف ، كما يقول أكثر المعربين في أمثاله ، وإما حال كما هو المنقول عن سيبويه، ويكون التقدير واعملوه صالحاً ، والضمير للمصدر٠٠) وتابع قوله : (وبيان ذلك أمور أحدها أن الفعل المتعدي هو الذي يكون له مفعول به ٠ والمفعول به هو محل فعل الفاعل، وان شئت قلت : الذي يقع عليه فعل الفاعل٠٠ وهذا المفعول به هو الذي بنى النحاة له اسم مفعول كمضروب ومأكول ومشروب ٠فزيد المضروب والخبز المأكول والماء المشروب، هي محل تلك الافعال، وليست مفعولة، وانما هي مفعول بها ، ومن ضرورة قولنا مفعول به أن يكون المفعول غيره ٠ ومعنى قول النحاة مفعول به : أنه مفعول به شيء من الأحداث ، والمفعول هو ذلك الحدث الواقع به ، وهو المصدر، وسماه النحاة مفعولاً مطلقاً ، بمعنى أن سواه من المفاعيل مفعول مقيد ٠ فانك تقول: مفعول به، ومفعول فيه، ومفعول له، ومفعول معه ، وليس فيها مفعول نفسه الا المصدر فهو المفعول المطلق ، أي المجرد عن القيود ، وهو الصادر عن الفاعل نفس فعله ٠٠٠) ٠

ثم قال : (وكل فعل لم يُبن منه اسم مفعول لم يُقل عنه انه متعد ، بل هو لازم ، وان كان له مفعول حقيقي وهو ٠٠٠ المفعول المطلق فهو مصدر وليس مفعولاً به ٠٠) ٠

واستطرد ابن هشام في ايضاحه فقال : (وأما سيبويه، رحمه الله، وهو إمام الصنعة، فاطلق على المفعول به أنه مفعول ، ولم أرَ في كلامه (مفعول به) لانه قال : باب الفاعل الذي لم يتعده فعله الى مفعول ، وباب الفاعل الذي تعداه فعله الى مفعول ٠ وذكر في الأول: ذهب وجلس ، وفي الثاني : ضرب عبدالله زيداً) ٠ أقول : ان إمام الصنعة لم يفُته أن يقول للمفعول به (مفعول به) ، واذا كان قد أطلق (المفعول) على (المفعول به) في تسمية الباب اختصاراً ، فيما ذكره ابن هشام ، فقد صرح به في الشرح ، اذ قال (١/١٤) : (وذلك قولك ضَرَبَ عبدالله زيداً ، فعبدالله ارتفعها هنا ٠٠٠ وانتصب زيد لأنه مفعول به تعدى اليه فعل الفاعل٠٠) واطلاق (المفعول) على (المفعول به) اختصاراً وتخفيفاً ، على جهة الاصطلاح، مستفيض في كلام النحاة عامة ٠ وقد أشار الى ذلك ابن هشام نفسه ، في مغني اللبيب ، اذ قال (٢/١٧٧):(وجرى اصطلاحهم على أنه اذا قيل مفعول وأطلق ، لم يرد الا المفعول به ، لما كان أكثر المفاعيل دوراً في الكلام ، خففوا اسمه) وأردف (وانما كان حق ذلك ألا يصدق ، الا على المفعول المطلق ، ولكنهم لا يطلقون على ذلك المفعول الا مقيداً بقيد الاطلاق) ٠

تسمية المفعول المطلق بالحقيقي عند ابن هشام :

وختم ابن هشام كلامه فقال : (وتسمية الأول ، أي المفعول المطلق ، مفعولاً حقيقة ، وتسمية الثاني مفعولاً اصطلاحاً ، او على حذف الجار والمجرور، وارادة أنه مفعول به) وأردف (ولا يرد على عبارة سيبويه شيء مما ذكرناه في تسمية معنى المصدر فعلاً حقيقياً ، ولا في تسمية المصدر مفعولاً مطلقاً ٠٠) ٠

معارضة ما جاء به الدكتور جواد بما تقدم من كلام ابن هشام :

أقول يتبين بما قدمنا من كلام ابن هشام أن الاستاذ جواد لم يصب فيما جاء به طريفاً، أو يضف فيما تناوله جديداً ، وان طلبت كلامه والتمسته فيما بسطه ابن هشام دلك على نفسه وهداك الى موضعه • فهو لم يزد على أن أورد صدراً مما أسهب ابن هشام بل النحاة في تفصيله وبسط أطرافه • ومن العجب العاجب أن الاستاذ قد عدد مراجعه التي استقى منها فصول كتابه أو عوّل عليها فيما عرض له من مباحث فجعل (الاشباه والنظائر) في عدادها • فكيف يصرح بجدّة بحثه وسبقه اليه وتفرده به ، وقد حكينا ما حكيناه من تفصيل المسألة فيما جاء به هذا الكتاب من كلام ابن هشام ؟ وما الذي قدمه الاستاذ هنا في توفير حق النحاة فيما بسطوه من أصول هذا العلم ومسائله، وتقرير فضلهم فيما اهتدوا اليه من دقائقه وفرائده بالتلطف والتدبر ، يقلبون وجوه الرأي ويصرفون الفكر ويوالون البحث ويستفرغون الوسع ،في كل ما عرض لهم من أحكام اللغة ، وهو أمر أظهر وأيسر وأعرف من أن يؤتى بمثال له ، وشاهد عليه •

كلام ابن هشام في شذور الذهب :

قد أوضح ابن هشام رأيه في (التفريق بين المفعول المطلق وسائر المفاعيل) في كتابه (شذور الذهب) ، فقال : وسمي مطلقاً لانه يقع عليه اسم المفعول بلا قيد : تقول ضربت ضرباً فالضرب مفعول لأنه نفس الشيء الذي فعلته ، بخلاف قولك : ضربت زيداً ، فان زيداً ليس الشيء الذي فعلته ، ولكنك فعلت به فعلاً وهو الضرب، فلذلك سمي مفعولاً به، وكذلك سائر المفاعيل ••) •

كلام ابن يعيش في شرح المفصل :

ليس ابن هشام فريداً فيما ذهب اليه من تمييز المفعول المطلق بحد ، أو تخصيصه بتعريف ووصفه بالحقيقي • فقد قال ابن يعيش في شرح المفصل : (اعلم أن المصدر هو المفعول الحقيقي لأن الفاعل يحدثه ويخرجه من العدم الى الوجود ، وصيغة الفعل تدل عليه ، والأفعال كلها متعدية اليه • وليس كذلك غيره من المفعولين ••) • وقال أيضاً : (فاذا قلت قام زيد وفعل زيد قياماً ، كانا في المعنى سواء ، ألا ترى أن القائل اذا قال من فعل هذا القيام فتقول زيد فعله ، والمفعول به ليس كذلك • ألا ترى أنك اذا قلت ضربت زيداً لم يصح تعبيره بأن تقول : فعلت زيداً ،لأن زيداً ليس مما تفعله أنت ، وانما أحللت الضرب به) •

كلام الرضيّ في شرح الكافية لابن الحاجب :

قال الرضي في شرح الكافية : (•• قدم المفعول المطلق لأنه المفعول الحقيقي الذي أوجده فاعل الفعل المذكور وفعله •• أما المفعول به نحو ضربت زيداً ، والمفعول فيه نحو ضربت يوم الجمعة ، فليسا مما فعله فاعل الفعل المذكور وأوجده ، وكذا المفعول معه ••) •

وكذلك فصّل الجامي في شرح الكافية أيضاً ، اذ قال : (المفعول المطلق سمي به لصحة اطلاق صيغة المفعول عليه من غير تقييده بالباء أو في أو مع أو اللام ، بخلاف المفاعيل الاربعة الباقية ، فانه لا يصح اطلاق صيغة المفعول عليها الا بعد تقييدها بواحدة منها فيقال : المفعول به أو فيه أو معه او له ،وهو اي المفعول المطلق اسم ما فعله فاعل نعل ٠٠) ٠

ما جاء في بعض المظان الأخرى :

وقد جاء في شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك : (وسمّي مفعولاً مطلقاً لصدق ـ المفعول ـ عليه ، غير مقيد بحرف جر ونحوه ، بخلاف غيره من المفعولات فانه لا يقع على اسم المفعول الا مقيداً كالمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له) ٠

وقال الشيخ خالد الازهري في شرح الأزهرية : (المفعول المطلق ، أي الذي يصدق عليه قولنا مفعول صدقاً ، غير مقيد بجار حرف أو ظرف) ٠

وقال الشيخ حسن العطار في تعليقه عليه : (وانما سمي المصدر مفعولاً مطلقاً لانه المفعول حقيقة ، واطلاقهم على المفعول به أنه مفعول بغير تقييد ، عرف اصطلاحي ٠ والا فزيداً من ضربت زيداً ليس بمفعول لك حقيقة ، بل المفعول لك : الضرب ، اما زيد فمفعول به الضرب ٠٠) ٠ ونظائر هذا وذاك في معظم الامهات اللغوية ٠

عودة الى كلام الدكتور جواد ، والتعليق عليه :

وقال الاستاذ جواد في فصل آخر : (ولم يبق من المفاعيل ما نسميه مفعولاً حقيقياً أصلياً الا المفعول المطلق ، لأن قولك فتحت الباب فتحاً يدل على انك أحدثت الفتح وعملته وانتيته ، فهو مفعول حقيقي اصلي،لا حاجة به الى القيد اللفظي من قيود المفاعيل الاخرى : به ومعه ولأجله وفيه ، وقد وصفه النحاة بذلك) ٠

اقول ما دام النحاة قد وصفوا المصدر بانه المفعول المطلق ، وأضافوا أنه الحقيقي ، وقد رأيت كيف فصّلوا القول في الداعي لهذا الوصف ، والعلة لهذه التسمية ، والموجب للفصل بينه وبين سائر المفعولات من هذه الجهة ، فأين موضع السبق والتفرد ، ومحل الطرافة والطراءة والبداهة فيما استرسل فيه الأستاذ وأسهب ؟

التعدية الحقيقية والتعدية اللفظية عند الدكتور جواد

ومما نحن بسبيله كلام الدكتور جواد على التعدية الحقيقية واللفظية، فقد ذهب الى ان من الافعال المتعدية ما يتعدى حقيقة ،ومنها ما يتعدى لفظاً ، اذ قال : (فالتعدي الحقيقي هو صدور الفعل من الفاعل ووقوعه على غيره ٠ أعني الفاعل يصدر فعله من نفسه على غيره الذي هو المفعول به ٠ فاذا قلت أكلت الطعام ٠٠ فالطعام مفعول به

بتعد حقيقي ، وقولهم سَفِه نفسَه وغَبِن رأيه ورشِدَ أمره ، انما هي متعدية تعدياً لفظياً ، وذلك بدلالة جواز قولك سفهتْ نفسُه وغَبن رأيه ورشد أمره ·· برفع هذه الأسماء على الفاعلية ، فمن المحال أن يكون المفعول به الحقيقي فاعلاً ومفعولاً في جملة واحدة) · قال هذا ولم يحاول تعريف ما أسماه بالمفعول اللفظي ·

ولنستوف ما ذكره الاستاذ في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف) حول هذه التعدية، لننتهي من ذلك الى الكشف والتحقيق· قال الأستاذ في موضع آخر : (تكلمنا سابقاً على التعدية اللفظية والتعدية الحقيقية ،والمفعول به اللفظي والمفعول به الحقيقي · وذكرنا من الأدلة ما هو واضح لكل ذي عقل سليم ، عالم بهذا العلم · وذكرنا أن ذلك مما لم يعرفه علماء النحو لأنهم لم يفكروا فيه ،وانما كان وكدهم أن يمينوا المنصوب ويميزوه من غيره ، لان المهم عندهم الاعراب الذي به تضبط صحة الكلام ، وبه يعرف اللحن والخطا فيه) · وقال: (وقد اضفنا صفة الأصلي الى المفعول المطلق لئلا يلتبس بالمفعول به الحقيقي، وان كان مقيداً بالجار والمجرور · فالمفعول به الحقيقي هو مفعول لفظي كائناً ما كان بالنسبة الى المفعول المطلق) ·

ثم تطرق الأستاذ من هذا الى الخلاف بينه وبين الشيخ رؤوف جمال الدين ، فقال :- (وقد ادعى الشيخ رؤوف في مناقشاته أن النحوي المشهور بأبي الفتح عثمان بن جني تكلم على المفعول الحقيقي الاصلي والمفعول اللفظي ··· وهجم بعد ذلك على كلام ابن جني على العامل المعنوي والعامل اللفظي ··· وأين الكلام على العامل اللفظي والعامل المعنوي من الكلام على المفعول به والمفعول المطلق ··) ·

ما حد المفعول الحقيقي والمفعول اللفظي

المفعول به عند النحاة هو ما يقع عليه فعل الفاعل، كما ذكر ابن الحاجب في كافيته، والاقرب في حده ، كما ذكر الإمام الرضي في شرحه ، أن يقال هو ما يصح أن يعبر عنه باسم مفعول غير مقيد ، مصوغ من فعله ·فاذا قلت (أكلت الطعام) كما مثل الأستاذ جواد، فالطعام مفعول به لأن فعل الآكل قد وقع عليه فعلاً ، وحده أنك تصوغ من (أكل) اسم مفعول غير مقيد تعبر به عن (الطعام) فتقول (الطعام مأكول) ، فمأكول اسم مفعول غير مقيد بجار · فـ (أكل) فعل متعد لانه يباشر مفعوله ، وقد وقع حدثه عليه ·

فاذا قلت (مررت بخالد) فخالد ليس مفعولاً به ، لأنه ليس محلاً للحدث اذ لم يتجاوز فيه الفعل فاعله الى غيره ، فلا مساغ للتعبير عنه باسم مفعول غير مقيد · فأنت لا تقول في وصفه (خالد ممرور) وانما تقول (خالد ممرور به) فتصفه باسم مفعول مقيد بجار · فـَ (مرَّ) فعل لازم لأن الحدث فيه لم يتجاوز فاعله ، وانما يتوصل الى صلته بحرف الجر ·

واذا كنت قد استدللت بقولك (الطعام مأكول) بأن (اكل) فعل متعد ، فقد استدللت بامتناع قولك (خالد ممرور) بأن (مَرَّ) فعل غير متعد · على أن هناك أفعالاً لازمة غير

متعدية قد حذف الجار من صلتها فباشرت ما حقه أن يكون مجروراً ونصبته على الاتساع، فيما أسموه (الحذف والايصال) فما القول في منصوبها هذا ؟ انه ليس مفعولاً به لأن الفعل لم يتجاوز به فاعله ليقع عليه في الأصل . فاذا حذف فيه الجار اتساعاً فهو على تقدير وجوده ، لأن المعنى عليه ، كما يقول ابن يعيش في شرح المفصّل . فهو منصوب ولكنه على نية الجر ، وقد أسماه الأستاذ جواد المفعول به اللفظي . فالمفعول به اللفظي عنده ، هو الاسم الذي يباشره الفعل اللازم دون أن يقع عليه فعل الفاعل ، بحذف الجار منه اتساعاً .

فاذا قلت (جئت فلانا) ففلان عند الأستاذ ، مفعول به لفظي لأن الفعل قد باشره دون أن يقع عليه حدثه ، بعد أن حذف الجار منه ، على الاتساع . وقد يكون للفعل مفعول به على الأصل يباشره ويقع عليه فعله ، الى جانب ما أسماه الأستاذ بالمفعول به اللفظي كقولك (كلتك الطعامَ) فالطعام المكيل مفعول به على الأصل ، فهو المفعول به الحقيقي ، والضمير اسم منصوب على نية الجر ، فهو المفعول به اللفظي ، لأن الكلام على تقدير (كلت لك الطعام) .

واذا كان العرب قد حذفوا الجار على الاتساع سماعاً ، في الفعل اللازم ، أي الذي يتمدى بالحرف عامة ، فأسمي هذا (الحذف والايصال) كقولك (جئت فلانا) ، فانهم حذفوا الجار على الاتساع أيضا قبل الامكنة المختصة ، خاصة ، وأسمي هذا عند كثرة النحاة (نزع الخافض) كقولك (جئت البيت) فما قول النحاة فيما نصب بعد حذف الجار منه على الاتساع ، هنا وهناك ، والأمر فيهما سواء ؟

قال الأستاذ جواد : (تكلمنا سابقاً على التعدية اللفظية والتعدية الحقيقية ، والمفعول به اللفظي والمفعول به الحقيقي .. وذكرنا من ذلك ما لم يعرفه علماء النحو لأنهم لم يفكروا فيه ، وانما كان وكدهم أن يميزوا المنصوب ويميزوه ..) . فهل غفل النحاة حقاً وشغلوا عن فارق ما بين المفعول به الذي يباشره الفعل المتعدي أصلاً لوقوع فعل الفاعل عليه ، والاسم المنصوب الذي لا يباشره الفعل اللازم الا بعد حذف الجار اتساعاً لانتفاء وقوع فعل الفاعل عليه ؟

هل عرف النحاة المفعول الحقيقي والمفعول اللفظي؟

اذا كان الأستاذ جواد قد أتى بالأدلة على سداد التفريق جملة بين المفعولين المذكورين ، فان علينا ، كما يبدو ، أن نستظهر بالحجج على أنه كان فيما شرح وبسط وأفاض ، أدنى الى الاحتذاء منه الى الابتداء ، وأن النحاة قد تطرقوا الى بحث الخلاف بين هذين الموضعين وعرضوا له وأوسعوه بحثاً ودرساً ، وأن في دعوى الأستاذ اجحافاً بحق هؤلاء وانتهاكاً .

سيبويه والتعدية اللفظية والمعنوية :

هذا إمام الصناعة سيبويه قد عرض في كتابه (١٠٨/١) لما أسماه (استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى) فذكر أن العرب تتسع في الكلام فتوجز وتختصر بالحذف فتستعمل الفعل في اللفظ دون المعنى . ومما مثل به لذلك قول عامر بن الطفيل: (ولأبغيَنَّكم قَنا وعُوارضا) .

فأصل الكلام (ولأبغينكم بقنا ٠٠) ٠ قال سيبويه : (ولكنه حذف وأوصل الفعل) ٠ فالضمير المتصل في (أبغينكم) منصوب على الأصل بوقوع فعل الفاعل عليه فهو مفعول به حقاً ٠

أما (قنا) فليس منصوباً على الأصل ، اذ ليس الفعل هاهنا مما يتجاوز فاعله الى سواه بالاضافة الى (قنا) لينصبه ويوقع حدثه عليه ٠ وهو لم يعمل ، الى ذلك ، في المعنى ، وانما عمل في اللفظ ، لان المعنى على الجر والللفظ على النصب ٠ قال سيبويه في تعليل استعمال الفعل في اللفظ دون المعنى(١/٨٢) : (لأن قنا وعوارض مكانان ، وانما يريد بقنا وعوارض ، ولكن الشاعر شبهه بدخلت البيت) ٠ قال الشارح : (الشاهد فيه نصب قنا وعوارض على اسقاط الجر ضرورة ، لأنهما مكانان مختصان لا ينتصبان انتصاب الظرف وهما بمنزلة ذهبت الشام)٠ أقول لو عمل الفعل في المعنى لقيل (لابغينكم بقنا) لكنه عمل في اللفظ فقال (لابغينكم قنا) ٠ فسيبويه اذاً قد جعل عمل الفعل بنصب الاسم بعد حذف الجار اتساعا ، عملاً في اللفظ لا في المعنى ، من حيث كان على تقدير وجود الجار ، والمعنى على هذا ، كما يقول ابن يعيش ٠

أما الأستاذ جواد فقد جعل (تعدية) الفعل بعد حذف الجار اتساعاً في مثل قولك (سفه نفسه) تعدية باللفظ أيضا ، فهذا كلامه : (وقولهم سفه نفسه وغبن رأيه ورشد أمره ٠٠ انما هي متعدية تعديا لفظيا)٠ واذا كان سيبويه قد رأى ان عمل الفعل فيما اورده عمل في اللفظ لا في المعنى ، افلا يوحي كلامه هذا بان ادنى شيء يسمى به ما نصب بعد حذف الجار (المعمول في اللفظ) او (المعمول اللفظي) ، اوليس هذا ما نعته الدكتور جواد ؟

وقد يسأل سائل لماذا ذكر سيبويه أن الفعل ، فيما نحن بسبيله ، قد عمل في اللفظ ولم يقل ان الفعل قد تعدى الى اللفظ كما فعل جواد ؟

أقول في الجواب عن ذلك ان الافعال التي مثل بها سيبويه لازمة حيناً متعدية حيناً آخر ، فاذا قيل (تعدى) أوجب في الأصل أن يكون الفعل متعدياً ، واذا قال (عمل) فانه قد شمل بقوله اللازم والمتعدي على السواء ٠ وهكذا فان الفعل فيما حكاه سيبويه هاهنا ، لا يمكن ان يتجاوز فاعله الى غيره من حيث الاصل ليتعدى ، وانما يمكن ان يعمل ، وقد عمل في اللفظ بعد حذف الجار ، وقد كان يعمل في المعنى ، لو لم يحذف ٠ فالمنصوب بعد حذف الجار ليس مفعولاً به البتة ٠ اما الأستاذ جواد فقد جاء بـ (سفه) على أنه فعل لا يتعدى ، فكيف يتاتى أن يكون له في الاصل معمول به لفظيا كان او حقيقيا ، وانما يمكن ان يقال انه يعمل في اللفظ دون المعنى ٠ فاذا قلت (سفه نفسه) فقد عمل في اللفظ ، واذا قلت (سفه في نفسه) على الأصل ، فقد عمل في المعنى ٠

ولكن هل في أمثلة سيبويه ما يصح أن يكون مفعولاً به في اللفظ ؟

أقول قد أورد سيبويه قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها يوسف/٨٢) وقال: (انما يريد أهل القرية، فاختصر وعمل الفعل في القرية، كما كان

عاملاً في الأهل لو كان هاهنا) ، ف (اسأل) قد عمل في (القرية) وتعدى اليها ، ولكن في اللفظ، لأن المسؤول هو أهل القرية لا القرية . ولو قيل (واسأل أهل القرية) لكان عمل الفعل في (أهل) وتعدّيه اليها ، على المعنى والأصل، ف (القرية) اذاً مفعول به للفعل المتعدي ، باللفظ . و (أهل) لو قيلت لكانت مفعولاً به على المعنى والاصل . ومما مثل به سيبويه لاستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى قول ساعدة (كما عسل الطريق الثعلب) وكثرة النحاة على ان نصب (الطريق) وهو من الظروف المختصة انما كان اتساعاً ، على نزع الخافض . اما سيبويه فقد رأى ان (عسل) قد عمل في اللفظ ، لا في المعنى ، فمنصوبه وهو الطريق منصوب في اللفظ في المعنى أيضاً ، لأنه على نية الجر ، ولو قيل (عسل في الطريق الثعلب) لكان عمل الفعل في المعنى .

الرضي والتمييز بين المفعول به ، والملحق بالمفعول به :

قد ميز الرضي ، في شرح الكافية بين ما ينصب بفعل يباشر المفعول فيقع حدثه عليه ، كما قال جواد ، وبين ما ينصب بفعل لا يباشر المفعول لقصوره عن تجاوز فاعله الى سواه ، وانما يعمل فيه نصباً بعد حذف الجار ، على الاتساع ، فسمى الاول مفعولاً به وجعل حده ان يوصف باسم مفعول يصاغ من فعله ، غير مقيد بجار كما مرّ ، وسمى الآخر ملحقاً بالمفعول به . فاذا قلت [illegible] مجيء اليه ، فهو ملحق بالمفعول به .

ومن امثلة الرضي (بغيت زيداً شراً) ف (زيداً) ليس مفعولاً به، لقولك في الاصل (بغيت لزيد الشر) ، فزيد مبغي له ، فهو ملحق بالمفعول به . اما الشر فمفعول به لوقوع فعل الفاعل عليه ، لان الشر هو المبغي دون زيد .

وقد ساق الرضي قول القائل (كلت زيداً طعاماً) كما اورده الدكتور جواد . فزيد مكيل له فهو ملحق بالمفعول به عند الرضي ، ومفعول به لفظي عند جواد ، لان الاصل (كلت لزيد طعاماً) . اما المفعول به فهو الطعام لوقوع فعل الفاعل عليه عند الرضي لانه هو المكيل دون زيد . وقد اسماه جواد المفعول به الحقيقي ، وأتى فيه بما يشبه كلام الرضي . وقد تجنب الرضي نفسه ، كما رأينا ، أن يسمي (منصوباً) لم يتعدّ اليه الفعل لقصوره عن تجاوز فاعله (مفعولاً به) خلافاً لجواد ، فقال : انه ملحق بالمفعول به .

كيف ماز النحاة النصب بأسقاط الجار من النصب بفعل متعد :

ماز النحاة ما نصب بفعل لازم بحذف الجار فقالوا انه منصوب (بنزع الخافض) أو اسقاطه ، كما مرّ . وجعل جماعة ما كان من الأفعال على هذا النحو قسماً على حدة . فهناك فعل متعد بنفسه وهو ما أسموه بالمتعدي ، وفعل متعد بالحرف ، وهو ما دعوه باللازم أو القاصر ، فاذا حذف الجار من هذا ، على الاتساع ، جاء المجرور منصوباً فاشبه المنصوب بفعل متعد ، وليس هو كذلك، وهو ما نحن بسبيله . قال ابن يعيش في شرح المفصل حول قول القائل (أمرتك الخيرَ) بنصب الخير ، وهو من الأفعال التي تنصب بحذف

الجار وأصله (أمرتك بالخير) قال : (لأن الفعل لا يتعدى الا بحرف الجر ، فاذا ظهر حرف الجر كان الأصل ، واذا لم يذكر كان على تقدير وجوده واللفظ به ، لأن المعنى عليه ، واللفظ محوج اليه) ٠

وقال ابن الأنباري في كتابه (أسرار العربية/١٨٠): (وذهب الاكثر أن ـ دخلت ـ فعل لازم ٠ وقد كان الأصل فيه أن يُستعمل مع حرف الجر ، الا أنه حذف حرف الجر اتساعاً على ما بينا ، وهذا هو الصحيح) ٠ونحن اذا أردنا ايضاح قولهم (منصوب على نزع الخافض) أو (منصوب على الحذف والايصال) قلنا ان الاسم الذي ينصب باسقاط الجار ليس مفعولاً به ، اذ امتنع أن يقع عليه فعل الفاعل ، على حد ابن الحاجب ، أو يوصف باسم مفعول تام صيغ من فعله ، على حد الرضي ٠ فالاصل فيه هو الجر ، واذا طرأ عليه ، بالاتساع ، ما ابدل من جره نصبا باللفظ فقد ظل على معنى الجر ، كما اوضح ابن يعيش ٠ ولذا قال سيبويه ان الفعل ها هنا قد عمل في اللفظ لا في المعنى ، فهو منصوب لفظاً ، مجرور معنى ٠

معارضة ما تقدم من كلام النحاة بما جاء به الدكتور جواد في المسألة :

أقول اذا عارضنا ما بسطناه من أقوال النحاة في التمييز بين المنصوب بمباشرة الفعل اياه ووقوع حدثه عليه ، والمنصوب بحذف الجار ، بما تقدم من كلام جواد ، تبين لنا مبلغ ما أخطأ به صاحبنا بل ما اسرف به على نفسه ، حين أنكر على هؤلاء ما محصوه واستجلوا غوامضه ، وما تقصوه واستقروا دقائقه في هذا الباب ٠ والا فهل يصح ان يسترسل فيقول في غير تحفظ أو احتياط :(ان ذلك مما لم يعرفه علماء النحو لانهم لم يفكروا فيه ، وانما كان وكدهم أن يميزوا المنصوب ويميزوه من غيره ، لأن المهم عندهم الاعراب ٠٠) ؟

أفليس في قوله هذا انتهاك واجحاف ، بل غض وتفريط ؟

(سَفِهَ نَفْسَهُ)

ودعوى جواد باغفال النحاة الكشف عن حقيقته

جاء في التنزيل العزيز (٠٠ الا من سَفِه نفسَه ـ البقرة/١٣٠) فخرّجه كثرة النحاة على أن (سَفِه) فعل لازم ، و (نفسَه)منصوب لفظاً ، على معنى الجر ٠ فأخذ هذا الدكتور جواد وقال : (نفسه) : مفعول به لفظي لا حقيقي ٠

وقد طال كلام الأيمة على(سفه نفسَه)لا ليبينوا أن (نفسَه) في الآية قد جاء على النصب ، كما ذهب اليه جواد ، فهذا واضح لكل ذي عينين ، ولكن ليذكروا علة هذا النصب والمعنى الذي استوجبه واقتضاه ٠ وقد ساقوا في هذا وجوهاً كثيرة : منها أنه منصوب على حذف الجار ، كما أسلفنا ، أو منصوب لأنه مفعول به حقاً فسَفِه فعل متعد كجهل ، ومعنى الآية (الا من جهل نفسَه) ومنها أنه منصوب على التفسير أي التمييز ، وانكره البصريون

لاشتراطهم التنكير فيه ، أو أنه على تضمين (سَفِهَ) اللازم معنى فعل متعد ٠ وقد جاء كل هذا في التهذيب للأزهري ٠ وأضاف أبوحيان في سفره الضخم البحر المحيط فقال (أو أنه شبيه بالمفعول به) ٠ قال صاحب المصباح :(وسفه يسفه بالضم ، فان ضمن معنى التعدي كسر ، وقيل سَفِه زيد" رأيه بالنصب ،والاصل سَفه رأيُ زيد ، لكن لما أسند الفعل الى الشخص نُصب ما كان فاعلا ، ومثله ضقت به ذرعاً ورشدت أمرك ، والأصل ضاق به ذرعه ورشد أمره ٠ ونصبه قيل على التمييز ولا معرفة في معنى النكرة ، وقيل على التشبيه بالمفعول ، وقيل على نزع الخافض ، والاصل رشدت في أمرك لأن التمييز عند البصريين لا يكون الا نكرة محضة) ٠

فما الذي يعنيه كل هذا ويُعرب عنه ؟ أليس يسفر عن أن النحاة قد توفروا على بحث هذه الأفعال ، وعكفوا على تدبرها والتلطف في الكشف عن تصرفها ، وأن آراءهم قد اختلفت اختلاف ماتصوروه من تشعب معانيها ، وانه عناهم من أمرها فوق ما عنى الأستاذ جواداً ، ولو أنهم لم يقصروا اهتمامهم على تحول المعنى ، وانما غادروه الى ما اتخذوه من أساليب الصناعة في تمثل الكثير من وجوه اعرابها وصور تخريجها ؟

ويقول الأستاذ جواد (وقولهم سفه نفسه وغبن رأيه ورشد أمره ، انما هي متعدية تعدياً لفظياً ، وذلك بدلالة جواز قولك : سفهت نفسه وغبن رأيه ورشد أمره ، برفع هذه الاسماء على الفاعلية ، فمن المحال أن يكون المفعول به الحقيقي فاعلاً ومفعولا في جملة واحدة) ٠

اقول ليس الاشكال في الامر ان تقول على اللزوم : (سَفهت نفسه) أو (سَفِه في نفسه)، ثم تقول على التعدي: (سفه نفسه)، ويستقيم الوجهان ، اذ يصح ان يكون الفعل لازما في لغة ، ومتعديا في لغة اخرى ، وليس هما في جملة واحدة ، بل كل في جملة على حدة ٠

وليس الاشكال في الأمر ان تعدل بـ (سفهت نفسه) الى (سَفه نفسه) باللفظ والمعنى جميعا، لان عدولك هذا قد آل بـ (نفسه) الى ان يكون مفعولا به على وجه، او تمييزا على وجه اخر ٠ قال الجوهري في الصحاح (وقولهم سفه نفسه وغبن رأيه ٠٠٠ كان الاصل سفهت نفس زيد ٠٠ فلما حوّل الفعل الى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه ، لانه صار في معنى سفّه نفسه بالتشديد ، هذا قول البصريين والكسائي ٠٠ وقال الفراء ، لما حوّل الفعل من النفس الى صاحبها خرج مابعده مفسّراً ليدلّ على أن السفه فيه، وكان حكمه أن يكون سَفِه زيد نفساً ، لان المفسّر لا يكون الا نكرة ، ولكنه ترك على اضافته ونصب كنصب النكرة تشبيهاً بها ٠٠) ٠

أقول بل الاشكال في الأمر أن تعدل بـ (سَفِهت نفسُه) أو (سَفه في نفسِه) الى (سَفه نفسَه) باللفظ دون المعنى ، وهو ما نحن بسبيل بحثه وتحريره ، فـ (نفسَه) ها هنا اما مفعول باللفظ ، أي منصوب على اسقاط الخافض ، أو ملحق بالمفعول به ، أو شبيه به ، وليس مفعولاً به على كل حال ٠

وفيما تقدم من قول الجوهري (لانه صار في معنى سفّه نفسه بالتشديد ، هذا قول البصريين) نظر ، ذلك أن معنى (سَفه نفسَه) عند البصريين : (سفّه نفسه) بالتشديد أو (سفه في نفسِه) بالتخفيف ، على ما جاء في شرح الكافية للرضي ·

(ألبس فلاناً جبّـة)
وقـول جـواد فيـه

اختتم الدكتور جواد كلامه على المفعول به الحقيقي واللفظي بمثال آخر · على أنه لم يأتِ هنا بمفعول عُـدِل به عن الجر الى النصب ، وهو على معنى الجر ، كما فعل أول مرة ، وانما أتى بمفعول عمـل فيـه الفعل نصباً لكنه لم يجرِ على معناه فلم يقع حدثه عليه ، فأسماه (المفعول اللفظي) أيضا · وقد أشار الى أنه اذا تعـدد المفعول بـه للفعـل الواحد ، فالمفعول بـه الحقيقي واحد · قال الأستاذ : (لأن فلسفة التعدي لا تجيز وجـود مفعولين مختلفين لفعل واحد ، والمفعول الثاني والمفعول الثالث ، هما من المفاعيل اللفظية ، لا الحقيقية ، كما ذكرنا) ·

وعاد ، كما هو شأنه ، يؤكد أن ذلك لم يخطر على بال أو يسنح في فكر ، اذ أردف : (وهو بحث لم يطرقه علماء النحو من قبل) · وفي الجواب عن هذا أقول ان النحاة لم يذكروا الذي ذكره الأستاذ بألفاظـه ، لكنهم عنـوه وقصدوه صراحة ، فيما أثر عنهم وخلّف في مطولاتهـم ·

قال الأستاذ جواد (نحو البس فلاناً جبةً ، واستدفع الله السوء ، فالمفعول به الحقيقي فيهما هو المفعول به الأول ، ان كان ترتيبهما أصلياً · ففلان ولفظ الجلالة مفعولان حقيقيان لوقوع الالبـاس ، لا اللبس ، على فـلان ، ولوقوع الاستدفاع لا الدفع ، علـى لفـظ الجلالة · ألا ترى أنك تقول : لبس فلان جبة ، ودفـع الله السوء ، فهما فاعلان في الأصـل ، ولهما مفعولان حقيقيـان · فلما دخـل على أفعالهما ما ينسخ عنهما الفاعلية ، بقيت لهما المفعولية ، فهي حقيقية لهما لفظية لغيرهما) ·

ولنأخذ المثال الأول : (ألبس فلاناً جبّة) ففـلان هو المفعول بـه الحقيقي ، وجبة هو اللفظي ، على حد تعبير الأستاذ · وقد أورد الامام الرضي نظيراً لهذا المثال فقال (كسوت زيداً جبة) (وجعل زيداً) المفعول به الظاهر لفعـل (كسا) ، لأن زيـداً هو (المكسوّ) فهو الذي وقع عليه فعل الفاعل · أما (جبّة) فليس مفعولاً له في المعنى ، اذ ليس هو (المكسوّ) ، وانمـا هو (المكتسى) ، و (جبـّة) على هذا مفعول فعـل هو مطـاوع لـ (كسا) ، وهـو (اكتسى) · واذا كان (جبة) ليس مفعولاً لـ (كسا) في المعنى ، لأن فعل الفاعل لم يقع عليه ، فماذا يكون اذاً بالاضافة اليه ؟ لم يبق الا أن تقول انه مفعول (كسا) في اللفظ دون المعنى ، لأن المعنى على (اكتسى) ، وهو الفعل المقدر ·

ذلك أن الرضي قد جعل ضابط (المفعول به) ، في الأصـل ، أن يوصف باسم المفعـول المصوغ من فعله دون قيد ، لهذا اعتدّ المفعول في قولك (قربت زيداً وجئت زيداً وبعت زيداً

.. وأمثالها) ملحقاً بالمفعول بـه ، لانه على حذف الجار في الأصل. فاذا أردت وصف (زيد) فيها قلت (مقروب منه ومجيء اليه ومبيع منه) لا (مقروب ومجيء ومبيـع) . فاذا عرفت هذا فانظر الى ما قاله الرضي : (باب كسوت وأعطيت متعـد الى مفعولين حقيقـة ، لكن اولهما مفعول هذا الفعل الظاهر ، اذ زيـد في قولك : كسوت زيداً جبة ، وأعطيت زيداً جبـّة ، مكسو ومعطى . وثانيهما مفعـول مطاوع هـذا الفعـل ، اذ الجبـة مكتسـاة ومعطوة أي مأخوذة ..) . فما الذي يعنيه هذا ؟ الا يعني أن فعل الفاعـل قـد وقـع على المفعول الاول وهو (زيـد) ، وأن الثاني قد وقع عليه حدث الفعل المطاوع في المعنى . وقد اتخذ الرضي ضابطه في تمييز المفعول به فقال : (اذ زيـد في قولك كسوت زيـداً جبة واعطيت زيداً جبة ، مكسو ومعطى) أي المفعول بـه لـ (كسا واعطى) لوقوع فعـل الكسوة والا عطـاء عليـه ، دون الاكتساء والعطاء . اوليس هذا ما أراده الأستاذ جواد حين قال (لوقوع الالباس لا اللبس على فلان)؟ أما (جبـّة) وهو المفعول الثاني فقـد وقع عليـه حدث الفعـل المطاوع في المعنى دون الفعل الأصلي . قال الرضي : (اذ الجبـّة مكتساة ومعطوة أي مأخوذة) فهو اذاً في معناه مفعول به (لاكتسى وعطا) دون (كسا واعطى) لوقوع فعـل الاكتساء والعطاء عليه ، دون فعل (الكسوة والاعطاء) . واذا كان المفعول الثاني وهو (جبـّة) مفعولاً به في المعنى للفعل المطاوع فهو ، اذاً مفعول في اللفظ للفعـل الظاهر لأنـه هو الذي عمل فيـه ، لفظـاً لا معنى . أفرأيت أن النحـاة قـد بحثـوا ما بحثه جواد ولو لم يوردوا ألفاظه ويتخذوا مصطلحاته .

هـل ورد اصطلاح (المفعول به لفظـاً) صراحـة عنـد النحـاة وما الذي عنـوه بهـذه التسـمية

أقول قد ورد عنهم ذلك ، لكنهم عنـَوا به شيئاً آخر . انهم أرادوا بهذه التسمية مفعولاً به قد ثبتت له المفعولية بمعنى بوقوع الفعل عليه ، ولفظاً بنصبه ، خلافاً لما ذهب اليه جواد .

لقد جـاء في كتاب (شرح البناء) لمحمد الكفوي ، في الكلام على أفعـال المشاركة أن قولك (ضارب زيـد عمراً) دل (صريحاً) على صدور الضرب من زيـد على وجه (الغالبية) ووقوعه على عمرو ، كما دل (ضمنـاً) على صدوره من عمرو على وجه (المغلوبية) ووقوعه على زيـد . فيكون كل واحـد منهما فاعلاً ومفعولاً . لكن (الغالب) يكون فاعلاً (لفظاً) ، والمفعول بـه مفعولاً به (لفظـاً) ، وبالعكس معنى لا لفظاً (ص/١٦) .

وهذا يعني أن جماعة من النحاة ذهبوا في (ضارب زيد عمراً) الى اعتداد (زيد) فاعلاً لفظـاً (أي لفظاً ومعنى) ، واعتداد (عمرو) مفعولاً به (لفظاً) ، أي (لفظاً ومعنى) وجعل (زيد) مفعولاً به معنى أو ضمناً ، و (عمرو) فاعلاً معنى أو ضمناً .

والذي أصارهم الى هذه التسمية انهم لا يعتـدون الفاعل فاعلاً ما لم يكن فاعـلاً بمعنـاه ، والمفعول به مفعولا به ما لم يكـن مفعولا به بمعناه أيضاً . فاذا قالوا هو فاعل لفظاً فقد قصدوا أنه فاعل معنى ولفظاً ، أو قالوا هو مفعول به لفظاً عنوا أنه مفعول به

معنى ولفظاً . أما اذا كان الاسم فاعلاً معنىً أو ضمناً ولم يرفع ، أو مفعولاً به معنى أو ضمناً ولم ينصب ، فقد وصفوه بالفاعل معنىً أو ضمناً ، والمفعول بـه معنى أو ضمنـاً ، ويبدو الاصطلاح معاكساً لما عوّل عليه جواد.

اجحـاف جـواد بحـق ابـن جنـي

بقي أن نشير الى أن الأستاذ جواداً لم يجحف بحق النحاة عامـة وحسب ، بل نـدد بابـن جني خاصـة وتنقصه بكلام لم يرزق حظه من التثبت فلم يخل من استطالة واجتراء . ونحن لا نقول ان اتباع الايمة في مثل هـذا الباب أسوغ وأسلم ، لأنهم (أهـل هذا الشأن وأرباب هذه الصناعة) ، ولكننا نرى أن حسن الظن بهؤلاء وبأمثال ابن جني مـن أصحاب التحقيق، قبل التصدي لتخطئتهم أليق وأجدى، وأن تبين كلامهم واستشفاف مراميه ومغازيه، قبل التسويء عليهم أجـدى وأحجى وأعدل . فقد رأيت فيما فصلناه أن النحاة قد أتوا ، فيما عرض له الأستاذ جـواد ، بما أتي بـه وسبقوه اليه بالنص واللفظ بعضاً ، وبالمعنى والقصـد ، دون الاصطلاح ، بعضـاً آخر .

قال الاستاذ جواد في كلامه على ابن جنـي : (قال ابن جنـي : ألا تراك اذا قلت ضَرَبَ سعيد" جعفراً ، فان ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئاً ، وهل تحصّل من قولك ضَرَبَ الا على اللفظ بالضاد والراء والباء ، على صورة فَعَل ، فهذا هو الصوت . والصوتُ مما لا يجوز أن يكون منسوباً اليـه الفعـل) وعلّق جواد على كلام ابن جني هذا بقوله : (وكان ابن جني واسع الخيال يتلعب بالكلام تلعباً ، فنقول له : اذا كان الفعل ضرب مكتوباً أو ملفوظاً ، وقـد نصب جعفراً ، فهـل هو صوت ؟ فلولا وجود ضَرَبَ لم تنصب جعفراً، فضرب اذن هو سبب نصبـه . أما أن سعيداً هو الذي ضرب جعفراً فلا ينكره أحد ، ولكن بيـان ذلك احتـاج الى ذكر العمل الذي هو ترجمان الحركـات .. فنسب الضـرب الى ضـرب ، ونسب ضَرَبَ الى فاعـل فَعَلَه ،فالفاعل وُجد بوجود الفعل ، ووُجد الفعلُ بوجود الفاعل . وانما كانت نسـبة الضرب الى الفعل لأنه نتيجة له ومن جنسه ، ولأنه قد يستغنى عن الفاعل فيقال : ضُرِب جعفر ،ولا يستغنى عن الفعل البتـة) .

تفسير ابن جني للعـامل اللفظي والمعنوي :

أقول قد عقد ابن جني في كتابه الخصائص (١/١١٤) باباً على ما أسماه (مقاييس العربية) وذكر أنها ضربان لفظي ومعنوي .وقد قصد بهذا ما قاله النحاة في بحث العامل من أنه عامل لفظي وعامل معنوي . فالعامل ،كما في الأمهات ، ما أوجب اعراب الكلمة أي جعل آخرها على وجه مخصوص ، وما يتقوم به المعنى الذي يستوجب هذا الاعراب . فاذا كان العامل يتمثل بـ (اللفظ) كالفعل قولك (قام زيـد) فقـد أسمي لفظياً ، واذا كـان لا يتمثل باللفظ كمعنى الابتداء في قولك (زيـد كريم) أو وقوع فعـل المضارع موقع الاسم في قولك (مررت بامرأة تبكي) أي باكية، فقد اسمي معنويا . وأكثر البصريين على أن

العامل المعنوي لا يكون في غير هذين الموضعين • وقد أضاف الكوفيون ما أسموه بـ (الخلاف) فاعتدوا عامل النصب في الظرف اذا كان خبراً ، وفي الفعل المضارع بعد فاء السببية أو واو المعية ، عاملا معنوياً أيضاً •

يعرض ابن جني لتسمية العامل ويوضح ما عناه النحاة بقولهم (لفظي) فيقول : ليس العامل اللفظي ما عمل بلفظه ، فـ (ضرب) في قولك (ضرب سعيد جعفراً) عامل لفظي، لكنه لا يعمل بلفظه ، وانما يعمل بمعناه ، واللفظ مصاحب لهذا المعنى • فـ (ضَرَبَ) الحاصلة بلفظك (الضادَ والراء والباء) على صورة (فَعَلَ) لم تعمل في الحقيقة شيئاً لأنك اذا قصدت بها اللفظ كانت الصوت، ولا شأن للصوت في العمل • ويتحصل من هذا أن (ضَرَبَ) التي تعمل انما تعمل ، في واقع الأمر، بمعناها لا بلفظها، ولو أسميت عاملاً لفظياً ، لأن مراد النحاة من قولهم (العامل اللفظي) العامل الذي يصحبه اللفظ ، و (العامل المعنوي) العامل الذي لا يصحبه اللفظ ، وكلام ابن جني هذا واضح ، ظاهر الاستقامة •

وقد أبرز النحاة هذا القصد حين قالوا (العامل، لفظياً كان أو معنوياً ، ما به يتقوم، أي يحصل المعنى المقتضي للاعراب ، ففي (جاءني زيد) جاء عامل ، اذ به حصل معنى الفاعلية في زيد •• وفي (رأيت زيداً) رأيت: عامل ، اذ به حصل معنى الفاعلية في زيد•• وفي (مررت بزيد) الباء : عامل اذ به حصل معنى الاضافة في زيد ، كما جاء في شرح الكافية للجامي • وهكذا أسمي العامل في الجمل الثلاث لفظياً لأنه تمثل بالفاظ (جاء ورأى والباء) • لكن هذا العامل لم يعمل بلفظه وانما عمل بمعناه ، اي بما أحدثه من اثر معناه في المعمول حتى أصبح هذا فاعلاً أو مفعولاً به أو غير ذلك •

نظرية العامل في النحو :

ولسنا هنا بسبيل نقد (نظرية العامل) • فقد جاء في العدد الثالث من مجلة اللسان العربي للعام (١٩٦٥) للميلاد (ص/١٤٣) :(ابن جني هو أول من أنكر العامل في كتابه الخصائص حيث قال : وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالحركات من الرفع والنصب والجر والجزم ، انما هي للمتكلم نفسه ، لا لشيء غيره •• ثم قال : ان ضَرَبَ انتهت بمجرد النطق بها ، فلا يمكن أن تكون عاملا في زيد أو عمرو ••• وذهب ابن مضاء قاضي قضاة قرطبة في عهد الموحدين على هذا النحو في كتابه الرد على النحاة) • وهو وجيه ، وانما نحن بصدد بيان ما عناه النحاة بقولهم لفظي ومعنوي ، وما أراده ابن جني في الكشف عما قصدوا اليه ، أو يجب أن يقصدوا اليه، في هذه التسمية • فالاعراب أثر يجلبه العامل، وهو لفظي ومعنوي ، فاللفظي الذي يتمثل باللفظ مذكوراً أو مقدراً ، والمعنوي الذي لا يمثله اللفظ •

ونذكر هنا ما قام بين ابن أبي عبدالله الجرمي وأبي زياد الفراء حين سأل هذا عن (زيد منطلق) لِمَ رُفع زيد؟ فقال الجرمي: رُفع بالابتداء، وقال الفراء: فأظهره، قال: هو معنى لا يظهر، قال فمثّله، قال: لا يمثّل. قال الفرّاء: ما رأيت كاليوم عاملاً لا يظهر ولا يتمثل. وأصحاب الفرّاء يرفعون المبتدأ بالخبر خلافاً للبصريين الذين يرفعونه بمعنى الابتداء، أي بعامل معنوي لا يظهر ولا يتمثل.

قال ابن جني: (وانما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي ليُروك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه، كمررت بزيد، وليت عمراً قائم، وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل بوقوعه موقع الاسم)، وأكد ذلك بقوله (اعلم أن القياس اللفظي اذا تأملته، لم تجده عارياً من اشتمال المعنى عليه). ونظير ذلك كلام الشيخ أمين السفرجلاني في القطوف الدانية، اذ قال (العامل اللفظي ما يكون للسان فيه حظ.. والعامل المعنوي ما لا يكون للسان فيه حظ..). والكلام في كل ذلك واضح مبين. فأين هذا من رد الأستاذ جواد وقوله: (فالعامل وجد بوجود الفعل، ووجد بوجود الفاعل، وانما كانت نسبة الضرب الى الفعل لأنه نتيجة له، ومن جنسه..)؟ بل أين هذا الذي بسطه ابن جني واوضحناه من قول الأستاذ: (وكان ابن جني واسع الخيال يتلعّب بالكلام تلعبا)؟



★ ★ ★

ابن خلدون شاعراً

محمد خير شيخ موسى

يرتبط الحديث عن ولي الدين ابي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (تونس ٧٣٢ ـ القاهرة ٨٠٨ هـ) بمقدمته الشهيرة لكتاب العبر المعروف بتاريخ ابن خلدون ، والتي ارسى فيها قواعد علم الاجتماع والعمران ، واصول علم التاريخ ، وعوامل نشأة الدول ، واسباب زوالها ، واحوال الاجتماع البشري ومظاهره الحضارية والاقتصادية والثقافية ، وغير ذلك مما تناول في هذا المشروع المعرفي الطامح الى وضع نظرية عامة في المعرفة .

وينبغي أن نشير ـ في بداية هذا الحديث ـ الى أن الاحساس بقيمة هذه المقدمة لم يكن وليد عصرنا ، اذ أبدى القدماء اعجابهم الشديد بها ، وادراكهم العميق لأهميتها وتقديرهم الفائق لمؤلفها ، فقال المقريزي :« لم يعمل أحد مثالها ، وانه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، اذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبّر عن حال الوجود ، وتنبىء عن أصل كل موجود »(١) ، وذكر ابن عمار أنها :« حوت جميع العلوم ، وجلت عن محجتها ألسنة الفصحاء فلا تروم ولا تحوم »(٢) ، وروى المقّري والتنبكتي وغيرهما أن ابن الأزرق الأندلسي (ـ ٨٩٦ هـ القدس) « لخص مقدمة ابن خلدون وزاد عليها »(٣) في كتابه « بدائع السلك في طبائع الملك » ، كما تدل على ذلك صورة الكتاب الذي وصل الينا .

وقد لاقت هذه المقدمة اهتماماً واسعاً من المعاصرين ، فكان لها النصيب الأوفر من دراساتهم وأبحاثهم ، وكان للغربيين والمستشرقين منهم بخاصة السهم الأوفى في ذلك ، فقاموا بترجمتها الى لغاتهم الحية وطبعها منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقدموا دراسات قيمة وعميقة حولها قد يصعب حصرها ، ويطول تعدادها(٤) .

وليس لنا أن نغفل عما رافق هذا الاهتمام الواسع من ظروف تاريخية وسياسية ، لا مجال للحديث عنها ، ونكتفي بالاشارة الى بعض الدوافع الكامنة وراءه كما وردت على لسان إيف لاكوست في كتابه عن ابن خلدون الذي عرض فيه آراء عدد من الذين وجدوا في بعض أقوال ابن خلدون مجالاً طيباً للطعن على العرب فقال في معرض رده عليهم : « ولكن أليس ابن خلدون الذي مجّدوا عظمته كي يعطوا ثقلاً أكبر للنظريات المعادية للعرب التي يزعمون نسبتها اليه ، مغربي لا ريب فيه » ٠٠ « يقول غوتيه : كلا !! لأن الروح الشرقي هو عكس روحنا تماماً ومحروم من الادراك النقدي العقلاني ، ان ابن خلدون يريد أن يفهم ، وذلك ما هو غربي تماماً بالنسبة لمسلم ، ان لديه مفهوماً غربياً للتاريخ »(٥) ٠

ومن هنا فقد تركز اهتمامهم على بعض الجوانب التي تخدم أهدافهم التي بدا لهم فيها ابن خلدون الحضرمي متهجماً على العرب ، أو منتقصاً منهم ، ومن ذلك هذا النص المترجم الى لغاتهم على هذه الصورة : « كل بلد احتله العرب ما عتم أن دمّر ، الخراب أثناء حكمهم عمّ كل شيء ، فاليكم البلدان التي احتلها العرب منذ أقدم العصور ، لقد زالت حضارتها ، كما زال سكانها ، الأرض ذاتها تبدلت طبيعتها ٠٠٠ العرب عاجزون عن انشاء دولة أو امبراطورية »(٦) ٠

ومع ما بين هذا النص المترجم ، والأصل العربي من تباين ، الا أنه كفيل بالكشف عن حقيقة هذا الاهتمام الشديد بالمقدمة ومؤلفها العربي صليبية ، وان كان يقصد بالعرب : البدو من أهل الوبر كما تدل على ذلك المواضع الكثيرة التي ورد فيها ذكرهم في المقدمة وغيرها من كتب ابن خلدون وأشعاره ، ومن ذلك قوله : « العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل » وقوله « الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري » وقوله : « أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » ، وقال عن هؤلاء العرب البداة : « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان اسرع اليها الخراب ٠٠٠ فغاية الأحوال عندهم الرحلة والتقلب ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ، ومناف له »(٧) ٠

وقد كان لهؤلاء العرب في أقطار المغرب بخاصة تاريخ حافل بالحروب مع سكان الممالك والأمصار ، فقاموا بتخريبها والاستيلاء على مقاليد الأمور فيها مرات متوالية ، وكانوا الشغل الشاغل لكل من حكم المغرب من الملوك ، وقد أتى ابن خلدون وغيره على تفصيل القول في ذلك ، في مقدمته وتاريخه وتعريفه وأشعاره ، ومن ذلك قوله في احدى قصائده في مديح السلطان المغربي : « ثم رجعت الى وصف العرب وأحيائهم(٨) :

عجبَ الأنام لشانهم ، بادون قد قذفت بحيّهم المطيّ الذلّلُ

كانوا يروعون الملوك بما بدوا وغدت ترفّه بالنعيم وتخضلُ

ولم تكن هذه الدلالة وليدة عصر ابن خلدون اذ طالما ترددت على ألسنة القدماء وفي كتبهم ، ومن ذلك ما رواه القالي في أماليه على لسان بعض الرواة وقد سمع

بعض نساء العرب توصي ابنها : « فقلت بالله يا أعرابية إلا زدته في الوصية فقالت: أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقي »(٩) ،وقال البكري في تفسير قول أحد الأعراب : « أنا العربي المحض » « يريد انه أعرابي بدوي من أهل الوبر لا من أهل المدر ولا من أهل الأمصار »(١٠) ، وما تزال هذه الكلمة مستعملة للدلالة على هذا المعنى نفسه في سائر الأقطار العربية ، وفي أقطار المغرب بخاصة ، وعسى أن يتم الكشف عن حقيقة هذه الدلالة بعد انجاز المشروع الضخم الذي يقوم به الأستاذ آلان جونس وسوزان كوكي من اكسفورد قصد تحليل معجم المقدمة بالعقل الالكتروني ، ودراسة مفرداتها ومصطلحاتها(١١) ٠

وقد استمرت هذه المفاهيم توجه البحث في مقدمة ابن خلدون الى أيامنا هذه اذ وجدنا آثارها في ندوة ابن خلدون بالرباط ١٩٧٩ ، والتي قدم فيها الأستاذ جاك لانفاد بحثاً حول « فلسفة اللغة عند ابن خلدون » انتهى فيه الى القول « بأن أساس تفكير ابن خلدون في اللغة هو التضاد بين الحضارة والبداوة ٠٠٠ إن الانسان العربي ضائع ومشتت حقاً ، اذا أراد حسن الكلام وفصاحته وجب عليه أن يرجع الى القفر أو البادية ، وان أراد أن يتقدم الى المدينة حيث فساد اللغة ٠٠٠ يظهر لنا من ذلك مبدأ تفسيري وهو أن اللغة العربية لغة شفاهية »(١٢) ٠

ومهما يكن من أمر هذا الاهتمام الواسع والمستمر بابن خلدون ومقدمته ، وما يمكن أن يكون وراءه من دوافع وأسباب ، فقد حجب عنا ابن خلدون فلم نعد نرى منه سوى مقدمته ، مع أنها آخر ما ظهر لنا من تآليفه وكتبه وآثاره ، اذ شرع في تاليفها أثناء اعتزاله في قلعة ابن سلامة طوال أربع سنوات، وانتهى من وضع مسودتها سنة ٧٧٩هـ وقال في ذلك : « أتممت هذا الجزء الأول [المقدمة] بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر ٠٠٠ وكنت طوال هذه المدة عاكفاً على تأليف هذا الكتاب [العبر] »(١٣) ثم اكمل منه نسخة رفعها الى سلطان تونس مشفوعة بقصيدة من شعره سنة ٧٨٤ هـ ، وهي السنة التي غادر فيها بلاد المغرب الى غير ما رجعة متوجهاً الى مصر، وكان اذ ذاك قد جاوز الخمسين من عمره ،وكانت شهرته قد طبقت آفاق المغرب والأندلس ، ووصلت أصداؤها القوية الى المشرق ، وهي قائمة أساساً على شاعريته الفذة ، وحسن أدبه وترسله ، وجودة تآليفه وكتبه ٠

وكان قد ألف أول كتبه سنة (٧٥٢ هـ) ولمّا يكمل العشرين من عمره ، اذ عمد الى تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي وسمّاه « لباب المحصل » ، ووضع في التصوف كتاب « شفاء السائل » ، وقام بتلخيص كتب ابن رشد ، ووضع كتاباً في الحساب ، وتقييداً في المنطق ، وشرح أرجوزة صديقه لسان الدين ابن الخطيب في أصول الفقه ، « وشرح القصيدة المسماة بالبردة [للبوصيري] شرحاً دلّ فيه على انفساح ذرعه ، وتفنن ادراكه ، وغزارة حفظه(١٤) » كما يقول ابن الخطيب صاحبه، ثم قام بتأليف العبر ومقدمته وذيله: التعريف بابن خلدون ، وهو من الكتب التي تدخل في باب السيرة والترجمة الذاتية بحسب مفاهيمنا المعاصرة ، كما ذكرت له رسالة في« وصف بلاد المغرب(١٥) » كتبها لتيمورلنك أثناء لقائه به في دمشق بعد ذلك بزمن طويل٠

على أن شهرته الحقيقية في عصره انما تقوم على شعره وأدبه كما تؤكد ذلك سيرته واخباره وتراجمه قبل أن يؤلف العبر بزمن غير قصير ، فقال صديقه الوزير ابن الخطيب في الاحاطة « هذا الرجل الفاضل حسن الخلق، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر.. مفخرة من مفاخر التخوم المغربية ... وأمانشره وسلطانياته [رسائله] مرسلها ومسجعها، فخُلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن ابداع... وأما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، وأغري نقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة(١٦) » وقدم لنا مختارات مطولة من شعره ، وأشار في آخر ترجمته الى زمن كتابتها في حدود سنة ٧٦٥هـ ولم يكن ابن خلدون قد تجاوز الثلاثين الا بسنوات قليلة .

وفي هذه الفترة ترجم له معاصره اسماعيل بن الأحمر في نثير الجمان فقال : « وهو ممن لا ينكر حاله في ارتياض العلوم الشريفة... لما احتوت عليه ترجمة ذكره ، وخبيئة فكره من أساليب النظام [النظم] الرائقة الحلاء ، ومجاري أقوال النثر البارعة الانشاء(١٧) » وروى لنا ١٠٧ أبيات من قصيدته في استعطاف السلطان أبي عنان المريني ، وهي أول ما نعرف له من الشعر .

ووصف ابن عمار تلميذه نظمه ونثره بالسحر فقال : « وله من المؤلفات غير الانشاءات النثرية والشعرية التي هما كالسحر : التاريخ العظيم »(١٨) .

... وقال الشيخ ابراهيم الباعوني الدمشقي : « وكان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان(١٩) » ، وقد أشار الى ذلك كل من ترجم له أو ذكره من معاصريه أو من أتى بعدهم من المؤلفين ، كما أشار ابن خلدون الى اشتغاله بالشعر والكتابة والأدب اذ كان سلمه الى الشهرة وارتقاء المناصب شأنه في ذلك شأن لسان الدين ابن الخطيب أديب العدوة الأندلسية وشاعرها كما كان ابن خلدون أديب العدوة المغربية وكاتب سلاطينها وشاعرهم منذ مطلع حياته الى حين انهماكه في انجاز مشروعه التاريخي الكبير ومقدمته ، فنراه بعد ذلك يهمل الشعر ويقول بعد عودته الى تونس حاملاً معه العبر ليقدمه الى سلطانها مشفوعاً بقصيدة من شعره صدرها بقوله : « وكان مما يغرونه به علي قعودي عن امتداحه ، فاني كنت قد أهملت الشعر جملة وتفرغت للعلم فكانوا يقولون له : انه انما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه الملوك قبلك ... فلما رفعت له الكتاب أنشدته هذه القصيدة أمتدحه وأعتذر عن انتحال الشعر »(٢٠) وفيها يقول :

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت	مني الطباع فكل شيء مشكلُ
واجده ليلي في امتراء قريحتي	وتعود غوراً بينما تسترسلُ
فأبيت يمتلج الكلام بخاطري	والنظم يشرد والقوافي تجفلُ
من بعد حول انتقيه ولم يكن	في الشعر حولي يعاب ويهملُ

فاصونه عن أهله متواريا | أن لا يضمهم وشعري محفلُ
وبنات فكري إن أتتك كليلة | مرهاء تخطر في القصور وتخطلُ
فلها الفخار اذا منحتَ قبولها | وأنا على ذاك البليغ المقولُ

وكان قد خاطبه بقصيدة أخرى أشار فيها الى ذلك وفيها يقول(٢١) :

واليكها مني على خجل بها | عذراء قد حليت بكل نفيس
عذراً فقد طمس الشباب ونوره | واضاء صبح الشيب بعد طموس
أنحى الزمان عليّ في الأدب الذي | دارسته بمجامع ودروس
فسطا على وفري وروع مامني | واجتث من دوح الشباب غروسي

فكان ذلك آخر ما نعرف له من الشعر في المغرب ، ولم نسمع له بعد ذلك الا بقصيدة يتيمة قالها في مصر بعد استقراره فيها ٠

وعلى ذلك فان بامكاننا التفريق بين مرحلتين في حياته : تمثل الأولى ابن خلدون الشاعر الأديب وتبدأ من مطلع حياته الى حدود تأليف المقدمة والعبر وتستمر قرابة نصف قرن من الزمان ، وابن خلدون العالم المؤرخ الفقيه المحدّث بعد ذلك ٠

□ ابن خلدون الشاعر :

وقد بدأ ابن خلدون المرحلة الأولى من حياته كاتباً وأديباً شاعراً على سنة أهل عصره من الكتّاب والشعراء الطامحين الى الرئاسة والمعالي ، وجرياً على عادة أهل بيته الذين كانوا من النابغين في الأدب والشعر والسياسة، فكان أبوه أديباً ناقداً « مقدماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه(٢٢) » كما كان أخوه يحيى من شعراء عصره ، روى له المقّري وغيره أشعاراً كثيرة(٢٣) ٠

وفي هذه المدرسة نشأ ابن خلدون ، فأخذ بحظ وافر من الثقافة الأدبية وتلقى أصولها على أيدي كبار الشيوخ من الأدباء والشعراء والنقاد وعلى رأسهم والده الذي بدأ به قائمة شيوخه فقال : « تعلمت صناعة العربية على والدي ، وعلى استاذي تونس ، ومنهم الحصايري : وكان اماماً في النحو ٠٠٠ والقصار وكان ممتعاً في صناعة النحو وله شرح على قصيدة البردة المشهورة ٠٠٠ ومنهم امام العربية بتونس محمد بن بحر ٠٠٠ وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان ، وأشار علي بحفظ الشعر ، فحفظت كتاب الأشعار الستة والحماسة للأعلم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي ومن أشعار كتاب الأغاني ٠٠٠ وابن رضوان وكان من المفاخر في براعة خطه وكثرة علمه ٠٠٠ وأحمد بن شعيب وكان له شعر سابق به الفحول ٠٠٠ وإمامة في نقد الشعر ٠٠ والشريف السبتي إمام اللسان حوكاً ونقداً

في نظمه ونثره٠٠٠ وابن الحاج شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس »(٢٤) وغيرهم كثير من شيوخه الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيهه وتفتح شاعريته ٠

وقد ظهر نبوغه في الكتابة والشعر مبكراً ، فاستعمله القائم بالأمر في تونس في كتابة العلامة سنة ٧٥١ هـ ، ولمّا يبلغ العشرين من عمره ، ثم سمى للقاء السلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب فعينه عضواً في مجلسه العلمي بفاس ، وولاه الكتابة والتوقيع ، الى أن تكدّر جوّه عنده فقبض عليه وحبسه ، وظل في محبسه الى أن توفي السلطان سنة ٧٥٩ هـ ، وكان قبيل ذلك قد بعث اليه من سجنه بقصيدة يستعطفه فيها ، فكان لها منه موقع ، ووعد بالافراج عنه ، فحال موته دون ذلك ، وأفرج عنه القائم بالأمر بعده الوزير ابن عمر وأعاده الى ما كان عليه ، وفي هذه القصيدة يقول :

على أيّ حال لليالي أعاتب	وأيّ صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح	وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل	تسالمني طوراً وطوراً تغالب

وهي أول ما نعرف له من الشعر ، دون أن يعني ذلك أنها أول قصيدة قالها في حياته ، فهي قصيدة طويلة بديعة ومؤثرة ، تشي بطول باع صاحبها في ميدان الشعر ، بما اشتملت عليه من جودة المعاني ، وقوة التعبير ، وبراعة التصوير ، وطول النفس الشعري ، ذكر ابن خلدون أنها في نحو مائتي بيت دون أن يروي منها سوى خمسة ابيات(٢٥) ، واحتفظ ابن الاحمر بمائة وسبعة ابيات منها(٢٦) ، ورجّح ابن تاويت أنها عدة أبياتها كاملة(٢٧) ، وتابعه في ذلك الدكتور رضوان الداية(٢٨) .

وحين استولى أبو سالم المريني على مقاليد الأمور في المغرب سنة ٧٦٠ هـ قرّب اليه ابن خلدون ، واستعمله في كتابة سرّه والانشاء لمخاطباته ، فأخذ نفسه بالشعر ، فانثال عليه منه بحور(٢٩) كما يقول ، وكانت أكثر أشعاره في مديحه ، ومما زاد في تشجيعه على ذلك وفادة لسان الدين ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع الى المغرب ، ومديحه سلطانه ، بغرر من قصائده ، مما حفز ابن خلدون الى مجاراته في ذلك ، ومن شعره إبان هذه المرحلة قوله في مطلع قصيدة يهنىء فيها أبا سالم بحلول المولد النبوي سنة ٧٦٢ هـ :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي	وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين موقف ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا	قلبي رهين صبابة ووجيب

وهي قصيدة طويلة ذكر ابن خلدون في تعريفه سبعة واربعين بيتاً منها ، وزاد عليه ابن الخطيب ستة أبيات أخرى ، ونقلها عنه المقّري ، ووردت بعض أبياتها متفرقة في ثنايا بعض المصادر المختلفة ، فكان مجموع ما وصل الينا منها ثلاثة وخمسين بيتاً(٣٠) ٠

ومما وصل الينا من شعره في هذه الفترة قصيدة خاطب بها أبا سالم « عند وصول هدية ملك السودان اليه ، وفيها الحيوان الغريب المعروف بالزرافة » فاجتمعت الشعراء لوصفه فقال ابن خلدون :

قدحت يد الاشواق في زندي — وهفت بقلبي زفرة الوجد

ونبذت سلواني على ثقة — بالقرب فاستبدلت بالبعد

لا عهد عند الصبر أطلبه — ان الغرام أضاع من عهدي

وقد روى منها في التعريف سبعة وثلاثين بيتا ، ولم يزد عليها أحد غيره شيئا ، وقال بعد ان رواها : « وانشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه »(٣١) ، مما يدل على كثرة شعره في هذه المرحلة على قصرها ، اذ سرعان ما قتل ابو سالم ولما يمض له على العرش سوى سنتين واربعة أشهر ، وتولى بعده أخوه تاشفين ، واستبد بالحكم الوزير عمر بن عبدالله ، فاقر ابن خلدون على ما كان عليه ، ثم أقصاه من مناصبه بعد ان علم دخيلة نفسه ومطامعه ، بعث اليه بقصيدة يؤكد فيها اخلاصه ويمتدحه ، ويقول فيها(٣٢) :

يا سيّد الفضلاء دعوة مشفق — نادى لشكوى البث خير سميع

ما لي وللاقصاء بعد تعلّة — بالقرب كنت لها أجل شفيع

وأرى الليالي رنقت لي صافيا — منها فاصبح في الأجاج شروعي

وقد ضرب ابن خلدون صفحا عن ذكرها ، بينما روى ابن الخطيب ثلاثين بيتاً منها ، ونقلها عنه صاحب النفح ، ويبدو أنها أطول من ذلك ، وأن مطلعها لم يصل الينا كما تدل على ذلك ديباجتها وأبياتها .

على أن ابن عمر لم يلن له ، فطلب الاذن بمغادرة فاس الى تونس ، فمنعه من ذلك ، فاستجار بالوزير مسعود بن ماساي ، وأنشده :

أجرني وليس الدهر لي بمسالم — اذا لم يكن لي في ذراك مقيل

فوالله ما رمت الترحل عن قلى — ولا سخطة للعيش فهو جزيل

ولكن ناى بالشعب عني حبائب — دعاهن خطب للفراق طويل

وقد روى لنا من هذه القصيدة ثلاثين بيتاً ، ولم يزد عليها أحد شيئاً ، يبدو أنها عدة أبياتها كاملة ، وقال بعد روايتها : « فاعانني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق الى الأندلس »(٣٣) .

وقد قصد ابن خلدون الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، واختار غرناطة لما كان بينه وبين سلطانها ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب من علائق الصحبة والمودة ، وسوابق المعاونة حين

كانا لاجئين في فاس ، فاحسنا وفادته واستقباله ، وقال في ذلك : « وقد اهتز السلطان لقدومي ، وهيأ لي المنزل من قصوره ، واركب خاصته للقائي تحفياً وبراً ومجازاة بالحسنى ... ثم نظمني في علية أهل مجلسه ، واختصني بالنجي في خلوته ... وسفرت عنه سنة ٧٦٥ هـ الى الطاغية ملك قشتالة »(٣٤) .

وبعد خمسة أيام من حلوله بغرناطة ، صادف حلول ليلة المولد النبوي ، « وكان يحتفل في الصنيع فيها وانشاد الشعراء ، اقتداء بملوك المغرب ، فانشدته ليلتئذ(٣٥) :

حيّ المعاهد كانت قبل تحييني	بواكف الدمع يرويها ويظميني
ان الالى نزحت داري ودارهم	تحمّلوا القلب في آثارهم دوني
وقفت انشد صبرا ضاع بعدهم	فيهم وأسأل رسما لا يناجيني

وهي من أجود قصائده وأشعاره ، روى منها ابن خلدون واحدا وثلاثين بيتاً ، وزاد عليها ابن الخطيب ثلاثة أبيات ، وهي على ما يبدو أطول من ذلك .

وقد استقر به المقام في ظل صاحب غرناطة ووزيره ، ولم يكن له من شغل سوى نظم الشعر في مديحه في المناسبات المختلفة ومن ذلك قوله في مطلع احدى قصائده(٣٦) :

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب	وذكرى تجدّ الوجد حين تثوب
وقلب ابى الا الوفاء بعهده	وان نزحت دار وشطّ حبيب
فلا تعذلاني في البكاء فانها	حشاشة نفسي في الدموع تذوب

وقد اقتصر منها على ذكر ثلاثة عشر بيتاً فحسب ، ولم يذكر ابن الخطيب أو المقري شيئاً منها في جملة ما ذكرا له من الشعر .

وأنشده في المولد النبوي سنة ٧٦٥ هـ قصيدة أخرى طويلة روى لنا منها سبعة عشر بيتاً ومنها قوله في مطلعها(٣٧) :

ابى الطيف أن يعتاد الا توهما	فمن لي بأن القى الخيال المسلما
أجِدّ لي العهد القديم كانه	اشار بتذكار العهود فافهما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق	بكيت له خلف الدجى فتبسما

ولم يطل به المقام في الأندلس ، اذ سرعان ما أخذ الوشاة يوغرون صدر صديقه الوزير لسان الدين عليه حتى تنكر له ، فعزم على الرحيل وقال في ذلك : « ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيّلوا للوزير ابن الخطيب ... وحركوا له جواد الغيرة فتنكّر ... وجاءتني كتب السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بأنه استولى عليها واستدعاني اليه ، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال اليه ، وعمّيت عليه شأن ابن الخطيب ابقاء لمودته »(٣٨) .

ونزل بجاية سنة ٧٦٥ هـ « فاحتفل السلطان لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد علي ، وكان يوماً مشهوداً »(٣٩) ثم ولاه الحجابة على الاستبداد، الى أن قتل السلطان سنة ٧٦٧ هـ ، واستولى ابن عمه أبو العباس على بجاية ، فسلم له ابن خلدون ، فاكرمه وأقره على ما كان عليه، ثم ارتاب منه وتنكر له ، ففرّ ناجياً بنفسه الى بسكرة ، دون أن نسمع له بشيء من الشعر إبان هذه المرحلة على طولها ، ويبدو أن شعره فيها قد ضاع أو لم يصل الينا بعد ٠

على أننا نراه بعد ذلك وقد نزل تلمسان ، واتصل بصاحبها أبي حمو موسى بن يوسف مادحاً ، ولم يصل الينا من شعره فيه سوى قصيدة يهنئه فيها بالعيد سنة ٧٧١ هـ ، ذكر ابن خلدون أنها طويلة ، لم يبق في حفظه منها سوى خمسة أبيات رواها في التعريف ، ولم نجد أحداً يذكرها فيما وقفنا عليه من مصادر ، وفيها يقول(٤٠) :

هذي الديار فحيهنّ صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها	عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على عيونك موثقا	أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ثم تقلبت به الأيام بعد ذلك قبل أن يعود الى فاس سنة ٧٧٤ هـ ويقيم فيها « أثير المحل ، نابه الرتبة ، عريض الجاه »(٤١) متفرغاً للعلم والتدريس دون أن نسمع له بشيء من الشعر إبان هذه الفترة ٠

الا أنه سرعان ما يعود الى غرناطة سنة ٧٧٦ هـ، فيلقاه سلطانها بالبرّ والكرامة، ولكن حكام فاس يوغرون صدره عليه ، لما كان من سعيه في خلاص صديقه لسان الدين ابن الخطيب من الحبس أو القتل ، دون أن يفلح في ذلك ، فغادر الأندلس أواخر هذه السنة نفسها ، دون أن نسمع له بشيء من الشعر فيها ٠

وحل ابن خلدون بقلعة ابن سلامة في الجزائر ، واعتكف فيها أربع سنوات كاملة ، انكب أثناءها على تأليف العبر ، وأكمل مقدمته سنة ٧٧٩ هـ ، وكاتب سلطان تونس يستأذنه بالعودة اليها، فقصدها سنة ٧٨٠ هـ، ولقي السلطان في ظواهرها ، فرحب به ورده الى تونس ، فبلغه بعد وصوله اليها أنه قد أصيب بمرض أعقبه شفاء ، فبعث اليه بقصيدة يقول فيها(٤٢) :

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس	وتجللتنا رحمة من بوس
يا ابن الخلائف والذين بنورهم	نهجت سبيل الحق بعد دروس
لبقاك حرز للأنام وعصمة	وحياة أرواح لنا ونفوس

وقد استقر به المقام في تونس ، ولقي من سلطانها التكريم والترحيب واستدعاه لمجالسته ، فأوغر ذلك صدر حساده ، فسعوا للايقاع بينهما ، فأعرض السلطان عنهم ، وكلفه بالاكباب على تأليف كتابه ، فاكمل منه نسخة رفعها الى خزانته مشفوعة بقصيدة

روى لنا منها واحداً ومائه بيت ، وقال في تصديرها : « وكان مما يغرونه به عليّ قعودي عن امتداحه ، فاني كنت قد اهملت الشعر وانتحاله جملة ، وتفرغت للعلم ، فكانوا يقولون له : انما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه الملوك قبلك ، فلما رفعت له الكتاب انشدته هذه القصيدة امتدحه ، واعتذر عن انتحال الشعر »(٤١) وفيها يقول :

هل غير بابك للغريب مؤمّل	او عن جنابك للأماني معدل
لله منك مؤيد عزماته	تمضي كما يمضي القضاء المرسل
أبقاك ربك للعباد تربهم	فالله يخلقهم ورعيك يكفل
واليك من سير الزمان وأهله	عبراً يدين بفضلها من يعدل
أهديت منه الى علاك جواهراً	مكنونة وكواكبا لا تأفل

فكانت هذه القصيدة آخر ما يعرف لهمن الشعر في أقطار المغرب والأندلس ، فقد كثرت السعايات من حوله ، فعقد العزم علىالرحيل الى مصر متذرعاً بالحج ، وركب البحر ميمماً وجهه شطر الاسكندرية وقال فيذلك: « وخرجت الى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم فودعتهم وركبت البحر في منتصف سنة ٧٨٤ هـ »(٤٤) ٠

وقد اختار الاقامة في مصر بقية عمره ، واستقر بالقاهرة ، وأكرم السلطان الظاهر برقوق وفادته، وأبرَّ لقاءه، ونصبه لتدريسالفقه والحديث ، ثم ولاه قضاء المالكية ، وبعث في طلب أهله من تونس ، فغرقت بهمالسفينة بعد وصولها الى ميناء الاسكندرية، فعظم مصابه ، واشتد جزعه ، وقام أثناءهذه الفترة باداء فريضة الحج وزيارة بيت المقدس ، وبلاد الشام ، واقام في دمشق مدةمن الزمن ، وكان له فيها مع تيمورلنك لقاء مشهور ، عاد بعده الى القاهرة ، وتقلب فيعدة مناصب الى أن توفي وهو على قضاء المالكية سنة ٨٠٨ هـ ٠

ويبدو أنه قد ترك الشعر إبان هذهالمرحلة الطويلة التي قضاها في مصر ، وتفرغ فيها للعلم والقضاء والتدريس ، فلم نسمعله الا قصيدة يتيمة خاطب بها الأمير الجوباني ليطالع بها الملك الظاهر بعد نقمته عليه لمجاراته الناصري في الفتنة الكبرى سنة ٧٩١ هـ ، فلاقت منه الرضى والقبول ، وفيها يقول(٤٥) :

سيدي والظنون فيك جميله	وأياديك بالأماني كفيله
انه أمري الى الذي جعل الله أمور الدنيا له مكفوله	
واعينوا على الزمان غريباً	يشتكي جدب عيشه ومحوله

وهي قصيدة طويلة روى لنا ابن خلدون منها سبعة وستين بيتاً ، فكانت آخر ما يعرف له من الشعر في حدود ما بين أيدينامن المصادر المختلفة ٠

□ مجموع شعره :

ومن خلال هذه الجولة مع ابن خلدون الشاعر ، وجدنا أنه بدأ بقرض الشعر منذ مطلع حياته ، ومع بداية اتصاله بملوك المغرب واستمر في قوله وانشاده طوال حياته ، فكانت أولى قصائده التي وصلت الينا تعود الى سنة ٧٥٩ هـ وأخرها الى سنة ٧٩١ هـ .

وبامكاننا تقسيم مراحل حياته مع الشعر الى ثلاث مراحل : المغربية والأندلسية والمصرية . وتبدأ الاولى منها بقصيدته التي بعث بها الى أبي عنان المريني من سجنه مستعطفاً ، وتبلغ ذروتها في عهد أبي سالم ،اذ كان كاتبه وشاعره ، وقد أشار الى كثرة شعره في هذه الفترة على قصرها فقال : « ثم أخذت نفسي بالشعر فانثال عليّ منه بحور »(٤٦) دون أن يصل الينا من هذه البحور سوى قصيدتين قال بعد أن روى أبياتاً منهما : « وانشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً »(٤٧) ، وقد أغفل ذكر هذه القصائد الكثيرة ، كما اغفل ذكر قصيدته في الوزير عمر بن عبدالله التي احتفظ لنا ابن الخطيب بأبيات منها ، بينما روى لنا ابن خلدون أبياتاً من قصيدته في الوزير ابن ماساي ، واخر من قصيدتيه في سلطان تونس ، وكان ذلك آخر ما يعرف له من الشعر في المغرب .

أما أندلسياته فلم يصل الينا منها سوى ثلاث قصائد في ابن الأحمر أثناء اقامته في رحابه أول مرة ما بين ٧٦٤ـ٧٦٥ هـ ، ولم نسمع له بشيء من الشعر بعد عودته اليها ، واقامته القصيرة فيها سنة ٧٧٦ هـ .

كما لم نسمع له في مصر بعد نزوحه اليها سنة ٧٨٤ وحتى وفاته فيها سنة ٨٠٨ هـ الا بقصيدة واحدة ، على الرغم من طول هذه المرحلة التي استمرت زهاء ربع قرن من الزمان .

ومن المؤكد أن شعره في المغرب والأندلس كثير جداً ، كما أشار الى ذلك ابن خلدون نفسه مرات عديدة ، ولم يصل الينا منه الا اقله ، وقد ضاع معظمه ، اذ لم يعنَ ابن خلدون أو غيره بحفظه وتدوينه وكانت لذلك أسباب عديدة : منها انشغاله بالسياسة في صدر حياته ، وبالعلم والتأليف ثم القضاء والتدريس بعد ذلك ، مما صرفه عن الشعر وانتحاله أو العناية به ، وقد صرح بذلك في قوله : « وقد أهملت الشعر وانتحاله جملة ، وتفرغت للعلم »(٤٨) .

كما أن لاضطراب الأوضاع السياسية في المغرب والأندلس ، وتقلب أيامها ودولها ، وكثرة الصراعات والحروب بين ملوكها وحكامها أثراً كبيراً في اغفال أشعاره ، وجعلها من أشعار المديح والمناسبات ، مما حدا بابن خلدون وغيره الى عدم حفظها وتدوينها ايثاراً للسلامة .

ومهما يكن من أمر ، فان مجموع ما وصل الينا من شعره ــ في حدود ما أمكن لنا

الوقوف عليه ــ لا يزيد على واحد وعشرين وخمسمائة بيت موزعة في ثنايا الكتب والمصادر المختلفة ، لعل أهمها « التعريف » لابن خلدون نفسه ، و « الاحاطة » لابن الخطيب صاحبه ، و « نثير الجمان » لابن الأحمر معاصره ، ثم « نفح الطيب » للمقري ، و « الضوء اللامع » للسخاوي ، و « نيل الابتهاج » للتنبكتي ، و « الاستقصا » للسلاوي، وبعض مؤلفات ابن حجر والمقريزي والعيني وغيرها من كتب الأخبار والتراجم ·

□ أغراض شعره وخصائصه :

يدخل معظم ما وصل الينا من شعر ابن خلدون في باب أشعار المديح والمناسبات ، لارتباطه بالملوك والأمراء ، فكان شعره صدى لعلاقاته المختلفة معهم ، وسجلاً حافلاً لمراحل حياته بينهم ، فهو يدور حول المديح والاستعطاف والاعتذار والتهاني وما يجري مجراها من الشعر ·

وكانت بعض هذه المناسبات في المولد النبوي ، مما جعل المدائح النبوية غرضاً آخر من أغراض شعره ، وان شابه المديح في كثير من الأحيان · وقد حرص ابن خلدون على رواية معظم مدائحه النبوية ، وهي من أجود أشعاره ، وأصدقها عاطفة ، وأقواها تعبيراً عن دخيلة نفسه ، وعمق الأثر الديني في ذاته ·

وكان الاتجاه نحو هذا الغرض الشعري قد طغى على الشعر العربي طغياناً مبيناً في عصره، منذ أن شرع باب القول فيه البوصيري (ــ ٦٩٦ هـ) في بردته ، ونهج سبيله فيها وعارضها عدد كبير من الشعراء يربو على المائتين، وشرحها عدد آخر ، منهم ابن خلدون نفسه ، ثم تطور هذا الغرض الى البديعيات، وكان صفي الدين الحلي (ــ ٧٥٠ هـ) من أوائل رواده في « الكافية البديعية » التي عارض فيها البردة وضمّنها مائة وواحداً وخمسين نوعاً من البديع ، وسلك سبيله فيها عدد كبير من الشعراء ·

وقد بدا أثر هذه المدائح والبديعيات في مدائح ابن خلدون النبوية دون أن يغرقها في لجة البديع، فخلصت بذلك من تلك القيود التي تكبلها ، ولعل أول ما نلاحظه في هذه القصائد استهلالها بالغزل الصوفي الذي يعبر عن محبة الرسول (ﷺ) كقوله في مطلع احداها(٤٩) :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي   وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة   لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
يا ناقماً بالعتب غلة شوقهم   رحماك في عذلي وفي تانيبي

ثم ينتقل من ذلك الى الوقوف على الأطلال ، والتشوق الى ديار الأحبة في الحجاز ، ويبدي قدرة فائقة في إحكام صلة هذا الجزء بسابقه وحسن التخلص والخروج من غرض لآخر فيقول :

ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى   لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو الى الأطلال كانت مطلعاً   للبدر منهم أو كناس ربيب

ويركب الطريق الى تلك الديار مرتحلا، ويصف الأظعان والرحلة والراحلة فيقول:

يا سائق الأظعان تعتسف الفلا وتواصل الإسآد بالتأويب
هلا عطفت صدورهن الى التي فيها لبانة اعين وقلوب

ليصل من ذلك الى الحضرة النبوية فيمتدحها ويتشفع بها ويقول :

يا سيد الرسل الكرام ضراعة تقضي منى نفسي وتذهب حوبي
هب لي شفاعتك التي ارجو بها صفحا جميلا عن قبيح ذنوبي

ويختمها بالاعتذار من تقصيره في مدح نبيه فيقول :

قصّرت في مدحي فان يك طيبا فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى في مدحك القرآن كل مطيب

ويمضي على هذا النمط الجميل في مدح الرسول الكريم، دون أن يخص مليكه وممدوحه الا بأبيات قليلة ، فتستحيل القصيدة الى المديح النبوي الخالص ، وتدخل في هذا الباب من أغراض شعره ، شانها في ذلك شان قصائده الأخرى التي أنشدها في الموالد النبوية، وتعد من أجود أبواب شعره وأغراضه .

ومن الملاحظ أن جودة الشعر لديه مرتبطة الى حد بعيد بمدى صلته بذاته ، وتعبيره عن خلجاته وأشواقه ، فاذا ما تحول به الى المديح نقصت عناصر جودته ، وخفت خدة انفعالاته ، وشحت موارد جماله ، ولذا فقد وجدناه يطيل مطالع قصائده ويبدع فيها لصلتها القوية بذاته ، بينما تضعف الروح الجمالية فيها حين يتحول بها الى الغرض المرسوم لها وهو المديح ، ومن ذلك قوله في أواخر قصيدته السابقة يمدح أبا سالم ، وقد تخلص الى ذلك تخلصاً عجيباً إذ راح يتمنى الرحيل الى الديار المقدسة فيقول :

يا هل تبلغني الليالي زورة تدني اليّ الفوز بالمرغوب
في فتية هجروا المنى وتعودوا إنضاء كل نجيبة ونجيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم إرث الخلافة في بني يعقوب
تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم والعز شيمة مرتجى ومهيب
يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستأثروك بتاجها المعصوب
لا زلت مسرورا باشرف دولة يبدو الهدى من افقها المرقوب

وذلك ديدن أشعاره التي خاطب بها الملوك والأمراء والوزراء مادحاً أو مستعطفاً، اذ نراه يستهلها بالتعبير عن نوازعه الذاتية وأشواقه ، ويطيل في ذلك ، ويبلغ الغاية من روعة التعبير وجمال التصوير، ورقة العواطف والشعور ، ومن ذلك قصيدته التي بعث بها من السجن الى أبي عنان مستعطفاً ، وهي أول ما نعرف له من الشعر، ويقول في مطلعها(٥٠):

على اي حال لليالي أعاتب واي صروف للزمان اغالب

وقد وصف فيها حاله سجيناً ، وشوقه حزيناً ، وذكرياته غريباً ، وأبدع في وصف مشهد وداعه لأهله وأحبته قبل رحيله فقال :

ولم أنس لا أنسى الوداع وقد جرت ... دموع وزمّت للفراق ركائب
عشية بانوا والقلوب جوامد ... وكان عقيق في النواظر ذائب
وقفنا ولا نجوى سوى بين أعين ... وشت بالهوى منها دموع سواكب
مضوا يزمعون السير إلا تلفتاً ... كما التفتت بين الأراك الربائب
واتبعتهم طرفي وقلبي وما دروا ... بأني على آثار هذين ذاهب

بيد أن حرارة هذه القصيدة تخف كثيراً حين ينتقل الى مديح أبي عنان مديحاً تقليدياً يعتمد فيه على المبالغات والمعاني المألوفة ، مما أفقد القصيدة شيئاً من قوتها فيقول :

إمام هدى ضاءت شموس اهتدائه ... فبانت لنا من بينهن المذاهب
وأشرقت الدنيا بنور جبينه ... فما الشمس الا إن بدا منه حاجب

الا أنه سرعان ما يعيد الى القصيدة رونقها وصفاءها حين يبتعد بها عن غيره ، ويرتد بها الى ذاته ، فيصف غربته ورحلته وراحلته ويقول :

أبعد انتزاحي عن بلادي تحثني ... الى بابك الأعلى مطيٌ شوارب
تجاذب عطفيها المراح فتنثني ... كما التفتت في الروض حسناء كاعب
رقمت بها في صفحة البيد أسطراً ... كما زان رقماً في الصحيفة كاتب
وجبت بها غور الفلاة ونجدها ... وليس سوى من ذنبها ما أصاحب
الى أن حططت الرحل في ساحة العلا ... لدى بابك الأعلى كما حطَّ آيب
فكيف أولي شطر غيرك وجهة ... أؤمل منه نجعة أو أراقب

وللرحلة والراحلة ، والربع والأطلال ، ومغاني الأحبة والديار في شعر ابن خلدون أناشيد مؤثرة ، تعبر عن طبيعة حياته التي قضى معظمها ما بين الحلّ والترحال ، وتشف عن دخيلة نفسه الصافية ، وعواطفه الفياضة ، كقوله(٥١) :

أمثّل الربع من شوق فالثمه ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ... ما زال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهم ... فالدمع وقف على أطلاله الجون
احبابنا هل لعهد الوصل مدّكر ... فيكم وهل نسمة منكم تحييني
أعندكم أنني ما مرّ ذكركم ... الا انثنيت كان الراح تثنيني
وأنني ظاعناً لم ألق بعدكم ... دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني

ومن هنا فقد كان قالب القصيدة التقليدي المعروف في معظم الشعر الجاهلي والاسلامي، بمنهج أغراضه الذي رسم حدوده ابن قتيبة منذ زمان طويل من أنسب القوالب الشعرية

التي يمكن أن تستوعب مشاعر ابن خلدون الشاعر الذي ارتبط شعره بالمدائح والمناسبات الرسمية ، فوجد في هذا المنهج مجالاً رحيباً للتعبير عن ذاته وعواطفه وأشواقه ٠

وقد يطول بنا الحديث عن هذا الشعر ويتشعب ، وليست الغاية منه دراسة شعره وتحليله ، وانما التعريف به شاعراً حجبته عنا مقدمته فلم نعد نرى منه سواها ٠

بيد أنها ـ وان كانت من أعظم آثاره ـ فان فيها جوانب كثيرة لم توف بعد حقها من البحث المعمق والدقيق ، اذ طالما وجدنا الدراسات التي تتناولها تكاد تقتصر على الجوانب التاريخية أو الاجتماعية دون غيرها من الجوانب الأخرى التي يحيط بها هذا المشروع المعرفي العظيم ، الذي ينطلق من اشكالية تاريخية خاصة ومحددة ، ليتحرك بعد ذلك داخل منظومة فكرية عامة وشاملة ، ويعالج من خلال الموضوع الخاص والمباشر ، موضوعات أوسع وأعم ، تبدو وكأنها استطرادات وتداعيات ، وهي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من هذا المشروع المعرفي الكبير(٥٢) ٠

كما أن في آثاره الكثيرة الأخرى وخطبه ورسائله ومحاضراته ومذكراته وسيرته الذاتية وأشعاره ما يستحق الدرس وتقليب النظر، وبذلك نرى ابن خلدون على حقيقته: شاعراً وأديباً ناقداً(٥٣) ، ثم عالماً ومفكراً فمؤرخاً بعد ذلك ٠

☐ الحواشي :

١ ـ الضوء اللامع : ١٤٧/٤ والاعلان بالتوبيخ ١٥١ ٠

٢ ـ ن٠ م٠ ١٤٩/٤ ٠

٣ ـ ازهار الرياض ٧١/١ ٠

٤ ـ راجع مؤلفات ابن خلدون ٢١٥ وما بعدها ٠

٥ ـ العلامة ابن خلدون : ص ٩٦ ٠

٦ ـ ن٠ م٠ ص ٨١ ٠

٧ ـ المقدمة ١١٢ و ٥٥٨ و ٥٨٢ و ٤٥٠ وانظر دراسات عن مقدمة ابن خلدون ١٥٠ وما بعدها ٠

٨ ـ التعريف ٢٣٧ ٠

٩ ـ الامالي ٧٩/٢ ٠

١٠ ـ التنبيه ١٢٤ ٠

١١ ـ اعمال ندوة ابن خلدون ٤٢ ٠

١٢ ـ ن٠ م٠ ٤٤ ـ ٤٥ ٠

١٣ ـ المقدمة : ٦ ٠

١٤ ـ الاحاطة ٥٠٧/٣ ٠

١٥ ـ التعريف ٣٩٦ ٠

١٦ ـ الاحاطة ٥٠٧/٣ ـ ٥٠٨ ٠

١٧ ـ نثير الجمان ٢٩٨ ٠

١٨ ـ الضوء اللامع ١٤٩/٤ ٠

١٩ ـ نفح الطيب ١٩٢/٦ ٠

٢٠ ـ التعريف ٢٤٠ ٠

٢١ ـ ن٠ م ٢٤٤ ٠

٢٢ ـ التعريف ص ١٥ ٠

٢٣ ـ ازهار الرياض ٢٣٨/١ ـ ٢٤٧ ٠

٢٤ ـ التعريف ١٧ وما بعدها ٠

٢٥ ـ التعريف ٦٧ ٠

٢٦ ـ نثير الجمان ٢٩٩ ـ ٣١٠ ٠

٢٧ ـ التعريف ٦٧ ٠

٢٨ ـ نثير الجمان ٢٩٧ ٠

٢٩ ـ التعريف ٧٠ ٠



٣٠ ـ التعريف ٧٠ـ٧٤ والاحاطة ٣/٥٠٨ ـ ٥١٠ ونفح الطيب ٦ ـ ١٨١ ـ ١٨٤ والضوء اللامع ٤/١٤٨ ٠

٣١ ـ التعريف ٧٦ وانظر الاحاطة ٣/٥١١ ـ ٥١٢ ونفح الطيب ٦/١٨٤ ـ ١٨٦ والاستقصا ٤/٣٥ ـ ٣٦ ٠

٣٢ ـ الاحاطة ٣/٥١٣ـ٥١٤ ونفح الطيب ٦/١٨٦ـ١٨٧ ٠

٣٣ ـ التعريف ٧٩ وانظر القصيدة في نفح الطيب ٦/١٨٧ـ١٨٨٠

٣٤ ـ ن٠ م ٨٤ ٠

٣٥ ـ ن٠ م ٨٥ ـ ٨٨ والاحاطة ٣/٥١٤ ـ ٥١٦ ونفح الطيب ٦/١٨٩ ـ ١٩١ وجذوة الاقتباس ٢٦٤ ٠

٣٦ ـ ن٠ م ٨٨ ـ ٨٩ ٠

٣٧ ـ ن٠م ٨٩ ـ ٩٠ ٠

٣٨ ـ ن٠م ٩١ ٠

٣٩ ـ ن٠م ٩٧ ٠

٤٠ـ ن٠م ١٣٣ ٠

٤١ ـ ن٠م ٢١٨ ٠

٤٢ ـ ن٠م ٢٤١ ـ ٢٤٤ ٠

٤٣ ـ ن٠م ٢٣٣ ـ ٢٤١ ونفح الطيب ٦/١٨٨ ـ ١٨٩ ٠

٤٤ ـ ن٠م ٢٤٦ ٠

٤٥ ـ ن٠م ٣٣١ ـ ٣٣٥ ٠

٤٦ ـ ن٠م ٧٠ ٠

٤٧ ـ ن٠م ٧٦ ٠

٤٨ ـ ن٠م ٢٣٣ ٠

٤٩ ـ التعريف ٧٠ ـ ٧٤ ٠

٥٠ ـ ن٠م ٦٧ وانظر نثير الجمان ٢٩٩ وما بعدها ٠

٥١ ـ التعريف ٨٥ ٠

٥٢ ـ نحن والتراث ٣٠٥ ٠

٥٣ ـ وقد عنينا بجمع شعره ورسائله وخطبه وآرائه النقدية وقمنا بدراستها في كتاب عنوانه : « ابن خلدون ناقدا واديبا » نامل ان يرى النور قريبا ٠

★ ★ ★

المصادر والمراجع

- الاحاطة في اخبار غرناطة : للسان الدين ابن الخطيب ـ ٧٧٦ هـ ٠ تحقيق محمد عبدالله عنان ـ ط ٢ القاهرة ١٩٧٣ ٠ القاهرة ١٩٧٣ ٠
- ازهار الرياض في اخبار عياض : للمقري شهاب الدين احمد بن محمد ـ ١٠٤١ هـ تحقيق السقا والابياري وشلبي ـ القاهرة ١٩٣٩ ٠
- الاستقصا في اخبار المغرب الاقصى : للناصري احمد بن خالد تحقيق جعفر ومحمد الناصري ـ ط١ الدار البيضاء ١٩٥٥ ٠
- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : للسخاوي شمس الدين بن عبد الرحمن ـ ٩٠٢ هـ ط ١ نشر القدسي ـ دمشق ١٣٤٩ هـ ٠
- اعمال ندوة ابن خلدون : ط ١ الدار البيضاء ١٩٧٩ ٠
- الامالي : للقالي ابي علي اسماعيل بن القاسم ـ مصورة عن دار الكتب ٠
- التعريف بابن خلدون : لعبد الرحمن بن خلدون ـ ٨٠٨ هـ٠ تحقيق محمد بن تاويت ط ١ القاهرة ١٩٥١ ٠
- التنبيه على اوهام ابي علي في اماليه : للبكري عبد الله بن عبد العزيز ـ مصورة عن طبعة دار الكتب ٠
- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس : لابن القاضي احمد بن محمد طبع حجر ـ فاس ٠
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ساطع الحصري ـ بغداد١٩٦١ ٠
- الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع ـ : للسخاوي ، محمد بن عبد الرحمن ـ ٩٠٢ هـ ٠ القاهرة ١٩٣٥ ٠
- العلامة ابن خلدون : ايف لاكوست ـ ترجمة ميشيل سليمان ـ ط ٢ بيروت ١٩٧٨ ٠
- نحن والتراث : محمد عابد الجابري ـ بيروت ١٩٨٠ ٠
- نثير الجمان : لاسماعيل بن الاحمر ـ تحقيق د٠محمد رضوان الداية ـ ط ١ بيروت ١٩٧٦ ٠
- نفح الطيب : للمقري احمد بن محمد ـ ١٠٤١ هـ تحقيق احسان عباس ـ بيروت ١٩٦٨ ٠
- مؤلفات ابن خلدون : عبد الرحمن بدوي ط ٢ ليبيا ١٩٧٩ ٠
- المقدمة والعبر : مصورة ـ دار الكتاب ـ بيروت ٠

وحدة القصيدة في نقد القرطاجني

خليل الموسى

حازم القرطاجني (٦٠٨ ـ ٦٨٤ هـ)

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني (٦٠٨ـ٦٨٤ هـ)، أديب ناقد وله شعر ، من أهل قرطاجنة (بشرقي الأندلس) ، تعلم هناك وأخذ عن علماء غرناطة واشبيلية ، ثم انتقل الى مراكش ومنها الى تونس فاشتهر بها وعمّر وتوفي هناك • من اهم كتبه« سراج البلغاء » طبع باسم « منهاج البلغاء وسراج الادباء » ، قام بتحقيقه والتقديم لهمحمد الحبيب ابن الخوجة ، طبع أول مرة في المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية سنة١٩٦٦ ثم طبع طبعة ثانية في دار الغرب الاسلامي ببيروت سنة ١٩٨١ ، ويعد هذاالكتاب من الكتب البلاغية النقدية الهامة في تراثنا ، وفيه مسائل تقدم بها على معاصريه،وبخاصة « وحدة القصيدة » ، وله ديوان شعر طبع مرتين ، كانت الطبعة الأولى في بيروتبمطبعة عيتاني الجديدة سنة ١٩٦٤ وتحقيق عثمان الكعاك ، ثم طبع في تونس سنة ١٩٧٢بتحقيق د• محمد الحبيب ابن الخوجة تحت عنوان « قصائد ومقطعات » • وهو متاثربالمتنبي ولكن شعره أقرب الى شعر العلماء •

ينظر في ترجمته :

ـ المقري ـ نفح الطيب ـ تحقيق د• احسان عباس ـ بلا مكان ـ ١٩٦٨م ـ ٢/٥٨٩•

ـ السيوطي ـ بغية الوعاة ـ تحقيق محمدابو الفضل ابراهيم ـ مصر ـ البابي الحلبي ـ ط ١ ـ ١٩٦٤ م ـ ١/٤٩١ـ٤٩٢ •

ـ الحنبلي ـ شذرات الذهب ـ بيروت ـ المكتب التجاري ـ د•ت ـ ٥/٣٨٧ـ٣٨٨ •

ـ الزركلي ـ الاعلام ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ط ٦ ـ ١٩٨٤ م ـ ٢/١٥٩ •

ـ ابن الخوجة ، محمد الحبيب ـ مدخل (منهاج البلغاء وسراج الادباء) •

يتألف مصطلح « الوحدة العضوية » « Unité organique » من جزأين : « الوحدة » « Unité » ، وهي ميزة ما هو واحد مهما تكن مفهومات هذه الكلمة(١) ، و « العضوية » « Organique » ، وهي نعت تعريفي وصفي يطلق على ما هو مركب من أجزاء تتكامل بوظائفها المختلفة الجلية والمرتبة ، و « كل عضوي » كلمة ، في هذا المعنى ، مرادفة للمنظم(٢) ، والوحدة العضوية ذروة تضاد العناصر المختلفة وتضامنها(٣) .

وأهم شروط العمل الفني أن يتوافر فيه الشكل العضوي ، وهذا ما اشترطه معظم النقاد ، ومنهم أرسطو الذي عدّ وحدة العمل الفني شرطاً من شروط جودته(٤) ، وربط كولردج « Coleridge » (١٧٧٢-١٨٣٤) العقل البشري الذي يشبه الكائن العضوي(٥) بطبيعة الأدب الذي تجتمع العناصر فيه لتكون وحدة أكبر من مجموع الأجزاء المتفرقة(٦) ، وذهب في تعريف القصيدة الى أنه « لا بد أن تكون بحيث تتساند أجزاؤها فيما بينها ، ويفسر بعضها بعضاً ، وتتساند جميعها وتنسجم كل على قدره مع الغرض والتأثيرات المعروفة للنظام العروضي »(٧) .

والوحدة العضوية ذات كيان حي نام ، ونموها تدريجي عفوي يشبه نمو الأجسام الحية ، وهو ناشيء عن قوة مركزية داخلية تصدر من باطن الكائن الحي وتتحرك في اتجاه الأطراف والأعضاء من خلال دفقات تلون النواحي والأجزاء بلون واحد ، وهي وحدة وظيفية ، فلكل عنصر وظيفة غير منفصلة عن وظائف العناصر الاخرى ، وينجم عنها تكامل العمل ونموه وتوضيحه ، وهي وحدة تقوم على صهر عناصرها التي تنحل بعضها في بعض ، أو كما يقول « كروتشه »(٨) : « ان الفكرة تنحل بكاملها في التصور ، كانحلال قطعة السكر التي تذوب في قدح الماء ، فتبقى فيه ، وتظل تفعل في كل ذرة من ذراته ، ولكن لا يمكن أن يعثر عليها في صورة قطعة من السكر » .

أما وحدة الموضوع فمفادها أن تتناول القصيدة موضوعاً واحداً لا تتجاوزه الى غيره ، كان تكون في الغزل أو الرثاء أو في قصة شعرية كاملة ، على خلاف بعض شعرنا الذي يستوحي نموذج الهيكل القديم ، وقد يكون للغناء دور في قصر القصيدة واقتصارها على موضوع واحد .

ويبدو للباحث مما سبق أن وحدة الموضوع غير الوحدة العضوية ، فهما مفهومان مختلفان اختلافاً بيناً ، فالوحدة العضوية مفهوم درامي يصلح للقصيدة ذات الحدث والحكاية والتي تقوم على الشخوص وفي حدثها تصاعد ونمو ، ولذلك اختلط هذا المفهوم على نقاد الشعر الغنائي ، وازداد اختلاطه حين كانوا يظنون أن الشعر الرومانسي الاوروبي الغنائي شبيه بشعرنا ، والحقيقة أن الشعر الرومانسي أعلى من الغنائية ولكنه لم يخل من العناصر الدرامية ، فكان شعرهم الغنائي مقترناً بالنزعة الدرامية ، ولذلك كان من الخطأ أن نطبق هذا المفهوم على نقدنا القديم لولا أن حازماً كان معجباً بأرسطو وقد تطرق الى هذا الموضوع في كتابه « منهاج الأدباء وسراج البلغاء » .

وعلى الرغم من سوء ترجمة «فن الشعر» فقد ظل لـ « ارسطو » تأثير كبير في نقدنا القديم ، فعد نقاد العرب وفلاسفتهم أرسطو معلماً لهم ، وأغرموا به « وقبلوا تفكيره ،

وانتفعوا به عندما انكبوا على تدوين علومهم »(٩) ، وخصوه بأسماء تدل على مكانته عندهم مثل « المعلم الأول » و« الحكيم »(١٠) ، وربما كان القرطاجني أكثر النقاد القدامى تأثرا بأرسطو ، فقد ألمّ بفلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطو من خلال الترجمات العربية وبخاصة ترجمة ابن سينا(١١) ، واطلاع حازم على كتاب « فن الشعر » واضح في « المنهاج » ، يقول محمد الحبيب ابن الخوجه(١٢) : « ومن ينظر في تعريف حازم للشعر وبحثه في مقوماته الأصلية يلمس كبير تأثره بآراء أرسطو ، فحازم من غير شك قد استفاد كثيرا من مطالعته لكتاب « فن الشعر » للمعلم الأول ··· وهو يأخذ من أوصاف المعلم الاول لشعر المأساة والملهاة، ما يتفق معها عند العرب في شعر المديح والهجاء » ، ويذهب عبدالرحمن بدوي(١٣) الى أننا نستطيع أن نقول : ان القرطاجني « هو أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرض لتطبيقها في كتب البلاغة العربية الخالصة »·

ويبدو أن تأثير أرسطو في البلاغة العربية كان أوفر حظاً منه في الشعر ، وأن تأثيره في « وحدة القصيدة » كان أقل وهذا يعود لأسباب منها سوء الترجمة ، واختلاف طبيعة الشعر الغنائي والشعر الدرامي ، واختلاط مفهوم « وحدة القصيدة » عند القرطاجني بمفهوم « هيكل القصيدة » الجاهلية ، وبعد ، ما أهم سمات وحدة القصيدة في « المنهاج » ؟·

سمات وحدة القصيدة عند حازم القرطاجني(١٤) في «منهاج البلغاء وسراج الادباء»(١٥):

لوحدة القصيدة في « المنهاج » سمات ، أهمها التناسبية والمنطقية والتأثيرية والمتابعة في وحدة البيت ·

وظلت وحدة القصيدة ، عنده ، تناسبية متعددة الأغراض ، وظل نقده تقليديا متأثرا بهيكل القصيدة ، فالقصائد ، عنده ، من حيث أغراضها ، نوعان ، بسيطة ومركبة « البسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاء صرفا ، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح · وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتنان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد »(١٦) ·

ويبدو للباحث أن حازماً يقف الى جانب هيكل القصيدة ، ويشترط في القصيدة الجيدة تعدد موضوعاتها ، فتتكون من عناصر مستقلة في ذاتها ، ثابتة في تعددها ، لا يتفاعل بعضها مع بعض ، ويشترط في الشعراء المقتدرين قوة النفاذ من غرض الى غرض ، فيقول : « وهؤلاء هم المقصِّدون من الشعراء المقتدرون على تعليق بعض المعاني ببعض واجتلابها من كل مجتلب »(١٧) ، وهو يذهب الى أبعد من ذلك فيرى أنه لما وجد الحذاق من الشعراء النفوس « تسأم التمادي على حال واحدة وتؤثر الانتقال من حال الى حال ، ووجدها تستريح الى استئناف الأمر بعد الأمر واستجداد الشيء بعد الشيء ··· اعتمدوا في القصائد أن يقسّموا الكلام فيها الى فصول ينحى بكل فصل منها منحى من المقاصد ··· فالراحة حاصلة بها لافتنان الكلام في شتى مذاهبه المعنوية وضروب مبانيه النظمية »(١٨) ·

وتظل القصيدة مجموعة أغراض لكل منها كيان ضمن كيان القصيدة الطويلة ، وكل ما في الأمر أن الشاعر المقتدر يحسن ربط هذه الأغراض، ويجبرها على التآلف بخيط خارجي·

ويرد أحد دارسيه تفكك مفهوم الوحدة، عنده، الى اهتمامه بهيكل القصيدة ، فيقول : « أما وحدة الموضوع فلم يكن حازم فيما يفهم من أقواله ، يعنيها أبداً • وهذا يقوي زعمنا السابق من أنه كان في مذهبه يساير القصيدة القديمة ويتمشى معها »(١٩) •

والغريب أن الأمر الذي يسلم حازم من الوقوع فيه لا يسلم منه ناقد معاصر ، فعلى الرغم من أن حازماً نظر الى الوحدة من خلال دراساته للشعر القديم ، على أنها وحدة عناصر مستقلة يجمعها خيط شكلي يسميه حيناً بحسن الاطراد ، كما يسميه ، حيناً آخر، بالترتيب والتفصيل ، ولكنه حسن اطراد العناصر المستقلة ، وترتيب حبات العقد فان الدكتور جابر أحمد عصفور يذهب الى أبعد من ذلك فيرى أن للقصيدة المتعددة الاغراض وحدة داخلية وأن حازماً لم يلتفت الى الصلة بين المقدمة والمديح في دراسته لاحدى قصائد المتنبي ، بل افترض أن القسمين يتصلان بحسن التخلص الذي أشار اليه ، ويزيد جابر عصفور(٢٠) على ذلك حين يقول : « ان الاحباط في الحب ـ داخل القصيدة يتجاوب مع الاحباط في علاقة المتنبي بسيف الدولة .وأن كليهما يتجاوب مع الليل والظلام والأعداء والرقبة ، وان هذا التجاوب يشكل مهاداً يقودنا ـ عبر الفرس ـ الى عالم جديد ، هو عالم كافور ، الذي قد يمنح الأمل في ولاية أو ضيعة ••• قد نقول ذلك كله وأكثر منه لنشير الى العلاقات الداخلية التي تصنع وحدة القصيدة وتكامل موقفها ، الذي يتجاوز التقسيم الشكلي الى غزل ومديح » •

والغريب في الأمر أن حازماً لم يجرؤ على القول بالوحدة الداخلية في قصيدة المتنبي علماً بانه كان من المعجبين بشاعريته، وكان يسميه « الشاعر العظيم » في حين يقول جابر عصفور بالوحدة الداخلية بين غرضي القصيدة : النسيب والمديح •

ويبدو للباحث أن القصيدة تفقد ، حين تتعدد موضوعاتها ، وحدتها ، ولكنها ليس من الضروري أن تفقد ، حين تفقد وحدتها ، التناسب بين هذه الموضوعات وأجزائها ؛ لأن التناسب غير الوحدة . فهو حالة من التناغم بين العناصر ، تضم المؤتلف والمتباين ، وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفاً لأول وهلة •وهذا هو السبب في الحاح حازم على التناسب في تصوره للوزن والايقاع • والتناسب ، من حيث الجوهر ، مبدأ رئيس في كل أنواع الفن وأشكاله • ولكن له في كل أنواع الفن مظهراً متميزاً ينجم عن طبيعة الأدوات والعناصر التي يتشكل منها ؛ فتناسب اللوحة يظهر في تناغم الألوان المتباينة وينطوي تناسب اللحن على تناغم بين أصوات ، أما في الشعر فالتناسب بين كلمات ، وكلمات الشعر ليست مجرد أصوات ، بل هي مجموعة من الدلالات •ومن الصعب الفصل بين الكلمة وسياقها كما يصعب أيضاً فصل سياقها عن معنى من المعاني تتآلف دلالته أو لا تتآلف مع غيره من المعاني »(٢١) •

والفرق بين الوحدة والتناسب في الجوهر ، ولكنه فرق لا يلغي أهمية التناسب الذي يجمع عناصر متغايرة ، يتجاوب كل عنصر مع غيره على الرغم من أن لكل منها استقلاله ، ويبدأ حازم بتناسب القصيدة منذ الحرف؛ فاذا حسنت الحروف حسنت الفصول ، وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان ، كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان ، ويعني

ذلك أنه اذا كان كـل فصل متناسباً في ذاتـهفينبغي أن يكون متناسباً مع غيره ، ويشرح حازم التناسب في القانون الأول الذي يتضمن استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها ، وأن تكون « متناسبة المسموعات والمفهومات حسنة الاطراد غير متخاذلة النسج غير متميز بعضها من بعض التميز الذي يجعل كل بيت كأنـه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها منه منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر »(٢٢) ثم يقول: « وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسباً للغرض · فتعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلا والعـذوبة في النسيب ، وأن تكـون الفصول معتدلة المقادير بين الطول والقصر »(٢٣) ، وتناسب الفصول يعني ترتيبها ، ويدل حسن ترتيبها على مقـدرة الشاعر ؛ « فاذا كـان مقتدراً على النفوذ من معاني جهة الى معاني جهة أو جهات بعيدة منها ··· بصيراً بأنحاء التدرج مـن بعض الأغراض والمعـاني الى بعض··· قيل فيه أنه بعيد المرامي »(٢٤) ·

ويؤكد هذا الفهم الوحدة ، ولكن مـن زاوية التسلسل أو التناسب ؛ فالفصول تتدرج ويعقب ثانيها أولها كما لو كنا نصعد درجاً ممهداً يفضي بنا كل درج الى ما يليه، ولذلك يرى حازم ان الشعراء المحدثين « أحسن مأخذاً في التخلص والاستطراد مـن القـدماء ، لأن المتقدمين انما كانت قصاراهم في الخروج الى المديح أن يقول : دع ذا ، وعـد عن القول في هذا »(٢٥) ، ويتحدث في القانون الرابع عـن تأليف فصول القصيدة: فهي على أربعة أضرب: ضرب متصل العبارة والغرض ، وهو الـذي« يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقة مـن جهة الغرض وارتباط مـن جهة العبارة »(٢٦) ، وهذا ما يسميه القدماء « التضمين »(١٧) ، وضـرب متصل الغرض دون العبارة ، وهو الذي « يكون أول الفصل فيـه رأس كلام ، ويكون لذلك الكلام علقـة بما قبله من جهة المعنى »(٢٧) ، ويتصل المعنى في الأبيات ، ويكون كل بيت منفصلاً نحوياً عما قبله وعما بعده ، فينغلق المعنى الجزئي مع نهاية القافية ، ويفضل حازم هذا الضرب، لأنـه يحافظ على استقلال البيت ، وضرب منفصل الغرض متصل العبارة ، وهو « منحط عـن الضربين اللذين قبله »(٢٨) ، وضـرب منفصل الغرض والعبارة ، ولا تتصل قصائد هـذا الضرب عباراتها ولا أغراضها ، بـل يهجم الشاعر « على الفصل هجوماً مـن غير اشعار به مما قبله ولا مناسبة بـين أحدهما والآخر ؛ فان النظـم الذي بهـذه الصفـة متشتت من كل وجه »(٢٩) ، وأردأ القصـائد ـ في رأي حازم ـ ما افتقدت أجزاؤه الاتصال، ولكن علينا أن نلاحظ أن التشتت ، هنا ، هو تشتت الحبات اذا انقطع الخيط الذي يربطها، لا تشتت العناصر الحيـة (٣٠) ·

وتناسب حازم تدرجي ترتيبي ؛ فهـو يرتب فصول القصيدة بحسب العناية والأهمية والطول والقصر ، ويرى أنه يجب « أن يقدم من الفصول ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود بالكلام ويكون مع ذلك متاتياً فيـه حسن العبارة اللائقة بالمبدأ · ويتلوه الأهم فالأهم الى أن تتصور التفـاتة ونسبة بين فصلين تدعو الى تقديم غـير الأهم على الأهـم · فهنـاك يترك القـانون الأصلي في الترتيب · وتقـديم الفصول القصـار على الطوال أحسن من أن يكون الأمر بالعكس»(٣١)، ولا يكتفي حازم بترتيب الفصول ، بل يذهب الى ترتيب بيوت الفصل الواحد ، فيرى أنه يجب « أن يبدأ منها بالمعنى المناسب لما قبله ،

وان تاتي مع هـذا أن يكون ذلك المعنى هوعمدة معاني الفصل والذي له نصاب الشرف كان أبهى لورود الفصل على النفس ، على أن كثيراً من الشعراء يؤخرون المعنى الاشرف ليكون خاتمة الفصل . فأما من يردف الأقوال الشعرية بالخطابية فان الاحسن له أن يفتتح الفصل باشرف معاني المحاكاة ويختمه باشرف معاني الاقنـاع »(٣٢) .

وتناسبه وصلي فهو يتناول التخلص من غرض الى غرض ، وهو ، عنده ، نوعان ، قديم عرفه الشعراء ، ويكون بألفاظ تفصل بين غرضين من أغراض القصيدة ، ومحدث « يجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما مـن الأغراض المتباينة التقاء محكماً ، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام »(٣٣) .

وليس التناسب ، عنده ، بعيداً عن مفهوم **العقد ــ الوحدة** عنـد ابن طباطبا(٣٤) : فوحدة القصيدة « كأنها عقد مفصل »(٣٥) ، وهـو يصف مقصورته بأنهـا « مـن تناسب الفاظهـا ، وتناسق أغراضهـا ، قـلادة ذات اتساق »(٣٦) ، و « قـد تحلت بمقـود ... وتجلت في سموط ... فانتظم عقـدها مـن اللؤلؤ المكنون »(٣٧) ، وتشبيه القصيدة بالعقد يشي بالعلاقة بين الفصول والابيات والعناصر والمعاني ، وهو تشبيه يتناقض كل التناقض مع مبدأ التنامي والتصاعد الداخلي في الشكل العضوي ، فحبات العقد مستقل بعضها عـن بعض مبنى ومعنى ، أو هي متشابهة تشابهاً نسخياً وان ربطت بخيط ربطـاً صناعيـاً ، وصناعة الحبات آلية تصنع كل حبة وحدها ، وهي حبات تصنع من مواد جامدة لا أثر فيها للنمو أو التفاعل ، وجمع الحبات في عقد آلي يشبه جمع أجزاء آليـة ما ، ويمكن فصل أي حبة عن العقد دون أن يسيء ذلك الى جمالها أو شكلها ، ومفهوم حبـات العقد هو مفهوم وحدة البيت داخل وحدة القصيدة ، فالقصيدة التقليدية مجموعة أبيـات والعقـد مجموعة حبـات ، ويؤكد هذا التشبيه ثبات العناصر داخل الشكل الذي يقوم على الترابط الآلي والتسلسل الخارجي المصنوع ، وهكذا يتضح للباحث ، بعد القراءة المتأنية ، أن مستويات الوحدة التي يقول بها حازم متوازية ذات بعد واحد ، وأن قوله بتركيب القصيدة ما هـو الا عودة بالنقد الى بنائية القصيدة الجاهلية .

وحدته **منطقيـة** ، فالقصيدة تتألف ، عنده ، من أغراض ، وتتألف الأغراض مـن فصول ، وتتألف الفصول مـن أبيات . وهو يدعو الى أمرين ، أحدهما ارتباط أبيات كل فصل ارتباطاً منطقياً ، والآخر ارتباط فصول القصيدة ارتباطاً تأثيرياً . وهو يفتتح الكلام على الشعر ببدهيات غريبة عنه ، ويتشدد في معـاني الفصل الواحد حـتى لينسى القارىء أن الكتاب في نقد الشعر ، فهو يتحدث ، مثلاً ، عن الوجوه التي يقع بها التدافع بين المعاني ، فيقول : « كـل قـول قصد به محاكاة شيء ونحي بذلك منحى من الأغراض فانه يجب الا يتعرض فيه الى ما هو أليق بمضاد الشيء المحـاكى بـه وأخص بـه أو أخص بمناسب مضاده ، والا يتعرض في تخييـل حال الشيء المحاكى به الى ما هو أخص بحال مضاد ذلك الشيء أو مناسب مضـاده ، والا يتعرض في القول وما دل عليه الى ما هو أخص بمضاد

الغرض الذي نحي به منحاه أو الى ما هواخص بمناسب مضاد ذلك الغرض ، وألا يتعرض فيه الى لفظ له عرف فيما يضادالمنى الذي دل عليه أو الغرض الذي نحي به منحاه أو الشيء الذي قصدت به محاكاته ولاالى ما يناسب مضادات جميع ذلك ، فان التعرض في القول لما يضاد معناه ومدلولهوغرضه ، أو الى ما يناسب تلك المضادات ، أو الى ما له عرف في شيء من ذلك ، ضروبمن التدافع »(٣٨) ٠

وبعد هذا يدرك الباحث أن ما ذهباليه حازم ، فعلا ، هو البناء المنطقي في بنية القصيدة على الرغم من أنه كان يستهدفالبناء الشعري ، ويحتمل أن هذا الفهملطبيعة المعنىالشعرييمهد لمفهوم الوحدة فيالقصيدة،وهو يلح على اقتران المعاني اقترانا منطقيا، يخضع لحركة المنطق أكثر مما يخضع لحركةالشعر ، وهو يفترض أن الشاعر يفكر في معانيه بطريقة منطقية مع أنه يسلم بتمييزالشعر من المنطق كما يسلم بوجود دوافع ذاتية للابداع ، وهنا تكمن خطورة ما ذهباليه ، فهو ، وان حاول أحيانا أن يخفف نظرته المنطقية ، يؤكد ذهنية الشعراء ،وتسيطر عليه أقيسة لا نجدها الا في كتب المنطق الأرسطي ٠

ويدرك حازم بطبعه المنطقي أن ثمة فجوات بين أغراض القصيدة ، فحاول أن يجد رابطا يربطها ، ورأى أن يكون الانتقال منبعض الأغراض الى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكدا لمعنى المتبوع ومنتسباأليه من جهة ما يجتمعان في غرض ، ومحركا للنفس الى النحو الذي حركها الأول ، أو الىما يناسب ذلك ، وبذلك يكون أشد تأثيرا في النفوس(٣٩) ٠

ويحذر حازم ، من وجهة نظر منطقية ، أن يجمع الشاعر بين غرضين متضادين ، كالحمد والذم أو الابكاء والاطراب ، وكانالمعنيان متساويين في التناقض ظاهرا وباطنا مثل أن يحمد الانسان شيئا ويذمه من جهةواحدة ، ويكون ظاهر الكلام يفيد الحمد والذم معا ، وكذلك باطنه(٤٠) ، ويبدو أنمثل هذا التناقض يسيء الى القصيدة من نواح عدة ، أهمها ابتعاد الشاعر عن التجربةابتعادا كبيرا ٠

وتقسم القصيدة ، عنده ، الى أغراض،يتناول الشاعر في كل منها معنى مألوفا ، وترتبط هذه الأغراض ارتباطا تأثيريا ،ويبدو أن تعدد الأغراض يسيء الى وحدة كل عنصر على حدة وان انتقال الشاعر من غرضالى غرض يوهي الرابط المنطقي ، وهذا ما حدا بحازم الى أن يقول بالتأثيرية فيالانتقال بين أغراض القصيدة ٠

ولما أدرك حازم الفجوات المنطقية بينأغراض القصيدة وجد التأثيرية رابطا يسد هذه الفجوات ، ودعواه في ذلك أن « النفوس تحب الافتنان في مذاهب الكلام ، وترتاح للنقلة من بعض ذلك الى بعض ، ليتجددنشاطها بتجدد الكلام عليها »(٤١) ٠

وتقوم هذه التأثيرية على أساس نفسي،فتصل بين طرفي موضوعين كالمديح والنسيب، فلا يظهر التباين بين أجزائها ، ويرى احسانعباس(٤٢) أن قضية الوحدة لم تتجسد « في

ذهـن حازم من غير الطرق الشكلية والحيـل الشعرية ، لانه كان مشغول الذهن بالتأثير في نفس السامع حين تحدث عن التنويع في انتقال الشاعر في أثناء قصيدته من فصل الى فصل».
ويرى أن حازماً لا يهمل مستمع الشعر ، بل تكتمل وحدة القصيدة في المستمع ومدى تأثره ونشاطه ، وليس مـن الضروري أن تكـون« الفصول » التي يتحدث عنها هي الموضوعات المتعـددة ، وان كـان لا ينكر تعـدد تلك الموضوعات ، وربمـا كانت هـذه الفصـول « دورات » مـن النقلات النفسية في موضوع واحد ، وعندئذ لا يعني الحديث عن الفصول أنها متجزئة ، ولكنه يعني تماسك الدورات فيهـا(٤٣) .

وتقتضي الوحدة التأثيرية ، عنده ، الايجـاز في الفصول خوفاً مـن سأم المستمع ، فينبغي ألا يتوسع الشاعر في الفصل الواحد، ولو كانت المعاني سارة « ولكن يؤتى من ذلك بالمعنى والمعنيين ونحو ذلك في الفصل ويلمع كذلك في الموضع بعد الموضع »(٤٤) .

ويهتم حازم بمطلع القصيدة ويرى أن المطالع الناجحة تفضي الى نجـاح القصائد لأنها « رائد ما بعدها الى القلب، فاذا قبلتها النفس تحركت لقبـول ما بعـدها ، وان لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عما بعدها »(٤٥) . وللقصيدة عدة مطالع ، فلكل فصل مطلع يسيطر على المستمع الى أن يسلمه الى الفصل الذي يليـه ويربط ما بينهما ويزيد القصيدة حسناً وبهـاء .

ولم يتخلص حـازم مـن سيطرة البيت المفرد على بعض آرائه النقدية ، فهو يهتم ، مثلا ، بمطالع القصائد(٤٦) ، ويشترط فيها أن تكون « سالمة من الخرم ، غير مفتقرة الى ما قبلها افتقاراً يجعلها غير مستقلة بأنفسها أو في قوة المستقلة »(٤٧) ، وقد مرّ معنا ان حازماً يميـل الى تفضيل القصائـد المتصلة الغرض المنفصلة العبارة ، لأنها تحافظ على استقلال البيت ، وقد أدى اهتمام حازم بالبيت المفرد الى اهتمامه بالقافية ، « فاما ما يجب فيها مـن جهـة كونها مستقلة منفصلة عما بعدها او متصلة به فلا يخلو الأمر في هذا من أن تكون الكلمة الواقعة في القافية غير مفتقرة الى ما بعدها ولا مفتقر ما بعدها اليها وهو المستحسن على الاطلاق »(٤٨) ، وهو يفضل ، في مكان آخر مـن كتابه ، بنـاء الشعر على البيت المفرد، ويفضل بناء البيت على القافية، وله مآخذ على غير ذلك(٤٩) .

وهكذا يتضح أن حازماً الناقد لم يتخلص تماماً من سيطرة البيت المفرد على نقده على الرغم مـن أنه قال بوحـدة القصيـدة واهتم بالقياس المنطقي ، فظلت القصيـدة في نقـده متعددة الاغراض ، كما ظلت عناصر ثابتـة مستقلة غير متفاعلة ، ويعود هذا الى أنه سار في نقـده على نهج القصيدة الجاهليـة وقال بوحدتهـا معـاً .

* * *

□ الحواشـي :

1 — Lalande, André - Vocabulaire technique et Critique de la philosophie, P. 1164.
2 — Ibid, P. 723.
3 — Ibid, P. 1165.

٤ ـ فن الشعر ـ ص ٢٤ ـ ٢٦ ٠
٥ ـ بريت ، د٠ ل٠ ـ موسوعة المصطلح النقدي ـ ٢/٢٦٢٠
٦ ـ المصدر السابق ـ ٢ /٢٥٦ ٠
٧ ـ النظرية الرومانتيكية في الشعر ـ ص ٢٤٩ ٠
٨ ـ المجمل في فلسفة الفن ـ ص ٥١ ٠
٩ ـ سلامــة ، د٠ ابراهيم ـ بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ـ ص ٤ ٠
١٠ـ الحيوان ـ ١/٧٥ ، وابن سينا « فن الشعر من كتاب الشفاء » ضمن كتاب « فـن الشعر » ـ ص ١٩٨ ، والمنهاج ـ ص ٦٨ و ٨٩ و ١١٨ ٠٠٠ الخ ٠
١١ـ المدخل من كتاب « المنهاج » ص ١١٧ ـ ١١٨ ٠
١٢ـ المصدر السابق ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ ٠
١٣ـ « حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في البلاغةوالشعر» ـ كتاب « طه حسين » ـ ص ٨٧ ٠
١٤ـ هو ابو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حـازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ناقد وشاعر من اهل قرطاجنة (بشرقي الأندلس) ، انتقل الى افريقية ، فاشتهر بها وعمّر وتوفي بتونس ٠ من كتبه « سراج البلغاء » في البلاغة وكتاب في القوافي ، وله ديوان شعر مطبوع مرتين ٠ ينظر في ترجمته :
المقري ـ نفح الطيب ـ ٢/٥٨٩ ، والسيوطي ـ بغية الوعاة ـ ١/٤٩١ ـ ٤٩٢ ، والحنبلي ـ شذرات الذهب ـ ٥/٣٨٧ ـ ٣٨٨ ٠
١٥ـ تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجـة ـ المطبعـة الرسمية للجمهورية التونسية ـ ١٩٦٦ ٠
١٦ـ منهاج البلغاء ـ ص ٣٠٣ ٠
١٧ـ المصدر السابق ـ ص ٣٢٤ ٠
١٨ـ المصدر السابق ـ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ٠
١٩ـ بكار ، د٠ يوسف حسين ـ بناء القصيدة العربية ـ ص ١١٢ ٠
٢٠ـ مفهوم الشعر ـ ص ٤٦٥ ٠
٢١ـ المرجع السابق ـ ص ٤٢٥ ٠
٢٢ـ منهاج البلغاء ـ ص ٢٨٨ ٠
٢٣ـ المصدر السابق ـ ص ٢٨٨ ٠
٢٤ـ المصدر السابق ـ ص ٣٢٣ ٠
٢٥ـ المصدر السابق ـ ص ٣١٧ ٠
٢٦ـ المصدر السابق ـ ص ٢٩٠ ٠
٢٧ـ ينظر التضمين في : العمدة ـ ١/١٧١ ـ ١٧٢ ٠
٢٨ـ منهاج البلغاء ـ ص ٢٩١ ٠
٢٩ـ المصدر السابق ـ ص ٢٩١ ٠
٣٠ـ ينظر : مفهوم الشعر ـ ص ٤٦٠ ٠
٣١ـ منهاج البلغاء ـ ص ٢٨٩ ٠
٣٢ـ المصدر السابق ـ ص ٢٨٩ ٠
٣٣ـ المصدر السابق ـ ص ٣١٨ ـ ٣١٩ ٠
٣٤ـ ينظر في ذلك مقالنا وحدة القصيدة في « عيار الشعر » ـ التراث العربي س ٥ ع ١٨ ٠
٣٥ـ منهاج البلغاء ـ ص ٢٩٧ ٠
٣٦ـ قصائد ومقطعات ـ تقديم وتحقيق د٠ محمد الحبيب ابن الخوجة ـ ص ١١ ٠
٣٧ـ المصدر السابق ـ ص ١٠ ٠
٣٨ـ منهاج البلغاء ـ ص ١٤٧ ٠
٣٩ـ المصدر السابق ـ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ٠
٤٠ـ المصدر السابق ـ ص ٣٥٠ ٠
٤١ـ المصدر السابق ـ ص ٣٦١ ٠
٤١ـ المصدر السابق ـ ص ٣٦١ ٠
٤٢ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ ص ٣٣ ٠
٤٣ـ المصدر السابق ـ ص ٣٤ ٠
٤٤ـ منهاج البلغاء ـ ص ٣٦٠ ٠
٤٥ـ المصدر السابق ـ ص ٢٨٦ ٠
٤٦ـ ينظر : المصدر السابق ـ ص ٣٠٩ ٠
٤٧ـ المصدر السابق ـ ص ٢٨٦ ٠
٤٨ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٦ ٠
٤٩ـ ينظر : المصدر السابق ـ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ٠

شعر أبي الطَّمحان القينّي بين جمعين

ياسين محمد الفاخوري

جُمع شعر أبي الطمَحان مرتين .

جمعه الأستاذ عبدالمعين الملوحي ، ونشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٦ لعام ١٩٨١) في سلسلة مقالاته : أشعار اللصوص وأخبارهم ، ثم أعاد نشره ثانية في كتابه : أشعار اللصوص وأخبارهم ، مصوراً عن مجلة المجمع في دار أسامة بدمشق .

وجمعه الدكتور يحيى الجبوري ونشره في كتاب : قصائد جاهلية نادرة (مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٢) وكان جمعه لشعر أبي الطمَحان تتمة لنشره قصيدته النادرة التي مطلعها :

لمنْ طللٌ عافٍ بذات السلاسلِ كرجعِ الوشومِ في ظهورِ الأناملِ

وهي قصيدة تقع في ثلاثة وأربعين بيتاً .

عرَّف المحققان الفاضلان بأبي الطمَحان القيني حنظلة بن الشرقي ، فهو شاعر فارس لصٌ خارب صعلوك فاسد ، مخضرم . كان ترباً للزبير بن عبدالمطلب ونديماً له ، يُغير ويُغار عليه ويؤسر ثم يُطلق ، لجأ الى بني فزارة وأقام فيهم في اخريات حياته حتى هلك ، وذُكر أنه من المعمَّرين . وأشار الى قصة الدير المشهورة التي اعتبرها أدنى ذنوبه .

امتاز جمع الأستاذ الملوحي بنقله اختلاف القدماء في اسم أبي الطمَحان فهو ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر كما وجد على ديوانه المفرد الذي اطلع عليه الآمدي ، أو هو حنظلة بن الشرقي وقيل : ربيعة بن غنم بن كنانة بن جسر كما في الحماسة ، طبع أوروبا ، ص ٥٥٨ وأشار الأستاذ الملوحي الى ديوانه المخطوط فقال : ولعله ضاع فيما ضاع من تراثنا العربي أو لعل الأيام تكشف عنه ذات يوم .

هـذا ما لم يذكره الدكتور الجبوري الذي يمتاز جمعه بايراده قصيدته النادرة التي لم يورد منها الاستاذ الملوحي سوى بيت واحد ·

كما يمتاز جمع الدكتور الجبوري بتخريجه أبيات أبي الطمحان ، هـذا التخريج الذي لم يقم به الأستاذ الملوحي الذي اكتفى بذكر مصادره في بداية بحثه وان لم ينس ذكر عدد من مصادره في دراسته التي قام بها وهو يروي أخبار الشاعر ·

ان الجمعين متقاربان فمقدمة الدكتور الجبوري لكتابه مؤرخة بعام ١٩٨١ ومجلة المجمع التي نشرت جمع الأستاذ الملوحي صدرت في عام ١٩٨١ ، مما يدلنا على أن كلاً من الأستاذين الكريمين لم ير ما جمعه الثاني قبل أن يرسل جمعه للنشر ·

وقد بلغ الشعر الذي جمعه الأستاذ الملوحي اربعين بيتاً ، أضاف اليها ثمانية أبيات مما ينسب للشاعر وغيره ، في حين بلغ ما جمعه الدكتور الجبوري سبعة وسبعين بيتاً ·

وقد تجمعت لديّ عدة ملاحظات على الجمعين أوردها هنا :

● المقطوعة : اذا قيل أيُّ الناس خيرٌ قبيلةً ·

أوردها الأستاذ الملوحي (مجلة المجمع ٥٦/٢٨٩) في سبعة أبيات، ذكر منها الدكتور الجبوري (قصائد جاهلية نادرة ٢١٨) ثلاثة أبيات ، وذكر الدكتور الجبوري أن الأبيات تُروى للقيط بن زرارة في مصادر عددها ·

وقد وجدت الأبيات عدا الرابع في حاشية البغدادي على شرح بانت سعاد ١/٣٤٠، والابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ في العيني بهامش الخزانة ١/٥٦٧ ، والأبيات ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، في الممتع للنهشلي ٧٧ ، والحماسة البصرية ١/١٦١ والمستطرف ١/١٣٠ ، والابيات ٣ ، ٥ ، ٦ ، في أخبار أبي تمام للصولي ١٣٥ وشرح المقامات للشريشي ١/٧٨ ، والأبيات ٣ ، ٦ ، ٧ ، في نهاية الارب ٣/١٨٣ ، والبيتين ٣ ، ٥ ، في خزانة الأدب ٣/٤٢٦ والاصابة ١/٣٨١ ، والبيت الثالث في المصون ٢١ وعيار الشعر ٤٦ والعمدة ٢/١٣٥ ، والصحاح واللسان (خضض) ، وهذه المصادر كلها نسبت الشعر لابي الطمحان ، وأضاف في العمدة قوله : وقد تنازع في هذا البيت (أي الثالث) قوم ، كما أورد أسامة بن منقذ البيت الثالث بلا عزو في بديعه ١٠٥ ·

● البيتان : ألا علّلاني – رواهما المحققان (الملوحي ٥٦/٢٩١ ، والجبوري ٢١٩) وقال الأستاذ الملوحي في الهامش : أحفظ بيتين لعلهما تتمة للبيتين المذكورين ولم أستطع العثور عليهما وهما : وذكر البيتين :

اذا راحَ أصحابي يؤمّون أمّهمْ وغُودرتُ في قبرٍ عليَّ صفائحي

يقولون : هل أصلحتمُ لأخيكمُ وما القبرُ في الارضِ الفضاءِ بصالحِ

وهذان البيتان تتمة للأولين حقاً ، والاربعة في الحماسة البصرية ١/٢٨١ ، وخاص الخاص ٩٩ ، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/٢٣١ في الانشاد ١٣١ لأبي

الطثمحان القيني ، والأبيات أيضاً نسبت لهدبة العذري في العقد الفريد ١٧٩/٣ ووجدتها في شعر هدبة بن الخشرم ، الذي جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري ص٨٣، واضاف للابيات بيتاً خامساً ٠

● المقطوعة : وبالحيرةِ البيضاءِ شيخٌ مسلَّطٌ ٠

لم يوردها الاستاذ الملوحي وأوردها الدكتور الجبوري (ص ٢١٨) عن شرح الحماسة للمرزوقي ١٨٦٣/٤ لأبي الطمحان الاسدي وذكر قول التبريزي ان القائل هو طخيم أبو الطخماء الأسدي ، وأقول : ان الأبيات في المؤتلف والمختلف للآمدي ٢٢٢ لأبي الطمّحان الأسدي ، وفرق بينه وبين القيني ، وذكر شاعرين آخرين كل منهما أبو الطمّحان ، أحدهما نهشلي والثاني لم ينسبه ، وقال عن الأخير: لا أعرف صحته ولا صحة أبي الطمحان الأسدي ، كما نقل عن المبرد قوله: ولا أعرف أبا الطمّحان الا القيني ٠

وأضيف فاقول : ان أبا الطمّحان من بني القين بن جسر بن شيع الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ، ولم يذكر المحققان (أسداً) في نسبه ٠

● المقطوعة : حنتني حانيات الدهر ٠

ذكر الدكتور الجبوري (ص٢١٩) بيتين ذكرهما الأستاذ الملوحي (٢٩١/٥٦) وأضاف اليهما ثالثاً ، ونبه أن أبا حاتم (السجستاني) يظن أن يونس بن حبيب أضافه الى بيتي أبي الطمحان وانه ليس له ٠ وأضيف الى ما ذكره الدكتور الجبوري من مصادره : كتاب المعمّرين ٧٢ ، وأمالي المرتضى ٢٥٧/١ ، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢٣٣/٢ ، وحاشية البغدادي على شرح بانت سعاد ٣١٣/١ ، وكنايات الجرجاني ١٠٦ ، والاصابة ٣٨١/١ ، وشرح نهج البلاغة ١٩٠/٢٠ ـ كما ورد البيتان ١ ، ٢ بلا عزو في شرح القصائد السبع ١٥٩ ، والتمثيل والمحاضرة ٣٩١ ، وأوردهما الأصبهاني في الأغاني ٣٤٧/١٢ (طبعة دار الكتب) لأبي الطمحان ثم نقل عن ابن حبيب انهما للمسجاح بن سباع الضبي ٠

● البيتان : يا ربَّ مَظلمةٍ يوماً ٠

لم يروهما الدكتور الجبوري ورواهما الاستاذ الملوحي (٢٩٢/٥٦) عن أمالي المرتضى ٢٦٠/١ ٠

● الأبيات الخمسة : ألا حنّت المرقالُ ٠

رواها الدكتور الجبوري (ص ٢٢٠) والاستاذ الملوحي (٢٩٢/٥٦) ٠

والبيتان : أجدّك بني الشرقيّ ٠

رواهما الدكتور الجبوري (ص ٢١٩) ولم يروهما الأستاذ الملوحي ٠
وهاتان المقطعتان بأبياتهما السبعة من قصيدة واحدة رواها محمد بن حبيب في المنمق

٢٧٦ـ٢٧٧ في تسعة أبيات مطلعها (الا حنّت المرقال) ثم بيت زائد ، فالثاني والثالث ، ولم يرو الرابع ، ثم روى الخامس ، وأورد بعده بيتين زائدين ، واختتمها بالبيتين (أجدُّ بني الشرقيّ) .

ونسب ابن حبيب الابيات لحنظلة بن الشرقي وهو اسم أبي الطمحان القيني .

وسأورد الابيات كاملة برواية ابن حبيب مضيفاً اليها البيت الذي لم يروه مع ما وجدته من شعر أبي الطمحان ولم يروه المحققان الفاضلان .

● الأبيات : لو كنتُ في رَيمانَ .

رواها الدكتور الجبوري (ص ٢٢٠) والاستاذ الملوحي (٢٩٤/٥٦) لأبي الطمحان، ومصدرها عند الدكتور الجبوري كتاب الأغاني، ووجدتها في المفضليات ٢٨٣ من المفضلية ٧٤ المنسوبة لثعلبة بن عمرو العبدي ، ابن أم حزنة . والرواية : ولو كنت في همدان . كما وجدت البيتين (١ و ٢) لأوس بن حجر في ديوانه ، ص ٧٤ .

● البيتان : بنيَّ اذا ما سامكَ الذلَّ قاهرٌ .

لم يروهما الدكتور الجبوري، ورواهما الأستاذ الملوحي (٢٩٣/٥٦) نقلا من أمالي المرتضى ٢٦٠/١ الذي قدم لهما بقوله :وأنشد أبو محلّم السعدي لأبي الطمحان ، ثم عقب عليهما بقوله : وهذان البيتان يرويان لعبدالله بن معاوية الجعفري . وقد وجدتهما في شعر عبدالله بن معاوية ص ٤٩ وذكر محققه أنهما في مجموعة المعاني نسبا لعبدالله بن معاوية بعد نسبتهما لأبي الطمحان، كما في أمالي المرتضى ، وأنهما في التذكرة السعدية ٣٣٦ لأبي الطمحان .

● الأبيات: أرقتُ وآبتني الهمومُ الطّوارقُ .

رواها المحققان ، الملوحي (٢٩٤/٥٦) والجبوري (ص ٢٢١) وأضيف أن البيت الرابع في الاساس واللسان (سرق) .

● البيت :

يكادُ الغمامُ الغرّ يرعدُ أن رأى ... وجوهَ بني لأمٍ وينهلّ بارقُهْ

رواه المحققان ، الملوحي (٢٩٥/٥٦) والجبوري (ص٢٢٢) مفرداً ، والبيت في الحيوان ٩٣/٣ والبيان والتبيين ٣٣٧/٣ والممتع للنهشلي ٧٧ ثاني بيتين أولهما :

فكم فيهمُ من سيّدٍ وابنِ سيّدٍ ... وفيٍّ بعقدِ الجارِ حينَ يفارقُهْ

أما العقد الفريد ٣٤/٧ فقد روى البيت وأورد معه ثانياً ، والرواية فيه :

يكادُ الغمامُ الغرّ يرعدُ أن رأى ... محيّا ابنِ مروان وينهل بارقُهْ

يظلّ فتيت المسكِ في رونقِ الضحى ... تسيلُ بهِ اصداغُهُ ومفارقُهْ

وبهذه الرواية يلتئم معنى البيتين عند ابن عبد ربه ، وهـذان البيتـان ذكر ابن عبد ربه أن أبا الطمحان أعطاهما أحد المغنين ليغني بهما أمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك ، ولكن ٠٠٠ هل أدرك أبو الطمحان الذي ذكر أنه أحـد المعمّرين ، عهـد أمـير المؤمنين يزيـد بن عبدالملك الذي تولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ ؟ لا أعتقد ذلك ٠

● الأبيات : سأمدحُ مالكاً في كلِّ ركبٍ ٠

رواها المحققان ، الملوحي (٥٦/٢٩٥) والجبـوري (ص ٢٢٢) وأضيف أنهـا في الحيـوان ١/٣٨٠ـ٣٨١ والبيـان والتبيين ٣/٢٣٥ ٠

● الأبيات : اذا كانَ في صدر ابن عمِّك إحنةٌ ٠

أوردها الأستاذ الملوحي (٥٦/٢٩٦) ثلاثة أبيات، اقتصر الدكتور الجبوري (ص ٢٢٢) على الأولين منها ٠ وأقول : البيت الأول في أمـالي المرتضـى ١/٢٥٩ والجمهرة ٢/٤٢ لأبي الطمحان، والابيات الثلاثة رويت للأقيبل القيني في اللسان (أحن) والأول والثالث في المؤتلف والمختلف ٢٥ للأقيبل أيضاً ٠ وورد البيت الأول بلا عزو في الحماسـة البصريـة ١/٦٤ وأضاف اليه ثانيـاً ٠ أما البحتري في حمـاسـته ص ٢٠ فقـد روى البيت الأول ونسبه لمعروف بن عمرو الطائي ٠



هذه جملة ملاحظات على جمعين لشعر شاعر واحد قام بهما محققان فاضلان ، ولعل في هذا ما يوضح أن الانسان لا يمكن أن يصل الى درجة الكمال اذ لا بـد من نقص يعتوره هنا أو هناك ، وقد وجدت أبياتاً أضيفها لما أورده المحققان وانا على ثقـة أننا سنجد في مقبل الأيام من يضيف ، فالكتب كثيرة وجُلّها مما لم يُطبع بعـد ، ومن يدري فلعل ديوان أبي الطمحـان المفقود يظهر في مكـان ما ٠

● قال أبو الطمحان القيني يصف الكلاب والأروية :

فعاسفتَها حتى اذا ابتـلَّ رَوقُهـا وقتلـن عليـه أنفسـا ولُعابـا

ـ الأسـاس (قيـا) ٠

● وقال يذكر النسـاء :

فاصبحن قـد اقهَيْنَ عني كما ابتْ حياضُ الإمدّانِ الظبـاءُ القوامحُ

واصبحنَ لا يسقينني مـن مودّةٍ بـلالاً ولو سـالتْ لهـنَّ الاباطـحُ

ـ البيتـان في الأساس (قهـو) والاول في اللسـان والتاج (قهـا) لأبي الطمحان ، والأول في التاج (أمد) لزيد الخيل وفي اللسان والتاج(مدد) لزيد الخيل وقيل هو لأبي الطمحان ٠

● وقـال :

ترضُ حصى معزاءِ جـوشٍ واكمه ... باخفافِهـا رضَّ النَّوى بالمراضـخِ

ـ الصحاح واللسان والتاج (جوش) ومعجم البلـدان (جوش) .

● وقـال يمـدح :

إذا لبسـوا عمـائمَهـم ثنـوهـا ... على كـرمٍ وإن سفـروا أنـاروا

يبيـعُ ويشتري لهـم سـواهـم ... ولكـنْ بالرمـاحِ هـم تِجـارُ

اذا مـا كنتَ جـار بنـي لـؤيٍ ... فانتَ لأكـرمِ الثقلـينِ جـارُ

ـ الحماسة البصـرية ١/١٣٢ ، والابيات لشاعر مـن بني تميم في المستطرف ١/٢٣٢ وروي : بني تميم بـدلاً مـن : بني لؤي .

وهي أيضاً في الحماسة البصرية ١/١٧١ لأبي يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي ، وقـد رويت في ديوانه ص ٦٩ في قسم (شعر منسوب الى الخريمي وغيره وهو أولى به) ، ووردت الابيات في البرصان للجاحظ ص ٣٤٧ بلا عزو والروايـة في هـذه المراجـع : بني خريـم .

وقـال :

الا حنّت المِرقـال واشتاق ربها ... تـذكّرُ ارمـامـا واذكـرُ معشري

وباتَتْ وباتَ الهـمُ تحت جِرانِها ... ضمورا بان الوحش لو لم تلجَّزِرِ

ولو علمتْ صرفَ البُيوعِ لسَرها ... بمكـةَ ان تبتـاعَ حمضـا باذخِرِ

لسَرك لو كنّـا بجنبي عُنيزةٍ ... وحمضٍ وضمرانِ الجنابِ وصَعتَرِ

(اذا شاء راعيها استقى من وقيعةٍ ... كعَينِ الغُرابِ صفوها لم يُكدرِ)

واني لأرجـو مِلحَهـا في بطونِكم ... وما بسطتْ مـن جلدِ اشعثَ اغبَرِ

فامّا اجتَوتْ ارضا فاني اجتوَيتها ... وإنْ على التبِ لـو لـمْ اغيَّـرِ

جـزاءَ سِنِمـارِ جزوها وربُها ... وباللاتِ والعزى جـزاءَ المُكفّرِ

اجـدّه بني الشرقيِ ادبـر انهـم ... متى يعلقوا جارا من الناس يَغـدرِ

اذا قلتَ اوفِ ادرَكتـهُ دُروكـهُ ... فيا مؤذِيَ الجيرانِ بالبغيِ اقصِرِ

ـ الأبيات (١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) رواها الدكتور الجبوري ص ٢٢٠ ، والاستاذ الملوحي (٢٩٢/٥٦) ، والبيتـان (٩ ، ١٠) رواهما الدكتور الجبـوري ص ٢١٩ ، ولم يروهما الأستاذ الملوحي .

والبيتان (١ ، ٦) في اللسان (ملح) ، والبيت الخامس في أمالي المرتضى ١/٢٥٩ ، والجمهرة ٣/١٤٣ ، وثمار القلوب ٤٦١ ،والمستقصى ١/٢٢ في شرح المثل : أبصر من غراب، والحيوان ٣/٤٢١ والفصول والغايات٤٠٥ ، والبيت السادس في الجمهرة ٢/١٩١، والأساس والتاج (ملح) والحيوان ٤/٤٧٣ ،والبيت الثامن في خزانة الأدب ١/١٤٢ ·

والبيتان (٦ ، ٨) في تمثال الامثال ٤١٢في شرح المثل : جزاء سنمّار وعجز العاشر أيضاً في تمثال الأمثال ٢٤٠ ·

● وقال :

مَهلاً نُمَيرُ فانَّكمْ امسَيتُمُ ... منّا بثغرِ ثَنيئةٍ لمْ تُستَرِ

سُوداً كأنّكُمُ ذُبابُ خَطيطةٍ ... مُطِرَ البلادُ وحيرُمُها لم يُمطَرِ

يَحبونَ بينَ اجا وبُرقةِ عالجٍ ... حَبوَ الضِّبابِ الى اصولِ السّخبَرِ

وتَركتُمْ قصبَ الشّريفِ طواميا ... تهوي ثَنيئّتُهُ كعَينِ الأعورِ

ـ الحيوان ٦/١١٣ ·

● وقال :

فما انفكَ حتى لمْ يدعْ بينَ هامةٍ ... وبينَ سُلامَى فِرْسِنٍ مُخَّةً تُنقي

بضربٍ يُزيلُ الهامَ عن سَكِناتهِ ... وطعنٍ كتَشهاقِ العَفَا همَّ بالنَّهقِ

ـ تهذيب اصلاح المنطق ٢٢٩ـ٢٣٠ ، والبيت الثاني في الصحاح واللسان (شهق ، سكن ، عفا) ، كما ورد صدر البيت الثاني مع أعجاز مختلفة في اللسان (سكن) معزوّاً لكل من زامل بن مصاد العيني وطفيل والنابغة ·

● وقال أبو الطمَحان أو أخوه :

وكانتْ قريشٌ لا تخونُ حريمها ... من الخوفِ حتى ناهضَتْ بهِشامِ

ـ شرح نهج البلاغة ١٨/٢٨٨ ·

● وقال :

لمّا تحمَّلَت الحمولُ حسبتُها ... دوْماً بايلةَ ناعِماً مكمُوما

وهذا مما أخذ عليه لأن الدَّوْم : شجر المُقل وهو لا يُكمُ ، وانما يُكمّمُ النَّخلُ ·
ـ العقد الفريد ٦/١٨٢ ·

● وقال يذكر لقمان :

إنّ الزمانَ ولا تَفنى عجائبُهُ ... فيه تقطّعُ آلافٍ واقرانِ

امستْ بنو القينِ افراقاً موزّعةً ... كأنّهم من بقايا حيّ لقمانِ

ـ البيان والتبيين ١/١٨٧ ٠

● وقال يذكر سد مأرب :

ألمْ تروا ماربا ما كانَ احصنَهُ ... وما حواليهِ من سُورٍ وبُنيانِ

ظلَّ العباديُّ يسقي فوقَ قُلّتهِ ... ولمْ يهبْ ريبَ دهرٍ جِدَّ خَوّانِ

حتى تناولهُ من بعد ما هجعُوا ... يرقى اليهِ على اسبابِ كتّانِ

ـ الحيوان ٦/١٥٤ والبيت الاول في نهاية الأرب ١٥/٣٣٣ ، والروض المعطار (سبأ) ص ٣٠٢ ، كما وردت الابيات الثلاثة في معجم البلدان (مأرب) ٥/٣٨ بلا عزو ٠

□ المراجع :

★ اخبار ابي تمام للصولي ـ تح محمد عبده عزام وخليل محمود عساكر ونظير الاسلام الهندي ـ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠ ط/٣ ٠

★ اساس البلاغة للزمخشري ـ تح عبدالرحيم محمود ـ دار المعرفة بيروت ١٩٧٩ ٠

★ الاصابة لابن حجر ـ دار احياء التراث العربي بيروت (طبعة مصورة) ٠

★ الاغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ القاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب) ٠

★ امالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ـ تح محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ ٠

★ البديع في نقد الشعر لاسامة بن منقذ ـ تح د٠ احمد بدوي و د٠ حامد عبدالمجيد ـ القاهرة ١٩٦٠ ٠

★ البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ـ تح د٠ محمد مرسي الخولي دار الاعتصام ، القاهرة ـ بيروت ١٩٧٢ ٠

★ البيان والتبيين للجاحظ ـ تح عبدالسلام محمد هارون ـ دار الفكر بيروت (طبعة مصورة) ٠

★ تاج العروس للزبيدي ٠

★ تمثال الأمثال للعبدري الشيبي ـ تح د٠ اسعد ذبيان ـ دار المسيرة بيروت ١٩٨٢ ٠

★ التمثيل والمحاضرة للثعالبي ـ تح عبدالفتاح محمد الحلو القاهرة ١٩٦١ ٠

★ تهذيب اصلاح المنطق للخطيب التبريزي ـ تح د٠ فخرالدين قباوة ـ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٣ ٠

★ ثمار القلوب للثعالبي ـ تح محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠

★ جمهرة اللغة لابن دريد ـ دار صادر بيروت ٠

★ حاشية البغدادي على شرح بانت سعاد ـ تح نظيف محرم خواجة ـ دار صادر بيروت ١٩٨٠ (سلسلة النشريات الاسلامية) ٠

★ حماسة البحتري ـ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ ط٢

* الحماسة البصرية ـ تح مختار الدين احمد ـ عالم الكتب بيروت (طبعة مصورة) .
* الحيوان للجاحظ تح محمد عبدالسلام هارون القاهرة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٩ م ط ٢
* خاص الخاص للثعالبي ـ دار مكتبة الحياة بيروت .
* خزانة الأدب للبغدادي ـ دار صادر بيروت (مصورة عن طبعة بولاق) .
* ديوان أوس بن حجر تح د. محمد يوسف نجم دار صادر ـ بيروت ١٩٧٩ م ط ٣ .
* ديوان الخريمي ابي يعقوب اسحاق بن حسان ـجمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد ـ دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧١ .
* الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ـ تح د. احسان عباس ـ مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠ ط ٢ .
* شرح ابيات مغني اللبيب للبغدادي ـ تح عبدالعزيز رباح واحمد يوسف الدقاق ـ دمشق ١٩٧٣ ـ ١٩٨١ .
* شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ـ تح عبدالسلام محمد هارون ـ القاهرة ١٩٦٣ (ذخائر العرب) .
* شرح مقامات الحريري للشريشي ـ دار الكتب العلمية بيروت (طبعة مصورة) .
* شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ـ تح محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار احياء التراث العربي بيروت ط ٢
* شعر عبدالله بن معاوية ـ جمع وتحقيق عبدالحميد الراضي ـ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦ .
* شعر هدبة بن الخشرم ـ جمعه وحققه د. يحيى الجبوري ـ دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٦ .
* الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري ـ تح احمد عبدالغفور عطار دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤ ط ـ ٣ .
* العقد الفريد لابن عبد ربه ـ تح محمد سعيد العريان ـ دار الفكر بيروت .
* العمدة لابن رشيق ـ تح محمد محيي الدين عبدالحميد ـ دار الجيل بيروت ١٩٧٢ ط ـ ٤
* عيار الشعر لابن طباطبا ـ تح د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام القاهرة ١٩٥٦ .
* الفصول والغايات لابي العلاء المعري دار الآفاق الجديدة (طبعة مصورة) .
* لسان العرب لابن منظور .
* المستطرف للابشيهي ـ دار احياء التراث العربي بيروت (طبعة مصورة) .
* المستقصى في امثال العرب للزمخشري ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٧ ط ٢ .
* المصون لابي احمد العسكري ـ تح عبدالسلام محمد هارون ـ القاهرة والرياض ١٩٨٢ ط ٢ .
* معجم البلدان لياقوت الحموي ـ دار صادر بيروت ١٩٧٧ .
* المعمرون لابي حاتم السجستاني ـ تح عبدالمنعم عامر ـ القاهرة ١٩٦١ .
* المفضليات للمفضل الضبي ـ تح احمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ـ القاهرة ١٩٥٢ ـ ط ٢ .
* المقاصد النحوية للعيني ـ (بهامش خزانة الأدب) .
* الممتع في صنعة الشعر لعبدالكريم النهشلي ـ تح عباس عبدالساتر ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣ .
* المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء للجرجاني ـ دار صعب بيروت (طبعة مصورة) .
* المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب ـ صححه وعلق عليه خورشيد احمد فارق ـ عالم الكتب بيروت ١٩٨٥ .
* المؤتلف والمختلف للآمدي ـ تح عبدالستار احمد فراج ـ القاهرة ١٩٦١ .
* نهاية الأرب للنويري ـ القاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) .

رحلة مع يعقوب بن كلس

د. عارف تامر

بعض الشخصيات الكبرى التي لعبت دورا بارزا على مسرح الاحداث في مواطنها ... لم تنل ما تستحقه من تكريم واطراء واشادة بعد موتها ، ولا أحد يدري لماذا طمست آثارها ، وطويت أخبارها ، ووقف التاريخ منها موقف اللامبالاة ، بالرغم من نجاحها في أعمالها، وحب الناس لها، واخلاصها لوطنها.

ويعقوب بن كلس ... هذه الشخصيةالتي نتحدث عنها ، والتي تميزت بسبقها وتفوقها، لم يولها التاريخ العربي ما تستحقهمن اهتمام ، واقتصرت المصادر على كلمات عابرة خالية من كل تعريف وتقديم ، ودونأية اشارة الى الدور الذي لعبته على مسرح الأحداث في المشرق العربي ، والى ما سجلتهمن الصور الجميلة في أذهان الذين عرفوها وعاصروها ، أو الى تأثيرها في الحياة الفكرية والحضارية لارض الكنانة .

هو : أبو الفرج يعقوب بن يوسف بنكلس ... ولد في بغداد سنة ٣١١ هـ .. من أبوين ينتميان الى أسرة يهودية قديمةوميسورة ، فأدخل المدارس ، وكانت تبدو عليه علائم الذكاء والنجابة منذ الصغر ،وبعد أن شب وترعرع ونال قسطاً وافراً من الثقافة ، أتخذ التجارة مهنة له ومتكسبا ...فبدأ بمعاونة والده الذي كان له أهمية كبرى في عالم التجارة ، ولم يلبث أن رحل معه الى الشام في بعض المسائل التجارية ، ومن دمشق قصد بلد « الرملة » حيثاتخذهامقراً لتسهيل أعمال بعض التجار الذين أوكلوا اليه مهمة تسهيل أعمالهم التجارية ،ولكنه بعد فترة قصيرة انتقل الى مصر لملاحقة بعض المشاريع التجارية ، وكانتآنئذ ـ تحت حكم « كافور الاخشيدي » سنة ٣٣٤ هـ. ، وهناك تمكن بحسن سياستهودهائه ومرونته ولأسباب مجهولة منالاتصال بكافور ، فأعجب به منذ المرة الاولى ، وأحلهمن نفسه ، ومنحه العطف والرعاية ، لما آنسه فيه من علو النفس والجد والهمة والأمانة ،وهذا ما جعله يلح عليه بالبقاء في مصر

والاضطلاع بمهمة مستشاره الخاص ،فأجابه الى طلبه ، وفي تلك الفترة اعتنق الاسلام على أيدي بعض العلماء الذين اختارهم كافور لتدريسه أصول الاسلام ، وهذا ما أثار غضب وحسد وخوف الوزير الأول « جعفر بن الفرات » فأضمر له الشر ، ونصب له الحبائل ... وتشاء الظروف أن يموت صديقه كافور ، وأن يتعزز مركز الوزير ابن الفرات ، فقبض على ابن كلّس وحبسه ، ولكنه لم يلبث أن فرّ من سجنه ، وتوجه الى المغرب ، حيث اتصل بالخليفة الفاطمي الامام المعز لدين الله ، فعطف عليه ، وقربه ، وأفرد له مكانا بين مستشاريه ،وهكذا ظلّ موضع رعايته حتى تمّ له فتح مصر، وعندما انتقل الى القاهرة كان يعقوب معه ، وتفسّر بعض المصادر أنه منذ أن كان في خدمة كافور الاخشيدي بمصر كان على اتصال بالفاطميين في المغرب ، يزودهم بكل شاردة وواردة عن أحوال مصر الداخلية والخارجية ، وهناك من يقول ويذهب الى أبعد من ذلك بانه تجند لخدمة الفاطميين منذ أن كان في بغداد .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أن الإمام المعز لدين الله بعد أن استقر في مصر عيّن ابن كلّس وزيراً على الخراج والحسبة وشؤون الأموال ، فأظهر نشاطاً وخبرة لفتت الانظار بسرعة، واكتسب ثقة الناس والخليفة معاً ، مما جعله يوليه أخيراً أمر النظر في كل شؤون الدولة . فأصبح الوزير الاول .

وبعد وفاة الخليفة المعز لدين الله تسلم العزيز بالله شؤون الخلافة ، فقرب يعقوب وضاعف ثقته به ، وكان قد وصل الى درجة عالية في دراساته الاسلامية وخاصة الفقه الجعفري الفاطمي الذي أولاه اهتمامه وكرس له جهوده حتى أصبح فيه من الأعلام المرموقين .

وفي سنة ٣٧٣ هـ . سجنه الخليفة العزيز بالله في قصره ، وحظّر على كل الناس الاتصال به ولكن هذا الغضب لم يدم طويلاً، فعفا عنه ، وأمر أن يحمل من قصره الى مقره الوزاري في احتفال مهيب تكريماً له ، وبعد أن ثبتت براءته من تهمة قتل القائد التركي « افتكين(١) » بالسم .

ومهما يكن من أمر ... فان عودة يعقوب الى منصبه الأول اعتبرت نجاحاً باهراً ونقطة انطلق منها نحو المكانة والنفوذ والسلطان ، مما لفت الأنظار ، وجعل بعض المؤرخين يتبارون بمدحه كقولهم :

انه كان محباً للعلم وللعلماء ، وعطوفاً على الأدباء والشعراء ، ومشجعاً يغدق عليهم المنح والعطايا دون عد أو حساب ... ثم يضيفون على قولهم :

بانه كان يجمع في قصره العلماء والفقهاء ، ويعين فرق الكتاب لنسخ القرآن الكريم وبعضهم لنسخ كتب الفقه والقانون والحديث والأدب والفلسفة والطب ، وقد عيّن على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها التصحيح والمقابلة والضبط والتصويب لكل ما يكتبه الكتّاب .

وكان في كل يوم ينصب خواناً لخاصته من أهل العلم والشعراء وخواص الأدباء ، كما رتب مجلساً آخر للفقهاء وللمتكلمين ،واهل الجدل ... وهذا بالاضافة الى يوم مخصص في الاسبوع للقضاة ولأصحاب الحديث والنحاة حيث يقرأ عليهم مصنفاته ويناقشهم في مضمونها ، وهذه المجالس اشبه ما تكون بالمحاضرات التي تبرز في ختامها السؤالات والمناقشات . أما مجلس المناظرات بين المتكلمين واهل الجدل ، فقد كان يعقد مرة في الشهر تحت اشرافه ، لأن جميع الطبقات ارتضوه حكماً فاصلاً بينهم .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ابن كلّس بلغ في الفقه الجعفري الفاطمي درجة عالية أهلته لان يؤلف الكتب والمراجع ، وقد ذكر ان عددها بلغ المائة ، ولكن هذا العدد الكبير من المؤلفات فقد ولم يبقَ منه الا « الرسالة الوزيرية » في مختصر الفقه ، وبالنظر لأهمية هذه الرسالة فان الخليفة الفاطمي « الظاهر لاعزاز دين الله » طلب الى الدعاة والمستجيبين بأن يعمموها ويحفظوها عن ظهر قلب ، والى القضاة بأن يصدروا فتاويهم في الفقه والقانون بموجبها .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ... بأن ابن كلّس هو صاحب فكرة تحويل الجامع الازهر الى جامعة علمية ، وعندما حقق هذا المشروع رتب للعلماء وللمدرسين الرواتب والأرزاق ، حتى ان الطلاب الذين كانوا يأتون للدراسة نالهم الكثير من منحه وعطاياه ، وكل هذا يؤكد رعايته للعلم وتشجيعه العلماء لدرجة أن سوق الأدب والثقافة راج في عهده وازدهر ، واصبح حديث الناس خارج البلاد المصرية .

توفي يعقوب بن كلّس في القاهرة سنة ٣٩٤ هـ(٢) ، ودفن في دار العلم ، وذكر أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله عاده في مرضه ،وله قول مأثور عند تلقيه خبر موته :

« وددت لو أنه يباع فأبتاعه بمالي ، أو يُفدى فأفتديه بولدي » .

وذكرت المصادر التاريخية :

ان الناس عند وفاة يعقوب بن كلّس تجمعوا من كل حدب وصوب لتوديعه الوداع الأخير ، وعند التشييع خرج الخليفة العزيز بالله من قصره بغير موكب ولا مظلة ، ومشى في جنازته كأي فرد ، والناس من حوله ،وكان الحزن يبدو عليه ، والدموع تتساقط من عينيه ، وقد اعتكف في قصره لا يستقبل أحداً مدة ثلاثة أيام ، كما انه لم يأكل على مائدته ، أو يحضرها من اعتاد حضورها ... ومن الجدير بالذكر أن الناس أقاموا عند قبره مخيمات عديدة لمدة شهر كامل ، وكان يتقدم الشعراء الى قبره في كل يوم لرثائه وتعداد مآثره ، وقيل ان عددهم تجاوز مائة شاعر ، وكل هذا يدل على مكانته في نفس الخليفة ، وفي نفس الشعب الذي احبه وقدره .

ومهما يكن من أمر ... فان خدمات ابن كلّس للدولة الفاطمية ، لا يمكن أن يحصيها قلم ، ويكفي أن يكون صاحب الرأي الاول باعادة القائد جوهر الصقلي الى القيادة العامة للجيش الفاطمي ، بعد أن كان قد أقصي عن القيادة العامة بعهد الامام المعز لدين الله ، وبعد أن شعر بتضاعف خطر قائد القرامطة « الحسن الأعصم » الذي

تحالف مـع القائـد التركي « أفتكـين » ،وانتزعا العديد مـن ممتلكات الفاطميين في بلاد الشام ، وكان ذلك بدافع من العباسيين والحمدانيـين ·

ويجب أن لا يسهي عـن البال بأن ابن كلس هـو صاحب الرأي بادخـال عناصـر شرقية في الجيش الفاطمي لايجاد نوع مـن التوازن بالنسبة للجنود المغاربة ، ومن جهة أخرى فانه أدخل العديد من الأتراك بواسطة صهره « رشيق العزيزي » التي تولى احدى القيادات في الجيش الفاطمي ، ولعب دوراً فعالا في حروب بلاد الشام ·

ومن مبادئه الدالة على أخلاقه وانسانيتـه تقريب الوزير « جعفر بن الفـرات » ومساعدته على اعادة اعتباره لدى الفاطميين بعد أن كان يعتبر من أعدائهم، وهذا الوزير كان قد سجن ابن كلس بعهد كافور الاخشيدي كما ذكرنا ··· وأخيراً زوّج ابنته الى ابنه « المفضـل بن الفـرات » ·

اشـتهر ابن كلس بميله الى التـرف والاناقة ، وارتداء الملابس الثمينة الفاخرة وكان في قصره خزانة خاصة لكسوته وتضم أفخـر الثيـاب وخاصة ما كان منها مخصصاً للحفلات وللاستقبال وللأعياد ، وكان لهـا ناظر يشرف عليهـا ·

واشتهر أيضـاً الى جانب ذلك بحبـه للعمران ، وشق الشوارع ، واقامة الملاعب ، والساحات والحـدائق العامـة ، والمساكـن العائدة للدولة وخاصة المساجد · أما قصره فقد جعله ينافس قصر الخليفة بما فيه مـن الرياش الفاخرة ، وخزائن الكسوة والأموال والكتب ، وكان مقسماً الى عدد مـن الأقسام وكل قسم عليه ناظر يشرف عليـه ، فهناك المكتبة والكسوة ومكان الطعام والمنامة ، وغيرذلك ، كما أنه أقام حرساً خاصاً به بلغ أربعة آلاف ، وأكثرهم من العبيد والمماليك وكانوا يطلقون عليهم اسم « الوزيرية » ، وبالاضافة الى ذلك كان يوجـد في قصره العديد مـن العبيد والمماليك والحجاب والجواري والأطباء والممرضين الذين أنيط بهم مهمة الكشف عن الأمراض ، ومداواة مـن يمرض مـن هذا الحشد الهائل من الناس · ويضاف الى كل هؤلاء الكتاب والشعراء والمتكلمين وأصحاب المهمات والصنائع الذين كان لكل منهم مكان منفرد خاص به ، كما أقيم في قصره عدد من المطابخ لطهي طعام العمال والحراس ، وهذا علاوة على المطابخ الخاصة لخدمته ، وخدمة جلسائه وضيوفه وخواصه · وفي شهر رمضان كان يقيم مأدب الافطـار للفقهـاء وللشيوخ وللوجوه وأهـل الستر والتعفف وجمـاعات الفقراء والمعوزين ·

ومهما يكن من أمر ··· فان يعقوب بن كلس ترك ثروة طائلـة بعـده ، ضياعـاً وعينـاً وأواني من الذهب والجوهر والفضة والثيـاب والخيـل والابل والغـلال وخزائن التحف ، وقـد قدرت بأربعة ملايين دينار ،ولكن لا بد من التساؤل لمن ترك ابن كلس هـذه الثروة ؟ فالتاريخ يذكر أنه لم ينجب من الأولاد سوى ابنتين ، زوّج احداهن الى « فضل بن الفرات » ، والثانية الى « رشيق العزيزي » وذكر أن قصره تحول الى ما يشبه المتحف بعد وفاته ، كما أن مكتبته نقلت الى مكان آخر ·· وكان قصـره يقـع في حـارة « الوزيرية » الى الجنوب الغربي من القصر الصغير على مقربـة مـن باب الفـرج على

الخليج ، وكان أشبه ما يكون بمدينة قائمة بذاتها ، ففيها كل ما يتطلبه الانسان ، ومن الجدير بالذكر ... أنه كان يقيم في هذا القصر بجناح خاص أعده لنفسه ، وفي هذا الجناح كان يجتمع مع كل من له حاجة ، أو يريد عرض مظالمه ، أو الاستماع الى الدروس .

أجل ... كان ابن كلّس يمتلك طاقة كبرى من الذكاء والعبقرية والخبرة العالمية في الشؤون المالية والاقتصادية والادارية ، ومتضلعاً بمعرفة أحوال الريف والزراعة والري وأنواع الغلال والبذار الصالحة ، وقد ذكر أنه أفاد مصر الزراعية كثيراً ، ولم يسأل عن قضية الا وأجاب عنها بمعرفة ويقين وعلم ودراية ، وفي المجال الاقتصادي فان الديار المصرية بعهده نعمت بالهدوء والازدهار الاقتصادي والمالي ، فامتلأت خزائن الدولة بالثروات ، ولكن في سنة ٣٧٣ هـ ظهرت بوادر الغلاء والمجاعة بسبب انخفاض نهر النيل ، وفي تلك الفترة كان ابن كلّس محجوراً عليه كما ذكرنا ، وعند اشتداد الأزمة افتقد الخليفة العزيز بالله الوزير العلامة ولم يجد في جميع أنحاء الدولة من يسد فراغه بانقاذ البلاد مما هي عليه ، وعندما صدر بيان بتبرئته من التهمة ، عاد الى وظيفته ، وشمر عن ساعد الجد ، وفي وقت قصير وجد العلاج الناجع ، وتمكن من انقاذ البلاد وارجاع الأمور الى نصابها ، فعظمت مكانته ، وأقبلت عليه الدنيا من جديد ، وظل قائماً بخدماته حتى وفاته .

المصادر الفاطمية تجمع على القول : بأن ابن كلّس كان مسلماً عن يقين وايمان وحقيقة ، وأنه كان متمسكاً بآداب الدين يطبق قواعد الاسلام وأصوله وأحكامه ، وكان مختصاً وممتنئاً الفقه لجعفري ، وقد مر معنا أنه ألّف فرقة في الأزهر من المدرسين والفقهاء لتدريس هذه المادة ، وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الاول والأساس لأحكام هذه المادة ، ويجب أن لا ننسى أنه وفد على مصر بعهده عدد من العلماء من جميع أقطار العالم الاسلامي ، فأقاموا في مصر للدرس وللتحصيل ، وأجرى ابن كلّس عليهم الرواتب والأرزاق ومنهم :

أبو عبدالله بن محمد بن جعفر التميمي المغربي المعروف « بالقزاز » القيرواني النحوي ، وكان يحمل لقب شيخ اللغة العربية في المغرب . ويقولون عنه .

« ان القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين » .

ومنهم : الحسين بن عبدالرحيم « الزلازلي » مؤلف كتاب « أنواع الأسجاع » والتميمي « الطبيب » والبديهي الذي أخذ عنه ابن كلّس علم العروض .

قال أبو حيان التوحيدي : سألت التميمي الشاعر المصري عن ابن كلّس فقال :

ذاك رجل ضيافة .. له زوار كالقطر ، يعطي على القصد والتأميل والطمع والطلب وليس عنده امتحان فالراحل شاكر .

ومن الشعراء الذين خصهم برعايته أبو الرقعمق الشاعر الفكه الذي قدم مصر ونال رفده ، والانطاكي ، والرسّي ، وغيرهم شعراء عدة حظوا بمثل هذه الرعاية ٠

وخلاصة القول :

أن الوزير ابن كلّس كان مثلاً أعلى في الاخلاص للدولة الفاطمية الفتية ، وكان كريم اليد جزيل العطاء محسناً للناس ومحباً لعمل الخير ، واذا علمنا أن مائة شاعر وقفوا على قبره ورثوه ، أدركنا منزلته ،ومن المؤسف أن قصائدهم فقدت ، ولم يبق الا هذه الابيات للشاعر أبو الرقعمق :

لم يدع للعزيز في سائر الار ... ض عدواً الا واخمد ناره
وبهذا اجتباه دون سواه ... واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيّد له الوزارة مجداً ... لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرّمها الدهر ... وكر الخطوب بالبذل غاره
هكذا كل فاضل يده تمسي ... وتضحي نفاعة ضراره
فاستجره فليس يامن الا ... من تفيا بظله واستجاره

في نهاية المطاف لا بد من القول :

ان ابن كلّس سهر على الحياة الاقتصادية لمصر ، ووضع العديد من الأسس التي سارت عليها الدولة في سياستها الداخلية خصوصاً في النواحي الاقتصادية ، وقد تجلت خبرته بها منذ أن كان قائماً بخدمة كافور الاخشيدي ، ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأنه شجّع أصحاب رؤوس الأموال وذوي اليسار والتجار بالحضور الى مصر واستثمار أموالهم فيها ، والى جانب الرخاء الاقتصادي عمّ الأمن والاستقرار وانتشر العدل وانفتحت مصر على العالم ، وانتظمت المواصلات والاتصالات والبريد ٠

ويذكر التاريخ الفاطمي :

أنه لم يكن في البلاد الاسلامية دار للكتب أعظم من التي كانت في القصر الفاطمي ، ومن الجدير بالذكر أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري وحده ، وذكر أنها كانت تشتمل على مليون وستمائة ألف كتاب ويؤكد ذلك ما ذكره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي ، بأنه لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية في القاهرة جمل فيها مائة ألف مجلد كلها نُهبت من القصور الفاطمية ٠

لقد كانت تلك المكتبة العامرة وأمثالها سبباً للنهضة العلمية والادبية التي تلألأت في العهد الفاطمي والتي استمرت آثارها في الدولة الأيوبية ٠

ولكن مما يؤسف له أن القضاء على الدولة الفاطمية قد رافقه عبث الأيدي الجاهلة بتلك المكتبة ٠

لعلّ كلمتنا جاءت كافية للتعريف بالوزير يعقوب بن كلّس ، ووصف سيرة حياته وما قام به من أعمال في حياته الحافلة بالنشاط والوطنية والاخلاص ٠

□ مصادر البحث :

تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم حسن ٠

المعز لدين الله : حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف ٠

كنوز الفاطميين : زكي محمد ٠

تاريخ جوهر الصقلي : علي ابراهيم حسن ٠

في ادب مصر الفاطمية : محمد كامل حسين ٠

مصر في عهد الدولة الفاطمية : محمد جمال سرور ٠

مجموعة الوثائق الفاطمية : جمال الدين الشيال ٠

نظم الفاطميين في مصر : عبد المنعم ماجد ٠

نظم الحكم في مصر الفاطميين : مصطفى عطية مشرفة ٠

عبقرية الفاطميين : محمد حسن الأعظمي ٠

نظام الوزارة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيال ٠

اهل الذمة في العصر الفاطمي : جمال الدين الشيال ٠

★ ★ ★



□ الحواشـي :

١ ـ قائد تركي لعب دورا كبيرا في حروبه التي خاضها ضد الفاطميين في ديار الشام ، وخاصة عندما انضم الى القرامطة اتباع « الحسن الاعصم » ٠٠٠ وفي معركـة « الرملة » انتصـر عليهما الخليفة العزيز وقائده « جوهر الصقلي » فقبضا عليه ٠٠ وساقاه الى القاهرة بحيث اكرمه العزيز بالله ، ومعضده ومواطفه وسمح له بالاقامة في القاهرة معززا مكرما ٠



٢ ـ الصحيح انه مات عام ٣٨٠ كما ورد في شذرات الذهب وغيره والعزيز الفاطمي توفي عام ٣٨٦ وهكذا يمتنع وفاة ابن كلس في سنة ٣٩٤ (ع٠ي) ٠

★ ★ ★

الحياة الفكرية في العصر المملوكي

د. صادق آئينه وند

ظهور دولة المماليك :

بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين في مصر ، عجل التنافس والصراع على العرش في أواخرها زوال هذه الدولة التي انتهت في أواسط القرن السابع الهجري (٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م) لتقوم مكانها دولة المماليك بسبب أن « شجرة الدر » أم خليل ـ التي كانت في الأصل جارية ـ زوجة الملك الأيوبي الأخير ، الملك نجم الدين الصالح تزوجت بعد وفاته عز الدين أيبك أحد أمراء المماليك الذي أسس الدولة الجديدة(١) .

دولة المماليك :

المماليك هم الأرقاء البيض ومنهم التركي والمغولي والصيني والالماني والروسي والشركسي والأرمني الى غير ذلك .

وهم الذين اشتراهم تجار الرقيق وأتوا بهم الى مصر والشام وغيرها ، فكان الاغنياء والأمراء والسلاطين يكثرون من هؤلاء الارقاء ليكونوا لهم سنداً يعتمدون عليه في تقوية مراكزهم(٢) .

يرجع ظهور المماليك في العالم الاسلامي الى ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل فقد كان الخليفة العباسي ، المأمون (١٩٨ـ٢١٨ هـ) هو أول من استخدمهم(٣) ، ثم استخدمهم الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ـ٢٢٧ هـ) وكان من جراء ذلك أن تسلط الجيش المملوكي على الدولة والخلفاء العباسيين(٤) .

واستمر الحال على ذلك حتى شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والنصف الأول من القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الاسلامية في الشرق الأدنى(٥) .

درج المؤرخون على تقسيم المماليك الذين استمرت دولتهم ثلاثة قرون الى طبقتين : بحرية وبرجية ، أما البحرية ، منهم وهم مماليك الدولة الأولى ، فالمرجع أن سبب تسميتهم ترجع الى اختيار الصالح نجم الدين ، جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم(٦) . قال المقريزي : « والملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ، وذلك أنه لما مرّ به ما مر ذكره في الليلة التي زال عنه ملكه بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه رعى لهم ذلك ، فلما استولى على ملك مصر أكثر من المماليك وجعلهم معظم عسكره ... فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل(٧) » .

□ المماليك البرجية :

وقد انتهت الدولة الأولى ـ دولة المماليك البحرية ، التي ذكرنا أنها تأسست لما استولت شجرة الدر على السلطنة (٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م) وكان انتهاؤها بموت السلطان الملك الصالح صلاح الدين حاجي سنة (٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م) بعد أن عاشت ما يقرب من قرن ونصف القرن ، تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطاناً منهم من لم يتول السلطنة الا بضعة أيام ، او بضعة شهور ، ومنهم من طالت مدة سلطنته واستقرت سنوات طوالاً(٨) . لتقوم مكانها دولة المماليك الثانية ، المعروفة بدولة المماليك البرجية بتولي السلطان الظاهر برقوق ، الذي كان هو ومن تلوه يسكنون القلعة بجبل المقطم ـ وهو ما أعطاهم اسم: « البرجية » ـ وينسب أوائلهم الى قلاوون وأبنائه وأحفاده(٩) .

□ الحركة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية في عصر السلاطين ازدهاراً واسعاً ، فغدت البلاد محوراً لنشاط علمي متعدد الاطراف . ويرجع السبب في ذلك الى ما أصاب أنحاء العالم الاسلامي في العراق على أيدي المغول وفي الاندلس على أيدي الصليبيين من خراب ومحن ودمار ، فضلاً عما أصاب بلاد الشام ، من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعاً(١٠) ، فكان من حظ مصر وبلاد المماليك التي ظلت بمنجاة من مثل تلك المصائب أن تغدو هي المجال الوحيد للنشاط الفكري والثقافي والفني ... بذل صلاح الدين ورجال دولته كل طاقة في انشاء المدارس ودور الحديث في مصر والشام ، واستدعى علماء السنة والفقهاء ، وأغراهم بالحضور وسار خلفاؤه على سنته ونهجوا نهجه . واستمرت سياسة المماليك في نشر مذاهب أهل السنة والتمكين لها في مصر والشام ببناء المدارس والمساجد الكبرى التي تنهض بهذا العبء(١١) .

واذا رجعنا الى حياتنا الفكرية والعلمية نجد أنفسنا خاضعين في تفكيرنا الى حد كبير، للكتب المؤلفة في العهد المملوكي(١٢) .

وأما ما اعترى الأدب العربي من وهن، دفع المختصين بالأدب الى اعتبار العصر المملوكي عصر انحطاط للأدب العربي ،فهو انحطاط نسبي ، لأن الادب العربي مع

ما كان له من مركز مرموق في عهد المماليك ـ لم يكن ليضاهي ـ بطبيعة الحال ، أدب العصر العباسي الذي شهد فيه الأدب العربي عصره الذهبي(١٣) ٠

وقد تميز العصر المملوكي بظهور « الموسوعات الكبرى » في الأدب ، والنحو ، وعلم الحديث ، والفقه ، والتاريخ ٠ كما تميز ايضا بعدم التخصص ، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم ٠

فالفية ابن مالك (محمد بن عبدالله الطائي الاندلسي الجياني م ، ٦٧٢ هـ) وشروحها ، وكتب ابن هشام (جمال الدين عبدالله بن يوسف الأنصاري م ، ٧٦١ هـ) : القطر والشذور ، والتوضيح ، ومغنى اللبيب ، هي مملوكية ٠

و « علوم البلاغة » : المعاني والبديع والبيان كلها ترجع الى متن التلخيص الذي وضعه جلال الدين القزويني الدمشقي ،(محمد بن عبدالرحمن م ، ٧٣٩ هـ) وهو مملوكي ٠

أما « معاجم اللغة » فاكثرها استعمالا وانتشاراً هي ، لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن يعقوب م ، ٨١٧ هـ) ومختار الصحاح ٠

وفي « الفقه الشافعي » يرجع المتفقهون الى كتب النووي (محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، ٦٧٧ هـ) وخاصة المنهاج وشروحه، ومختصره المنهج ، ومؤلفات السبكي (تقي الدين علي بن محمد م ، ٧٥٦ هـ) ومتن الزبد وشروحه ٠

أما « الكتب التاريخية » فاشهرها : وفيات الأعيان لابن خلكان (أحمد بن محمد م، ٦٨١ هـ) ، فوات الوفيات وعيون التواريخ وكلاهما لابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر ابن أحمد م ، ٧٦٤ هـ) ، البداية والنهاية لابن كثير (عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير م ، ٧٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (يوسف بن تغري م ، ٨٧٤ هـ) ، السلوك للمقريزي (تقي الدين أبي العباس م ، ٨٨٥ هـ) ، المختصر في أخبار البشر ، للملك أبي الفداء ، اسماعيل بن علي الأيوبي (م ، ٧٣٢ هـ) التتمة لابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر المعري م، ٧٤٩هـ) ، وتاريخ ابن خلدون ٠

وفي « الثقافة العامة » : مقدمة ابن خلدون (ولي الدين أبي زيد عبدالرحمن ابن محمد م ٨٠٨هـ) ، نهاية الارب للنويري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبدالوهاب (م ، ٧٣٢ هـ) ، صبح الأعشى للقلقشندي ،شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي م ، ٨٢١ هـ)(١٤) ٠

استمرت الحركة العلمية في عهد المماليك لانهم على الرغم من بعدهم عن العروبة كانوا يؤمنون بالاسلام ، ويخلصون له ،ويتحمسون لعلومه وآدابه ولغته ، وقد أبقوا لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز ما تزال شاهدة على حرصهم الشديد على نشر العلم وتعميمه ٠ ولم يخل عصر أحدهم من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع فيه مدرسة ، أو خزانة كتب ، أو تأسيس كتاب للأطفال ،أو دار قرآن للأيتام ، أو دار حديث للطلاب(١٥) ٠

والغريب أن المماليك ـ وهم من أصول متعددة غير عربية ـ كان لهم أثر واضح في ازدهار النشاط العلمي في مصر · من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين ـ مثل الظاهر بيبرس ـ بسماع التاريخ ، وحرص البعض الأخر على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها(١٦) ·

ان هؤلاء السلاطين والأمراء كانت فيهم غيرة على الدين ، واندفاع الى الذود عن أهله ، ورغبة في اقرار كريم العيش والرعاية للمؤلفين والعلماء ، وان العلم والأدب والعربية قد أفادت من هذه الرعاية فوائد جمّة(١٧) ·

ولما كان الغالب على العصر التعليم الديني السنّي ، فقد تصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث ، ثم الفقه والأصول وكل ما يتصل بأمور الدين والشرع ·

وكان الاهتمام بهذه العلوم امتداداً لاهتمام الأيوبيين بها ، ونبغ فيها جماعة من المشاهير المتقدمين(١٨) :

- ففي «علوم القرآن والتفسير والفقه» : عزالدين بن عبدالسلام (٥٧٧ـ٦٦٠ هـ) ·
- ابن النقيب ، جمال الدين محمد بن سليمان (توفي سنة ٦٩٨ هـ) ·
- الكواشي ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن يوسف (٥٩٠ ـ ٦٨٠ هـ) ·
- ابن كثير العالم المؤرخ الفقيه الدمشقي · (حدود ٧٠٠ـ٧٧٤ هـ) ·
- الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله بن بهادر (٧٣٥ـ٧٩٤ هـ) ·
- القسطلاني قطب الدين ، محمد بن أحمد بن علي (٦١٤ـ٦٨٦ هـ) ·
- القسطلاني تاج الدين أبو الحسين علي بن أحمد بن علي أخو قطب الدين (٥٨٨ ـ ٦٦٥ هـ) ·
- القسطلاني شرف الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن العلامة قطب الدين (ولد سنة ٦٤٨ هـ) ·
- الدمياطي ، شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف ، الحافظ العلامة النسابة المشهور (ولد سنة ٦١٣ هـ) ·
- الجعبري ، برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن معضاد بن شداد (توفي سنة ٦٨٧ هـ) ·
- الحافظ عبدالغني المقدسي (٦٥٦ـ٧١٠ هـ) ·
- الباجي علي بن محمد بن الخطاب (٦٣١ـ٧١٤ هـ) ·
- ابن منير الحلبي المصري ، عبدالكريم بن عبدالنور (توفي سنة ٧٣٥ هـ) ·
- ابن قايماز الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ولد سنة ٦٧٣ـ٧٤٨ هـ) ·

ـ مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري (٦٨٠ـ٧٦٢ هـ) ·

ـ الحافظ العراقي ، عبدالرحيم بن الحسين (٧٢٥ـ٨٠٦ هـ) ·

ـ البرزالي ، القاسم بن محمد بن يوسف الاشبيلي الأصل (توفي سنة ٧٣٩ هـ) ·

ـ القيسراني ، فتح الدين ، أبو محمد عبدالله بن عزالدين (توفي سنة ٥٠٧ هـ) ·

ـ الحافظ المزي ، يوسف بن الزكي بن عبدالرحمن (٦٥٤ـ٧٤٢ هـ) ·

ـ محيي الدين النووي ، يحيى بن شرف الدين (توفي سنة ٦٧٧ هـ) ·

ـ ابن بنت الاعز ، عبدالوهاب بن خلف قاضي القضاة بالديار المصرية (توفي سنة ٦٩٥ هـ) ·

ـ ابن الرفعة ، نجم الدين أحمد بن محمد بن علي المصري الشافعي (ولد سنة ٦٤٥ هـ) ·

ـ ابن جماعة ، عزالدين بن بدرالدين (توفي سنة ٧٦٧ هـ) ·

ـ ابن دقيق العيد ، تقي الدين محمد بن مجدالدين علي بن وهب المنفلوطي (ولد سنة ٦٥٢ـ٧١٢ هـ) ·

ـ ابن سيد الناس ، أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد اليعمري (٦٧١ـ٧٣٤هـ) ·

ـ زين الدين السبكي ، أبو محمد عبدالكافي بن ضياء الدين (توفي سنة ٧٣٥ هـ) ·

ـ تقي الدين السبكي ، علي بن عبدالكافي بن زين الدين (٦٧٣ـ٧٥٦ هـ) ·

ـ بهاء الدين السبكي ، أبو حامد ، أحمد بن علي عبدالكافي (٧١٩ـ٧٦٣ هـ) ·

ـ تاج الدين السبكي ، أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (٧٢٧ـ٧٧١ هـ) ·

ـ جمال الدين الحسين السبكي ابن تقي الدين (٧٢٢ـ٧٥٥ هـ) ·

ـ صدرالدين بن ضياء الدين (توفي سنة ٧١٥ هـ) ·

ـ صدرالدين يحيى بن ضياء الدين (توفي سنة ٧٢٥ هـ) ·

ـ بهاء الدين أبو البقاء ، محمد السبكي (٧٢٧ـ٧٧٧ هـ) ·

ـ تقي الدين أبو الفتح محمد السبكي (٧٠٤ـ٧٤٤ هـ) ·

ـ ولي الدين عبدالله بن بهاء الدين محمد بن عبدالبر السبكي (٧٣٥ـ٧٨٥ هـ) ·

ـ بدرالدين السبكي محمد بن بهاء الدين (٧٤١ـ٨٠٣ هـ) ·

ومن فقهاء الشام المعدودين في هذا العصر :

ـ نجم الدين بن صصري (٦٥٥ـ٧٢٣ هـ) ·



- ابن تيميـة (توفي سنة ٦٥٢ هـ) .
- البارزي نجم‌الدين عبدالرحيم بن ابراهيم (توفي سنة ٧٣٨ هـ) .
- ابن قيّم الجوزية (توفي سنة ٧٥١ هـ) .
- علاءالدين القونوي ، علي بن اسماعيل الشافعي .
- ابـن كثـير .
- ابن الأذرعي ضيـاءالدين أبو الحسن علي بن سليمان الشافعي (٦٤٦ـ٧٣١ هـ) .
- الأذرعي ، شهاب‌الدين أحمد بن حمدان (توفي سنة ٧٨٣ هـ) .

□ **العلـوم الانسـانيـة :**

آ ـ المؤرخـون

- يوسف قز أوغلي بن عبدالله البغدادي ثـم الدمشقي الحنفـي ، المعـروف بسبط ابن الجـوزي (٥٩٧ـ٦٥٤ هـ) .
- ابن الساعي ، علي بن أنجب (توفي سنة ٦٧٤ هـ) .
- أبو الفـداء ، الملك المؤيد ، اسماعيل بن الأفضـل علي بن الملـك المظفـر محمود الأيوبي (٦٧٢ـ٧٣٢ هـ) .
- ابن الفوطي ، عبدالرزاق بن أحمد بن‌محمد المروزي الأصـل ، البغدادي (٦٤٢ـ٧٢٣ هـ) .
- ابن الوردي ، عمر بن مظفر بن عمر (٦٩١ـ٧٤٩ هـ) .
- ابن الجوزي ، شمس‌الدين محمد بن ابراهيم (توفي سنة ٧٣٩ هـ) .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر المفسر صاحب التواريخ (٧٠٠ـ٧٧٤ هـ) .
- شهاب‌الدين بن فضل‌الله العمري (توفي سنة ٧٤٩ هـ) .
- شـهاب‌الدين النويري ، أحمد بن عبدالوهاب (٦٧٧ـ٧٣٣ هـ) .
- أبو شـامة عبدالرحمن بن اسماعيـل (توفي سنة ٦٦٥ هـ) .
- ابن واصل ، جمال‌الدين محمد بن سالم (توفي سنة ٦٩٧ هـ) .
- ابن منير الحنفي ، قطب‌الدين عبدالكريم بن عبدالنور بن منير (توفي سنة ٧٣٥ هـ) .
- الدوادار بيبرس بن عبدالله المنصوري (توفي سنة ٧٢٥ هـ) .
- الادفوي ، جعفر بن ثعلب (توفي سنة ٧٤٨ هـ) .
- كمال‌الدين بن العديم عمر بن أحمد بن هبة‌الله (توفي سنة ٦٦٦ هـ) .
- القفطي ، جمال‌الدين بن يوسف (توفي سنة ٦٤٦ هـ) .
- ابن أبي شـهبة .
- ابن حجر العسقلاني (توفي سنة ٨٥٢ هـ) .

ب ـ النحـــاة

ـ ابن الحاجب ، عثمان بن عمر (توفي سنة ٦٤٦ هـ) .
ـ ابن النحاس ، بهاءالدين محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبي نصر (ولد سنة ٦٧٢هـ).
ـ ابن مكتوم ، أحمد بن عبدالقادر (ولد سنة ٦٦٢ هـ) .
ـ أبو حيان ، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي ، الغرناطي (٦٥٤ـ٧٤٥ هـ) .
ـ ابن المرحل ، شهاب الدين عبداللطيف بن عبدالعزيز أبو الفرج المحقق النحوي المصري (توفي سنة ٧٤٤ هـ) .
ـ ابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري ، الحنبلي النحوي (٧٠٢ ـ ٧٦١ هـ) .
ـ ابن عقيـل ، عبدالله بن عبدالرحمن بن عقيـل (توفي سنة ٧٦٩ هـ) .
ـ أحمد بن أبي بكر (توفي سنة ٧٢١ هـ) .
ـ المـازني ، محيي الدين بن محمد بن عبدالعزيز .
ـ ابن الجزري ، شمس الدين .
ـ ابن مالك ، جمال الدين محمد بن عبدالله (٦٠٠ـ٦٨٦ هـ) .
ـ بدرالدين بن مالك ، المعروف بابن المصنّف .
ـ ابن عصفور ، علي بن مؤمن بن محمد ، الاشبيلي الأصل (٥٩٧ـ٦٦٩ هـ) .

ج ـ علمـاء اللغـة

ـ الصاغاني ، الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر الفقيه الحنفي اللغوي (توفي سنة ٦٥٠ هـ) .
ـ ابن الصائـغ ، شمس الدين محمد بن الحسن بن سباع الجـذامي المصري الدمشقي (٦٤٥ـ٧٢٠ هـ) .
ـ ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي الافريقي المصري (٦٣٠ـ٧١١ هـ) .

د ـ الفلاسـفة والمتكلمـون

ـ نصيرالدين الطوسي ، محمد بن الحسن الفيلسوف ، عالم الرياضيات والطبيعيات الفارسي (توفي سنة ٦٧٢ هـ) .
ـ عضدالدين الأيجي ، عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار (توفي سنة ٧٥٦ هـ) .
ـ سعدالدين التفتازاني ، مسعود بن عمر (توفي سنة ٧٩١ هـ) .
ـ شمس الدين الكـرماني ، ابن يوسف (توفي سنة ٧٨٦ هـ) .
ـ قطب الدين الشيرازي ، محمود بن مسعود الفارسي الأصل (٦٣٤ـ٧١٠ هـ) .
ـ محمد بن أبي بكر السنجاري الكلاباذي (٦٧٥ـ٧٢١ هـ) .

المصـــادر :

١ ـ تاريخ المماليك البحرية ، للدكتور علي ابراهيم حسن(القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٧) ٠
٢ ـ الادب في العصر المملوكي ، للدكتور محمد سعد زغلول ،(القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٠) ٠
٣ ـ الموجز في تاريخ الدول الاسلاميـة وعهودها في بلادنـافلسطين ، لمصطفي مراد الدباغ (بيروت ، دار الطليعة، ١٩٨١)٠
٤ ـ ولاة دمشق في عهد المماليك ، لمحمد احمد دهمان (دمشق ،دار الفكر ، ١٩٨٤) ٠
٥ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، للدكتور سعيدعبد الفتاح عاشور ، (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠)٠
٦ ـ اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشـامالكبرى ، لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمـد احمد دهمان (دمشق ، دار احسان ، ١٩٨٥) ٠
٧ ـ دمشق بين عصـر المماليـك والعثمانيـين ، لأكـرم حسنالعلبي (دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٨٢) ٠
٨ ـ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، للدكتور بكريشيخ امين (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٠) ٠
٩ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغري بردي(القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥ هـ) ٠
١٠ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، تحقيـق ، الدكتـوراحسان عباس (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٣) ٠
١١ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزي تحقيق ، مصطفىزيادة (مصر ، ١٩٤١) ٠
١٢ـ حسن المحاضرة في اخبـار مصر والقاهرة ، لجلال الديـنالسيوطي (مصر ، ١٢٩٩ هـ) ٠
١٣ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي(بيروت ، دار الآفاق الجديدة) ٠
١٤ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني (حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٥ـ١٩٥٠ م)٠
١٥ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للقاضيمحمد بن علي الشوكاني (بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٤٨ هـ) ٠
١٦ـ البداية والنهاية في التاريخ ، لابن كثير (مصر، ١٣٥٨ هـ)٠
١٧ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لابن اياس محمد بـناحمد الحنفي ، تحقيق محمد مصطفي (مصر ، الهيئة المصريـة العامة للكتاب ١٩٨٣) ٠

الحواشـي :

١ ـ انظر : تاريخ المماليك البحرية ، للدكتور علي ابراهيمحسن ، ص ٢٢ ٠ الادب في العصر المملوكي ، للدكتور محمـد سعد زغلول ، ج ١ ، ص ١١٣ ٠
٢ ـ الموجز في تاريخ الدول الاسلاميـة وعهودها في بلادنـافلسطين ، لمصطفي مراد الدباغ ، ج ١ ، ص ٣٧ ٠
٣ ـ تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٣ ٠
٤ ـ ولاة دمشق في عهد المماليك ، لمحمد احمد دهمان ، ص ٧٠
٥ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، للدكتور سعيدعبد الفتاح عاشور ، ص ١٥٢ ٠
٦ ـ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ١٥٤ ٠
٧ ـ السلوك/١ ، ص ٣٣٩ ٠
٨ ـ الادب في العصر المملوكي ، ص ١٩ ـ ١٨ ٠
٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨ ٠
١٠ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٧٣ ـ٢٧٤ ٠
١١ـ الادب في العصر المملوكي ج ١ ، ص ١٠٦ ٠
١٢ـ اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشـام لكبرى ، لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمـد احمد دهمان ، مقدمة ص ٥ ٠
١٣ـ دمشق بين عصـر المماليك والعثمـانيين ، لاكـرم حسنالعلبي ، ص ١٥٩ ٠
١٤ـ اعلام الورى ، ص ٥ ـ ٦ ٠
١٥ـ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكـريشيخ امين ، ص ٥٩ ٠
١٦ـ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٢٧٤ ٠
١٧ـ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ص ٦٠ ٠
١٨ـ الادب في العصر المملوكي ، ص ١٢٣ ٠

وهنا.. كان العرب أيضًا

نهلة الحمصي

من المعروف في علم الاجتماع ان الامة (جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة) وان كانوا ينتسبون في أصولهم البعيدة الموغلة في القدم الى اقوام مختلفة ، غير ان وحدة اللغة والتراث الفكري والعيش المشترك بما فيه من آمال وآلام مشتركة يخلق لدى افراد الأمة شعوراً بالانتماء اليها وتعلقا بها ، ويجعلها بالتالي حقيقة اجتماعية وحضارية ، وكان جماعات الناس الذين ينتسبون اليها ، من أصل واحد بعد أن صهروا معا بفعل عوامل البيئة والوراثة .

والتاريخ هو قصة الأمم ، يتحدث عن تمازج الأقوام والحضارات بما فيها من نظم ومعتقدات وعلوم وآداب وصناعات ...

ولقد امتازت الحضارات على مر العصور بقدرة عالية على الانتقال وراء حدود المجتمع الذي نشأت فيه في الأصل ، وكان ذلك الانتقال أو الانتشار نتيجة لاتصال الأمم (ذات الثقافات المختلفة والمعتقدات والتقاليد المتباينة) سواء أكان ذلك الاتصال عدائيا أم لأغراض سلمية ، وسواء أتم ذلك بطريقة مباشرة من خلال الغزو والحروب أم بطريقة غير مباشرة ...

ولهذا فان التاريخ الانساني على سعته وحضاراته المتنوعة ـ متماسك الأجزاء متصل الحلقات ، تنتمي حلقاته الأولى الى أقدم الأحقاب والعصور ، وكل حادثة تاريخية هي نتيجة لحادثة أقدم منها . وبين أحداث التاريخ الحاضرة والغابرة وشائج وأواصر ، والحاضر وليد الماضي ، يحمل في ثناياه وتضاعيفه بذور المستقبل ...

وانطلاقا من حقائق التاريخ هذه فان الانسان في أي مجتمع هو نتاج شخصيتين

اثنتـين : شخصية الحاضـر التي تشكلت في البيئة الخلقية والثقافيـة التي نشأ عليها ، والشخصية القديمة ـ غير الشاعرة ـ التي انتقلت اليـه بفعل تراث الأجـداد ، وكانت خلاصة لماض طويل من الحضارات التي مرت على أرضـه ٠٠٠

لذلك فان تصوير حضارة ما من خلال التاريخ، وايرادها في صفحات كتب التاريخ، صعب وعسير يتطلب عناية كبيرة ، وروية ،وموضوعية ، ونظرة واسعة الأفق ، نائية عن التحامل والكراهية ، تورد الحقيقة كاملة غير منقوصة ، بعيدة عن التلفيق أو التلفع بالرداء الأسطوري ، تورد الحقائق ناصعة ،مأمونة ، من أجل خير الانسانية وابعادها عن العنف والارهاب اللذين يهددان اليوم الكرة الأرضية بأجمعها ٠

وكمثال للرواية التاريخية التي تبتعد عن الصواب ، تورد المستشرقة زيغريد هونكة في كتابها : (شمس العرب تسطع على الغرب) النص التـاريخي التـالي الذي يـُدرّس في مدارس الغرب عن فتـح العرب للأندلس :« وتدفقت جموع العرب (المتوحشين) بوجوههم السوداء وخيولهم الكئيبة فوق أرض اسبانيا التي تركها أهلهـا فزعاً ، وانثنت الأرض ألمـاً تحت وقع سنابك خيولهم التي خربت الحقول » ٠ هذا النص الذي يقرؤه أطفال المدارس في الغرب عن فتح المسلمين للاندلس، اضافـة الى نص يتحدث عما كان يمكن أن يحدث لبلاد الغرب لو لم يهزم (شارل مارتل) العرب وينقذ أوربة من شرورهم ؟!٠

وتضيف الكاتبة : والواقع أن مثل هذه الجمل يتعلمها الأطفال ويحسبونها حقـائق لا تقبل الشك كما يعتقدون أن العرب ليسوا أصحاب حضارة وانما هـم وسطاء ، نقلوا الينا الحضارات القديمة فحسب ٠

وتنطلق الكاتبة في أقوالها هـذه مـن ايمانهـا : **(بان مـن يعرف نفسـه ويعرف الآخرين لا بـد له مـن أن يعرف ايضاً أن الشـرق والغـرب لا ينفصلان وان العـداء الديني والتعصب الأعمى كانـا أسوأ قائـد للشعوب حرماها من الحياة والازدهار) ٠**

أما غوستاف لوبون في كتابة (حضارة العرب) فيورد هذه الفكرة ذاتها بأسلوب آخر فيقول : ان معلوماتنا المدرسية تلح على أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي ، وفي هذا جحود وأي جحود لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربا٠

لا شك أن التسليم بما جاء في صفحات التاريخ دون تمحيص، وتلقين الخطأ للأولاد، يعلمهم الحقد ويبني الكراهية بـين الشعوب، في وقت تحتاج فيه كرتنا الأرضية الى الفهم الصحيح للأمور ومقاومـة الأخطار الماحقـة التي تتهـددها ٠

لقـد قامت حروب طويلة منذ أقـدم العصور ، وما تزال هذه الحروب حتى يومنا الحاضر تشتعل هنا وهناك في العالم ٠ وفي كل الحروب قتل المتحاربون بعضهم بعضاً ونهبوا وخربوا ــ على اختـلاف عروقهم ومستوى حضارتهم ــ وهذه طبيعة الحروب البشعة ، ولكننا اذا اكتفينا بهذا السرد فاننا نزيـد من أوار البغضاء في العالم ٠٠ ان علينا حين

نؤرخ أن نبدأ منذ أن ينتهي دور الحروب ويبدأ دور التنظيم فيحول المتحاربون نشاطهم الى ميدان التنظيم والبناء ، ويكون التمازج بين الحضارات والعروق ·

ولا شك أن الحضارة التي تنشأ من اتصال الشعوب المختلفة ذات الصفات المتباينة تكون فيها الغلبة لصفات الشعوب الوافرة العدد ، غير أن تأثيراً مهما ضؤل ـ للأقوام الأقل عدداً والأضعف حضارة ـ يبقى من جراء هذا الاتصال ·

ومثل هذه الدراسة لحقائق التاريخ يجب أن توضع في سلسلة منطقية خاضعة لهدف نرمي اليه في تأويلنا ، الا وهو الكشف عن القيم الانسانية في الماضي ، والتي تتطلب الشرح والتأويل من أجل فهم الحاضر ··· وبهذا لا يعود التاريخ بمفهومه الحديث بحثاً عن الامتداد الزمني في الماضي بوصفه اطاراً لما وقع فيه من أحداث فحسب ، ولكنه يصبح كشفاً عن القيم الانسانية الحضارية التي تعقب هذه الأحداث وتحدد مدى تأثير العوامل التاريخية في التقدم الحضاري أو انحطاطه ···

ولعل هذا التاريخ الناطق يبدو أحياناً في الآثار الماثلة التي تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة وتعبر عن رغائب الزمن الذي قامت فيه وعن مشاعره تعبيراً صادقاً ، مما يمكننا من الوقوف على أحوال القرون الغابرة أكثر مما نراه في صفحات كتب التاريخ ، ففي الآثار تتجلى روح الزمن وعبقرية الأقوام ، وبلسان هذه الآثار الصامت تنطق اجيال من الأجداد راقدة في ثنايا العصور ·

يقول غوستاف لوبون :

(ان الكهف الذي نحت في العصر الحجري أو المعبد المصري أو المسجد الاسلامي أو الفاس المصنوعة من الصوان أو السيف ذا المقبضين افضل أحياناً لمعرفة التاريخ من أكداس كتب البحث والجدل ، لأن هذه الآثار تتحدث بلسان صدق عما كانت عليه الأقوام في الماضي ·

ويمكن ان تباد أمة ، وأن تحرق كتبها ، ولكن تأثيرها في الحجر يبقى قويا غالبا (لأن الانسان لا يستطيع محوه ولا تكاد العصور تقدر عليه) ·

وكخلاصة لما سبق فان التاريخ الذي نود أن يكتب ويدرس للأولاد في الشرق أو الغرب هو التاريخ الذي يشير الى تمازج الحضارات الذي يعقب الفتوحات ، والذي يبدو في الفنون والآداب والنظم السياسية والاجتماعية التي تعبر عن احتياجات الشعوب ومشاعرها وتبدو في معتقدات الأقوام وفلسفتهم وعلومهم وآدابهم ، وفي نمط شعورهم وطرق تفكيرهم ، لأن العالم كله اليوم وحدة متصلة ولا يمكن للشرق أو الغرب الا أن يتساندا ويبتعدا عن الكراهية والتعصب ···

· أما الهدف من هذا الموضوع فهو التوصل الى كتابة (تاريخ العرب في أوربا) كما ينبغي أن يكتب بموضوعية ···

* * *

مما لا شك فيه ان كثيراً من كتب التاريخ ـ في الشرق أو الغرب ـ قد خاضت في موضوع (العرب في أوربا) جله أو بعضه ،ولكن مما لا شك فيه أيضاً أننا بحاجة الى تاريخ موضوعي يجمع بين الروايات المختلفة ـ العربية الاسلامية والأوربية المسيحية ـ وتمحيص ما جاء فيها وترتيبها ، ليصل القارىء الى الحقيقة البينة الجلية للاطلاع على الواقع الصحيح لتمازج الحضارات وتأثير الأمم بعضها في بعض ٠٠٠

ولعل أول ما يخطر على البال هو تاريخ العرب في الأندلس أو في جزيرة صقيلية ٠٠٠ ففي صفحات التواريخ الكثيرة مما كتبه العرب والفرنجة عن حروب العرب المسلمين ومعاركهم مع القوط والفاندال وعن حضارة العرب المسلمين التي سادت قروناً وما تزال آثارها شواهد صدق عليها، في هذه التواريخ الكثيرة ما يساعد على تقليب الروايات والتنسيق بين صحيحها وحذف المغرض منها أو الخاطىء أو الأسطوري للوصول الى تاريخ يدرس ، مجرد عن التعصب لهؤلاء أو أولئك ، بعيد عن الغلط والمغالطة ٠

ويحتاج الوصول الى هذا التاريخ الصحيح الى فهم أمور ينبغي الوقوف عندها حين تقليب صفحات ما أرخه المسلمون والغربيون ٠

أما بالنسبة للمؤرخين المسلمين في الأندلس فقد كتبوا عن الحوادث بعد انقضائها بزمن طويل فلم يكونوا معاصرين لها ، أما ما كتب عن هذه الأحداث في زمانها أو بعد مدة قصيرة فلم يكن مستوفياً لشروط التحقيق ، وأكثر هذه الأحداث رواها أصحابها شفاهاً وتناقلتها من ثم أفواه الرواة ٠٠٠ وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور ـ دور الحماسة والمجد وإعلاء شأن الدين ـ يمزجون الخيال بالواقع ويجمعون بين ما حدث فعلاً وبين ما كانوا يطمحون الى حدوثه أو كان يجب أن يحدث حقاً ٠

وكان يشق على العرب كثرة الأعلام الأجنبية من أسماء الرجال والأماكن ، فقد كانت ثقيلة اللفظ على ألسنتهم ، كما أنه لم يكن من المألوف وضع الحركات على الأحرف ٠٠٠ فكانت الأسماء تحرّف ٠٠٠ وكان النسخ أحياناً يؤدي الى كثير من التصحيف ٠ وهكذا ابتعدت كثير من الألفاظ عن أصلها ، مما جعلها مجهولة لدى القارىء الأجنبي ٠

ومع ذلك فالمستشرق دوزي الهولاندي يقول عن العرب المسلمين ما يلي: « ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانيا لأن العرب كانوا يعتمدون على الرواية الشفهية ويملكون قوة ذاكرة عجيبة ليس تضاهيها ذاكرة في حفظ الوقائع والسنين والأعلام والأنساب وذلك بدون ضياع أو تحريف ، وكان التاريخ يتناقله الأبناء عن الآباء ، وكان الذين يشتغلون بالكتابة قليلي العدد فلذلك ندرت الكتابة في التاريخ ، ومع هذا فقد وجدت كتب قليلة عن فتح الأندلس ، منها كتاب (أخبار مجموعة) في فتح الأندلس الذي لا يعرف مؤلفه والذي الحق بتاريخ ابن القوطية ٠

اما بالنسبة لدخول العرب الى فرنسافقد اقتصر تاريخ العرب على الحكايات التاريخية بهذا الشأن ، أما دخولهم الى ايطاليا وسويسرا وجزر البحر الأبيض المتوسط فلم يتعرض لها المؤرخون العرب ٠

فاذا أردنا الحديث عن المؤرخين الغربيين فاننا نجدهم قد سجلوا تاريخ العرب في أوربا في أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً، وفي وقت طغت فيه الأمية والجهل على أبناء الشعب واقتصر التعليم على رجال الدين والنبلاء ٠

وكانت حكايات الغربيين لوقائع غارات العرب المسلمين على أوربة متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع الميلادي ، ومن هذه الحكايات ما لم يتعرض للحديث فيها عن بعض الأحداث أصلاً فقد تجاهلها وكأنها لم تكن، وركز على بعضها الآخر وأوردها بشكل مبالغ فيه ، يضاف الى أن المؤرخين الغربيين خلطوا في تاريخهم ما بين (المجر) الذين جاؤوا من شرقي أوربا ووصلوا الى ايطاليا وفرنسا وعاثوا فيهما فساداً وبين العرب الذين جاؤوا من بلاد اسبانيا ، كما أن أقواماً متعددة غزت أوربا من بينها صقالبة وصربيين ومورافيين وبوهميين وقسم من أهالي بلاد اليونان ، وكان هؤلاء يقتتلون مع الأمم السكسونية والهونية ، وكان هؤلاء في حروب دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ٠٠٠ ولم تنقطع هذه الحروب حتى دخل الجرمان والسلاف في الدين المسيحي ٠

وكان من الأخطاء التاريخية لدى مؤرخي الغرب اطلاق كلمة (السارازين) على المسلمين وتلقيبهم بالوثنيين ، تلك الكلمة التي كانت تطلق على المسلمين وغيرهم ، وربما كانت كلمة (سارازين) تعني شرقي ومنها جاءت الكلمة التي كانت تطلق على العرب (سراكينو) وقصد بها العرب الذين جاؤوا من آسيا ، وفي نعت المسلمين بالوثنيين بعد كبير عن الحقيقة فليس من بعيد عن الوثنية كالعرب ٠٠٠ وكان من نتيجة هذا أن عزا المؤرخون الغربيون الى المسلمين العرب أعمالاً لا يمكن أن يقوموا بها وليست منهم ٠

وكذلك كانت شهرة بعض ملوك الفرنجة كبيرة فنسبت اليهم أحداث وقعت قبل وجودهم أو بعد مجيئهم بقرون كما حدث لسيرة شارلمان التي نسبت اليها أحداث وقعت بعد قرنين أو ثلاثة من زمانه ٠

وكان القصاصون يضيفون الى الوقائع من خيالهم الشيء الكثير الذي لم يقع ، فيوردون الأحداث التي يودون لو وقعت ويضيفونها الى تاريخهم مظهرين الأجداد أبطالاً حرروا البلاد ، وطردوا الأعداء ، من ذلك أن أهالي جنوبي فرنسا لم يكونوا يحبون شارل مارتل لأن هؤلاء كانوا ينظرون اليه والى قومه كبرابرة من أهل الشمال ، بينما هم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين ، يضاف الى ذلك أن شارل مارتل لم يحم الكنائس التي يتحدث تاريخ الغرب عن تهديم العرب لها ، بل على العكس فقد استباح شارل مارتل أموال الأديرة لتسليح جنده (وكان سارق أموال الكنائس) يتخذ من الدين وسيلة لمنع اتساع رقعة دولة العرب ٠ وفي ذلك تقول المستشرقة هونكة: (اذا رجعنا بهدوء الى التاريخ نرى أن القيصر لودفيج عندما أراد أن يسجل أمجاد أجداده على

جدران القصر لم يجد في أعمال جده شارل مارتل ما يستحق التسجيل سوى انتصاره على القبائل الألمانية ٠٠٠ لقد كان هذا الامبراطور فاتحا للبلاد التي ادعى تحريرها يعمل فيها سيفه وجنده أكثر مما يفعله العرب ٠

أما قصة (رولان) بطل الأنشودة المعروفة باسمه وهي احدى المقطوعات التي تتغنى بشارلمان (حفيد شارل مارتل) في القرن الحادي عشر عندما توجه لغزو اسبانيا ، وهناك قتل رولان في معركة وقعت عند جبال البرانس (البيرنه) أثناء تراجع الجيش الى فرنسا بيد سكان البلاد الأصليين ٠٠٠ فان الأسطورة تنقل المعركة الى أرض أخرى وتجعل الأعداء هم العرب وتبالغ في اظهار شجاعة البطل ٠٠٠ وهذه الملحمة (ذات الأحداث المختلفة عن الحقيقة) انتشرت بشكل واسع في أوربا وترجمت الى عدة لغات ٠

والى هذا فقد اعتمد المؤرخون الغربيون على ما كتبه رجال الكنيسة من القساوسة، وأكثر ما ورد فيها كان يخلط الوقائع بالدعاية ٠

كذلك ففي التواريخ الغربية تغيير بيّن وذلك بجعل المتعاونين مع العرب المسلمين الفاتحين هم اليهود فحسب من سكان البلاد ، مع أنه مما لا شك فيه أن المسلمين قد وجدوا من الأهالي معاونين كثر ، في السر أو العلن، ولولا تلك المساندة والمساعدة لم يتيسر للعرب أن يقيموا في تلك البلاد القاصية البعيدة عن أرضهم وأوطانهم الأصلية، ولكن المؤرخين لا يصرحون بذلك مكابرة واخفاء للواقع ٠

وهناك تاريخ اعتمد عليه المؤرخون الغربيون المحدثون بحجة أنه أفضل من سواه وهو (تواريخ القديس دينس ٠٠٠) ولكن هذه التواريخ كتبت في أواسط القرن الثاني عشر، وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت ٠٠٠ ولهذا فاننا لا نجد تمحيصاً للتاريخ وتفريقاً بين الحقائق والأساطير ٠

ويمكننا بعد هذا الاستعراض الوصول الى حقيقة وهي : أن تاريخ العرب في اسبانيا وغيرها من دول أوربا يحتاج الى اعادة نظر وتثمين جديد يعطي لكل حضارة قيمتها في روية وموضوعية وبعد عن التعصب والنكره ٠

* * *

واذا ما حاولنا أن نبحث عن أسباب **الفتوح العربية في أوربا** فاننا نجد أن السبب الأول كان لنشر الدين رجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله ، فان الاسلام يحث على الجهاد ويسمي كل من يقتل في سبيل الدعوة شهيداً ، والجهاد فريضة على كل مسلم ٠٠٠ وعلى كل مسلم أن يدعو غير المسلم الى الايمان قبل أن يجرد عليه الحسام ٠٠٠ وكان كثير من الأسرى يمتقون ، فان تحرير رقبة هو أفضل ما يتقرب به المؤمن المسلم الى الله ٠٠٠ وكان الأسير الذي لا يُسْلِم يعمل في حرث الأرض أو رفع الأثقال ، أما اذا أسلم فكان يمتاز بالخدمة ويستعان به في المعارك، وكان المسلمون يتلقون الذين يدخلون بالدين الاسلامي بتسامح وقلب مفتوح ، فيوفرون لهم حظوظهم وأرزاقهم ٠٠٠ وهكذا دخل

عدد كبير من أهل البلاد في الاسلام وتسنموا أعلى الوظائف وتزوجوا من مسلمات ... وهذا ما حدث في اسبانيا ، وبذلك استطاع العرب والمسلمون أن يقوموا برسالة الحضارة، يقول غوستاف لوبون : « **في أقل من قرن استطاع العرب أن يحيوا ميت الارضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا فخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون للدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشؤون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمناً طويلاً** » .

« وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبدالرحمن العرش ، أي منذ انفصال اسبانية عن المشرق باعلان الخلافة في قرطبة في سنة (٧٥٦) فغدت قرطبة أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون .

ولم يكد عبدالرحمن يقبض على زمام الحكم في اسبانية حتى أخذ يسعى لحمل العرب على اعتبار اسبانية وطناً حقيقياً لهم وأخذ ينفق دخل بيت المال في العمران وفي اصلاح البلاد بدلاً من انفاقه في الغزوات البعيدة .

وامتازت الحضارة بدءاً من زمانه بميل العرب الشديد الى الفنون والآداب والعلوم وانشاء المدارس والمكتبات والمختبرات وترجمة الكتب ودراسة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والطبية .

كذلك صار للعرب نشاطهم في الصناعة والتجارة ، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسيج والجلود والسكر الى افريقيا والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر ، كما غدت اسبانيا سوقاً هامة لبضائع الشرق وهمزة الوصل بين الشرق والغرب . وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات ... وفي اسبانيا الحاضرة اليوم كثير من أعمال الري ما تزال مستعملة الى الآن» .

ولا شك أن كثيرين من أهالي البلاد الأصليين تعلموا اللغة العربية ... واليوم، وبعد أن نسيت اللغة التي كان يتكلم بها الناس في اسبانيا ننظر الى ما تركته الحضارة من ثقافة ما تزال تؤثر ، لأن هناك أموراً في الحضارات تتعالى على الاندثار . وفي ذلك يقول الأديب الاسباني المعاصر مينيل هومسيه ماجرثي الشهير بارنيال شريش : « قد تنسى لغة المحتل التي كان يتكلم بها الناس في الارض التي احتلوها ، ولكن ما تتركه من ثقافة يصعب على السكان ازالة آثارها ، فهناك أمور تتعالى على محاولات الاحتواء ، مثال على ذلك حضارة الأندلس ذات القدرة العجيبة على البقاء على الرغم من ذهاب أصحابها) ويقول الأديب الاسباني : خموس ريوساليدو: « ان الفصل الاسلامي في التاريخ الأندلسي لا يعتبر الوحيد في تاريخها ولكنه يعتبر أحد الفصول المهمة جداً ، والمرحلة التي يتقبلها الأندلسي حتى الآن بكل سهولة» .

وبعد فان ما نرجوه من خلال عرض هذه الحقائق أن نصل الى كتابة تاريخ يقرب ما بين اسبانيا والعرب ، وذلك باعادة كتابة التاريخ العربي في اسبانيا بهدوء وروية ،

تاريخ يختصر في ذكر ما حدث في الحروب ويفصل في سرد ما أدى اليه تمازج العروق من تفاعل الحضارات ، التي تدل على ان العرب والاسبان قد استقوا في وقت ما من حضارة واحدة وان كانوا من أصلين مختلفين، ثم اختلفت بعد ذلك مسيرتهم ، ولكن تلك الحضارة بقيت رابطاً حضارياً بينهما ، يجب أن تدفع الى التفاهم والتقارب والتعاون المستمر بينهما دون تعصب للماضي أو تحسس منه ...

* * *

أما بالنسبة الى البلاد الأوربية الأخرى ، فان التاريخ العربي لم يتعمق في ذكر ما حدث بعد المعارك ، أو لم يتطرق الى ذكر الوقائع البتة ، ولهذا فان عودة واجبة لهذا التاريخ ينبغي الوقوف عندها ...

جاء في نفح الطيب للمقري ما معناه : « ان نفس موسى بن نصير كانت تود اختراق اوربا من الغرب الى الشرق للوصول الى القسطنطينية مروراً باسبانيا ففرنسا فايطاليا الى بلاد البلقان فالقسطنطينية ... ولكن الخليفة الأموي لم يسمح له بأن يخوض بالسرايا الاسلامية في بلاد متنائية فتحل بهم نائبة) . وكان هدف ابن نصير فيما عزم أن يخوض به أن يصبح البحر المتوسط كله بحراً للمملكة الاسلامية ، ولكن دعوة الخليفة للقائد جملته يقفل راجعاً عما انتوى القيام به ... واندرجت ولاية الأندلس وفي ولاية المغرب ..

ومع ذلك فقد غزت جيوش المسلمين ماوراء جبل البرت (وهي جبال الألب) ثم تراجعت الجيوش ولكن بقيت لها جيوب في تلك البلاد .

كان العرب يطلقون على فرنسا اسم (الأرض الكبيرة) ويعنون بها جميع الأراضي الواقعة بين جبال البرانس (أو البيرنه) وجبال البرت (وهي جبال الألب) وبين الأوقيانوس ونهر البا ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسا في زمن شارل مارتل وابنه بين القصير وابن هذا الأكبر شارلمان .

ولقد شمل الجهاد في عهد موسى بن نصير والولاة بعده جبهتين :

- داخل الأندلس ولا سيما في الشمال .
- وراء جبال البرت في الأرض الكبيرة .

كانت أولى الغارات السريعة على فرنسا غارات موسى بن نصير ، وكانت خاطفة ... وعن نفح الطيب : (أن بعوث طارق بن زياد قد فتحوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادي رودنه (نهر الرون) كما ملكت جيوشه برشلونه وأربونه وصخرة بينيسون ولودون التي تعتبر ثالث مدينة في فرنسا اذ ذاك ، وعندما تراجع العرب المسلمون عن هذه الأراضي تركوا فيها جيوباً لهم ...) ولقد بقي حلم الفتح بعد موسى بن نصير في قلوب من حكم بعده بلاد الاسبان وكانت بداية تحقيق هذا الحلم هو الاستيلاء على البلاد التي تقع وراء جبال (البرت) وكانت قوة المد الاسلامي قد بلغت مبلغاً عالياً من عهد الولاة

فسيروا الجيوش في سبيل الله الى تلك البلادالبعيدة ، ومن أشهرهم السمح بن مالك الخولاني الذي بذل نشاطاً واسعاً في جنوب فرنسا وأنفق جهوداً كبيرة في معاركه في غالة (Gaule) وطرسكونة (Tarascon) عاصمةأكيتانيا ••• كما حدثت عدة معارك بين المسلمين وبين دوق اكيتانيا واستشهد كثير منالمسلمين • وكانت سبتمانيه (Septimanie) جنوب شرقي فرنسا هي البلاد التي تلي جبالالبرت أول ما حصلها المد الاسلامي •• وتعني هذه الكلمة المقاطعة ذات المدن السبع ، ومنأشهر هذه المدن أربونة وقرقشونة • وقد أقام السمح حكومة اسلامية فيها ، واتخذ مدينةأربونة عاصمة لها وحصنها حتى تصد غارات من يهاجمها •

وفي أيام الوالي عنبسة وصل الجهاد اليمدينة سانس ، وقد اتجه الوالي في جيوشه شرقي فرنسا ثم شمالها طالباً جوار نهر الرونمائلاً غرباً حتى سانس •

غير أن المد الاسلامي بلغ مداه في عهد الوالي عبدالرحمن الغافقي حيث جدد نشاط الفتح الاسلامي ••• كان عبدالرحمن الغافقيمهتماً باخذ ثار المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا بها في السنين الأخيرة قبل امارته ،وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسة يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها الى ايطاليافالمانيا فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام، ولما كانت الحماسة ابان غليانها فقد اندفعتالجيوش لا يقف أمامها شيء وهي تكتسح الأراضي من (نافار) وهي مملكة في شمالاسبانيا الى بوردو ومنها الى تور •••

كان جيش عبدالرحمن الغافقي كالريح المرسلة أخاف الفرنجة فاتفقت ملوكها ••• ووقعت المعركة المشهورة والتي سميت وقعةالبلاط أو بلاط الشهداء والتيانتهت بانكسار العرب وانسحابهم •• فلحقهم من ثم جيششارل مارتل فالتجؤوا الى (اربونة) التي استطاعت صد الفرنجة لتحصينها

وما تزال هذه المعركة شاغلة أعظم موقعفي أذهان جميع الأوربيين ••• فقد كانت لها نتائج مهمة في أحداثها ونتائجها وتضحياتها••• وليس بعيداً أن هناك معلومات قيّمة دونت عنها وضاعت مع ما ضاع من هذهالمصادر فلم تصلنا الا معلومات من جهة واحدة نرددها دونتقص للواقع والحقيقة التاريخيةالتي يجب أن نبحث عنها فلا نردد : (من أن ما جمل شارل مارتل يتغلب على العرب هيالأسلاب التي أعاقت الجيوش العربية الاسلامية وأثقلت خطوهم وجعلتهم يتقاعسون عنالقتال•••) ومن أول هذه الحقائق أن السبب البارز في هزيمة العرب بعدهم عن عاصمة الأندلس،اذ غدت المسافة بينهم وبينها تزيد على (١٠٠٠) كم ، يضاف الى ذلك قتال جيششارل مارتل في أرضه التي يعرف مواقعها ويألف التحرك فيها ، اضافة الى الجو الشتائيالماطر والأرض الموحلة والتلال الوعرة •

ولقد كان انسحاب الجيش الاسلاميالسريع عملية محمودة لانقاذه بعد أن بانت صعوبة الاستمرار في المعركة وبخاصة بعدمقتل عبدالرحمن الغافقي ••• ويدل على ذلك خدعة المسلمين لجيش شارل مارتل بتركأسلابهمأمام خيامهم وانسحابهمفي جنح الظلام حتى لا يلحقهم جيش الفرنجة • ويدل هذا على مقدرة حربية أنقذت جيش المسلمين ،

كما أنه يدل على ابطال الرواية التي تقول ان الغنائم كانت هدف المسلمين في معركتهم وسبب هزيمتهم في آن واحد ٠

وما كتب عن هذه الوقعة متضارب أشد التضارب حتى ما بين المؤرخين الغربيين أنفسهم ، فقد اعتبرها بعضهم نكبة كبيرة أصابت أوربا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة التي كان من الممكن أن يوقظها تمازج الحضارة العربية مع الحضارة الأوربية قبل (٣٠٠) سنة من بداية عصر النهضة ٠٠٠ وبعضهم يعتبرها الخلاص لأوربا من انتشار الدين الاسلامي فيها ٠

فاذا عدنا لتحليل واقع العرب في فرنسا فاننا نرى التالي :

١ ـ لم يكن مجيء العرب الى فرنسا وتغلغلهم في أحشاء البلاد وفق خطة مرسومة بل كان بدافع فتح البلاد في سبيل الله ٠٠٠ اضافة الى طموح المسلمين في توسيع رقعة البلاد الاسلامية ، والدليل على ذلك توجه الولاة أنفسهم ، وكنت تراهم في مقدمة الجيش يواجهون المهمة بأنفسهم ويتحدون الخطر مستميتين بايمانهم مضحين بأرواحهم ، وفي ذلك يقول المؤرخ رينو : (ان العرب في تغلغلهم في فرنسا لم يكونوا ينوون الاستيلاء على هذه المملكة فقط وادخالها في الاسلام بل كان هدفهم الاستيلاء على كل أوربا واضافة هذه القارة الى سلطنة الاسلام) ٠

ولكن ما حال دون استمرار العرب والمسلمين في الفتح يعود الى عوامل منها الفتن التي قامت بين العرب وبين البربر المسلمين من جهة وبين القيسيين واليمانيين من جهة أخرى ٠

٢ ـ كانت الفترة الأولى من الجهاد في الأرض الكبيرة ترمي الى ادخال سائر أوربة في الاسلام ، وكان يحدو المسلمين الى ذلك نيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة، وقد امتد هذا العهد منذ قدوم موسى بن نصير وحتى زوال حكم الولاة ٠

أما في العهد الأموي في الأندلس فلم تكن البلاد خاضعة للمشرق العربي ، بل كان المشرق على العكس يهادن الفرنجة في الغرب ويبعث اليه الرسائل والهدايا ، كما حدث في عهد الرشيد وشارلمان ٠٠٠ كما أن وضع العرب في الأندلس قد اختلف عما كان عليه في السابق ، فقد كانت هناك عداوة مستمرة ونزاع دائم مع خلفاء بغداد ٠

٣ ـ حصن الولاة بعض المدن (كاربونة) وكان كثير من أهل البلاد مع الولاة من المسلمين ٠٠٠ والسبب في ذلك أن الشعب الذي كان يسكن جنوب فرنسا كان مؤلفاً من أعقاب الرومانيين ومن القوط ، ولم يكونوا يرون في حكام فرنسا كشارل مارتل وابنه ببين القصير وحفيده شارلمان الا غازين كغيرهم ، وليس كما تصورهم بعض التواريخ الغربية مخلصين ، ولهذا استطاعت مدينة اربونة أن تصد شارل مارتل ثم ابنه ببين القصير سبع سنوات ٠٠٠ ولم تسقط المدينة الا عندما ملَّ أبناؤها الحصار ٠ ثم عادت الى العرب وبقي العرب والفرنجة يتعاودونها حتى خرجت من يد العرب نهائياً عام (٨٠٠)م٠

ومما لا شك فيه أنه بعد استرجاع ببين القصير لأربونة هدأت الأحوال بين الفرنسيين والعرب لأن ببين كان يعد جبال(البرانس) هي التخم الطبيعي بين فرنسا واسبانيا ، ولكن عندما جاء شارلمان اجتاز البيرنة على ثقة من أن سكان البلاد الأصليين سيماونونه ، ولكن خاب فأله ، فأما المسلمون فقد قاتلوه قتالاً مريراً عند سرقسطة ، وأما أهالي شمالي اسبانيا فقد أنكروا أن يحكمهم غريب أياً كان وهكذا انقضوا على جيش شارلمان يساعدهم المسلمون ... وكان ذلك أثناء رجوع شارلمان الى فرنسة عندما علم بهجوم الساكسونيين على بلاده .

٤ ـ لم ينحصر الجهد في الميدان العسكري بل شمل الميدان الاصلاحي في كل وجوهه الحياتية ، فنظمت الادارة في البلاد المفتوحة في جنوب فرنسا وتمت الاصلاحات المالية والزراعية والعمرانية وذلك على الرغم من الفترة القصيرة التي أقام بها العرب في فرنسا ... وكان عدد العرب الذين بقوا في فرنسا وتنصروا كبيراً ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة وقد يؤدون الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها .

وفي المقابل فان المسلمين ابان حكمهم في فرنسا تركوا للأهالي حريتهم الدينية وظلت الغالبية منهم على دينهم ، ولكن من المؤكد أن كثيرين أيضاً دخلوا الاسلام ، وكان كثير من الأسرى والرهائن يتعلمون العربية ولا سيما التجار والحجاج الذين يزورون الديار المقدسة .

ولا شك أن المسلمين والعرب كان لهم تأثيرهم في طرق الزراعة التي اشتغلوا بها ، فحفروا الأقنية ونسقوا من تحتها الجنائن وزرعوا الأشجار ولا يزال في (البروفانس) غابة يقال لها غابة المغاربة .

كذلك أثروا في الصناعة فعلموا أهل البلاد استخراج القطران من أشجار الصنوبر والأرز لشد أواصر أخشاب المراكب ، ولهذا يسمي أهالي هذه المنطقة القطران باسمه العربي ذاته .

ولا مراء أنه دخل الفرنسية كلمات كثيرة عربية من خلال العلاقات التجارية ، وعلى الرغم من أن التأثير العربي في فرنسا ليس كبيراً ولكن ينسب العامة الى لفظة (سارازين) التي تعني العرب كل ما يرونه كبيراً وجليلاً ... وقصص بطولات الفرنجة مع العرب خلدت العرب وأبطالهم كما خلدت أبطال الفرنجة ونبلاءهم حتى صار في تاريخ كل مدينة من مدن الجنوب أمير عربي أو بطل عربي يبارز أميراً أو بطلا فرنسياً ، وبعد أن يشتد البراز والقتال بينهما ويطول العراك ويحتدم ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ، ينتهي بالبداهة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي ، وحتى قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان تذكر أنه اقتبس في صغره من علم العرب وثقافتهم .

□ العرب في سواحل فرنسا وشمالي ايطاليا وجبـال سويسـرا :

اذا قلبنا التواريخ العربية فاننا لا نجد ذكراً لوقائع العرب في هذه البلاد ، ولكنها وردت في تواريخ غربية واتخذت وجهة النظر الغربية ومن بـين الكتب هـذه :

ـ كتاب (غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر) تأليف د. فردينانديكلر. وقد كتب بالألمانية ونقله الى العربية الأديب شكيب أرسلان .

ـ كتاب : (غارات العرب في فرنسة ، ومن فرنسة على سافواي و بييمونت وسويسرا) تأليف المؤرخ المستشرق (رينـو) ترجمة :شكيب أرسلان .

جاء في هذين التاريخين ما يلي : في عام ٨٨٩ كان والي (البروفنس) رجلاً يقال له بوزون ، وكـان قاسياً ثقلت امارتـه على الناس مما جعلهم مساعدين للغزاة العرب في تلك الديار .

بدأت تلك الغزوات بعشرين ملاحـاً ركبوا مركباً خفيفاً من سواحل اسبانيا قاصدين (البروفانس) فأخذتهم الريح وألقت بهم في خليج فريمو أو (سان تروبيز) ، وصعدوا البر ولم يبصرهم أحـد . وكان حول هـذا الخليج أجمة لا يجرؤ انسان أن يدخل فيها ، وشمال الخليج كانت سلسلة جبـال بعضها أعلى مـن بعض ، فاذا وصـل الانسان الى قمتها أشرف على قسم من بروفنس السفلى .

وعندما توصل هؤلاء العرب الى الصعود الـى القمـم ، عرفـوا ملاءمـة المكـان لاستقرارهم فيه بصورة دائمة . فالبحر لتلقي الامـدادات والبر هو المنفـذ الى ما يريدون الذهاب اليه من النواحي ، والغابة هي المعقل والملجأ عند الاضطرار . حينئذ أرسل هؤلاء الى اسبانيا وافريقيا يستمدون من اخوانهم الانضمام اليهم وبدؤوا العمـل في مكانهم ، فما مضت سنوات حتى امتلأت تلك الأرض بالحصون والمعاقل وكان أهم تلك الحصـون المسمى (فركسينا توم أو فركسينت) .

ولقـد اختلف المؤرخون الأوربيون : الطليان والفرنسيون في موقع فركسينا توم . فالفرنسيون يجعلون فركسيناتوم في خليـج سان تروبيز بين فرنسا وايطاليا والى جانبه جبل يقال له جبل (المورو) تلك اللفظة التي كانت تطلـق على المسلمين . أما الطليـان فيجعلونـه (فركسينا توم) بقـرب (ارل) و(أنتيب) التي هي محرفة عـن (عين الطيب) كما سماها العرب ، ومنها امتدوا الى نيسه (نيس) والى سان ريمو . ويقول المؤرخون الطليـان : ان مجيء العرب المسلمـين كان سنة ٨٩١ ، ثم يتممون بقيـة القصة .

وانتشـر المسلمون في الساقواي والدوفيني وفاليـزيا وليفورية وجنـوة . وقـد استعان الحكام الطليان بالعرب على أعدائهم . والغريب كما أسلفت أن جميـع المؤرخـين الغربيين والشرقيين تحدثوا عن نزول العرب في تلك الأصقاع الا مؤرخي العرب أنفسهم ، فلا يوجد في العربية شيء اللهم الا ما جاء في المسالك والممالك لابن حوقـل الذي يتحدث

(عن جبل نجا اليه المسلمون فعمروه وصاروا في وجوه الفرنجة قوماً لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم) ثم يسمي ذلك المكان بجبل(القلال) ٠

وقد ورد اسم جبل القلال في معجم البلاد لياقوت الحموي وذلك في أثناء كلامه على (أنكبرنه) قال : بلاد واسعة من بلاد الأفرنج بين القسطنطينية والأندلس (ثم يصف ايطاليا) وبعدها يذكر جبل القلال ٠٠٠

ـ ويسمي المعاصرون هذا المعقل الذي يقع في آخر خليج غريمو (أوسان تروبيز) فركسينا توم وتسمى القرية المبنية على سفح الجبل والغابة التي تحيط بالجبل غابة (المواري) أو (المورو) ٠

وتروي أحداث التاريخ التي كتبها الغربيون أن هؤلاء الذين نزلوا في ذلك المكان ساعدتهم الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد فقطعوا جبال الألب وانتشروا في السفواي وشمالي ايطاليا وسويسرا ٠

ونجد أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذه البلاد في التواريخ الفارسية وقد جاء في بعض التواريخ : (كان جبلاً خراباً ، سكن فيه أناس وآووا الى هذا الجبل في جهادهم ضد الفرنج ، ولولا هذا الجبل لكان على الاسلام خطر عظيم ، وسبب الحاق هذا الجبل ببلاد الأندلس أنه كان تحت حماية خلفاء قرطبة ٠ وكان هؤلاء يحمون المستعمرة العربية في فركسيناتوم ٠ ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم ، وصادف ذلك أن الحروب الداخلية بين حكام تلك البلاد كانت حامية الوطيس فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم لنفسها ، فقويت شوكتهم ونمت واستولى الرعب على قلوب الجميع من أمرهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ٠٠ » وكان العرب يتقدمون في جبال الألب تملقاً وتسلقاً حتى وقفوا في أعلاها ٠٠ واستطاع العرب بحكم استيلائهم على بعض القمم ومضايق جبال الألب أن يقطعوا المواصلات بين ايطاليا وفرنسا وكانوا يأخذون على المسافرين رسماً معلوما ٠٠٠

ويقول المؤرخ (ليوتبراند) الذي عاش في الثلث الأول من القرن العاشر : (ان العرب أغاروا على مدينة آلي احدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المعدنية ، وان بعض العرب دخلوا مدينة جنوة ٠

وقد أعلن الكونت هوغ ملك البروفانس عزمه على طرد العرب من تلك الأطراف ، ولما كان أهم معقل لهم هو حصن فراسينت الذي كانت تنطلق منه غاراتهم الى داخل البلاد ، ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية فقد أرسل اليه يطلب منه انجاده بأسطوله وكان يملك نفاطات اغريقية تحرق المراكب بمجرد اصابتها ٠ وزحف هوغ سنة ٩٤٢ على الحصن من البر وجاء الأسطول من البحر فالتجأ العرب الى الجبال ٠٠٠ وفي هذه الأثناء جاء الخبر الى هوغ بأن منافساله يهاجم مملكته ، فأسرع هوغ لمهادنة العرب شرط أن يقطعوا معبر سان برنار وسائر معابر الألب على عدوه ٠

وبعد هذه الواقعة ازدادت جرأة العرب واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون فيها أبداً وأخذوا يتزوجون من الأهالي ويحرثون ويزرعون كسائر الفلاحين، وكان الأمراء يكتفون بأن يأخذوا منهم أتاوة خفيفة ، وكانت جماعة قد توطنت مدينة نيس وغرونوبل وغدوا كأهلها • أما الذين كانوا في أعالي الجبال فقد كانوا يأخذون من المارين أتاوات فادحة •••

وقد ثبت أن العرب أقاموا طويلاً في السافواي وكانت تسمى (موربين) ويوجد هناك أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك كوادي (السرازين) •• وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرا بلا معارض كأنهم في ديارهم حتى قال أحد المؤرخين: انهم صاروا أشبه بالمعزى لخفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال ، وقد بنوا أبراجاً في أماكن متعددة ما تزال آثارها موجودة •

وفي سنة ٩٥٢ كان المجر قد اكتسحوا الألزاس وصارت جميع بلاد الجورة تحت خطر احتلالهم، ففكر أمير بوغونيه وسويسرا والدوفيني في تدبير حيلة للتخلص من العرب والمجر معاً ، فأوهم كلاً منهم بأنه يريد أن يتعاون معه ليقضي على الآخر الطامع فيما بيده ، وهكذا التحم الفريقان ، العربي والمجري وبقي جيش الأمير واقفاً ، وعندما تعب الجميع هجم الأمير بجيشه •

وبعد أن كسر المجر وذهب العرب منها بقيت البروفانس والدوفيني في أيديهم ، وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرونويل • ثم كانت معارك مع العرب في كل مكان ، وحصلت معركة عند مكان يقال له (تورتور) فانهزم المسلمون وقتل من قتل وأخذ من وقع أسيراً أما من استسلم فقد عفي عنه واستخدم في الزراعة • وقد بقي للعرب بقايا معروفة مدة طويلة في تلك البلاد •

ثم سقط حصن فركسينت سنة ٩٧٥ بعد ثمانين سنة واستولى الكونت غليوم على أراضيهم وقسمها بين الأهالي والأمراء •

ويقول بعض المؤرخين ان بقاء المسلمين العرب ظل في جبال الألب في ايطاليا وسويسرا مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ ، غير أن شوكتهم كانت قد زالت •• ويقال ان بعضهم اندمج مع أهل البلاد وأصبح جزءاً منهم •

والسؤال الذي يرد الآن هو : كيف يكتب هذا التاريخ ؟ من المؤكد أن آثاراً قد بقيت في هذه البلاد التي احتلها العرب مدة طويلة أو قصيرة ، كما سرت عنهم أخبار •• وأنت ترى في تلك البلاد قلعة كانوا يتحصنون بها عندما كانوا يجتاحون الأرض ، أو مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يجتازون النهر من عليها ويأخذون عندها رسماً على المارين، وعلى الجبال ترى أبراجاً متناوحة كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ••• ولا شك أن استقرار العرب في بروفنس ودوفيني وبييمونت وسفواي وسويسرا لم يكن الا في بعض المعاقل الحصينة وفي ضواحيها ، فلم يستولوا على بلاد بأسرها ••• غير أن عدداً كبيراً من المسلمين بقوا في تلك البلاد ، ويذكر شكيب أرسلان

(أن في سويسرا عائلات ملقبة بالسرازين ،في جينيف وفي بازل، وهناك علماء سويسريون من أصل عربي كابن أبي زيد ، وقد كانت عائلته في طولوز وقد تنصرت على المذهب البروتستانتي ، ولما أخرج البروتستانت من فرنسا ذهب الى جنيف، ويسميه السويسرون ـ أبو زيت ـ وقد نبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة ، وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوتن وصديقاً لهم ، وكانت له عندهم منزلة ، وفي جنيف شارع باسم شارع (ابن زيد) ويضيف شكيب أرسلان عبارة ينقلها عن الأب سيراس من رهبان دير (جورا) : (ومما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذلك الا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق وساروا فيها) ·

□ العرب في ايطاليا وصقلية وفي جزر البحر المتوسط :

تعود العرب بعد الاسلام بعد أن فتحوا سورية ومصر وافريقيا على استعمال الأساطيل البحرية··· وكان كثير من العرب يغزون في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب · ويقال : ان ابن عمر بن الخطاب كان واحداً من الغزاة المجاهدين في الأسطول الاسلامي الذي يغزو القسطنطينية،وعندما سأل أمير البحر عن ذنوب المجاهدين أجابه هذا : والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطىء ·

وعندما فتح العرب اسبانيا شعروا بأن لا بد لهم من صناعة سفن خاصة بهم ، فأنشأوا هذه الصناعة في تونس أولاً ثم نقلوها الى اسبانيا · وكان في الأندلس قائد للبحر اسمه (أمير الماء) ويظن أن لفظة (أميرال) محرفة عنها ·

جاء في فتوح البلدان للبلاذري : (وجه معاوية بن أبي سفيان غزواته الى صقلية فاستطاعت جيوشه أن تغنم منها الشيء الكثير،ثم فتح رودوس وأنزل بها قوماً من المسلمين، وكانت رودوس من أخصب الجزائر ، وأقام المسلمون سبع سنين في حصن اتخذ لهم ، ثم في عهد خلافة الوليد افتتح بعضها ، أما في عهد المأمون فقد تم افتتاحها جميعها) · ولقد فتحت صقلية بتمامها سنة ٢١٣ هـ على يد قاضي القيروان ودام ملك العرب فيها الى سنة ٤٦٤ هـ ، وبقي فيها الاسلام مدة مديدة بعد زوال ملكهم ··

تقول زيغريد هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب : (قدم العرب الى صقلية من تونس من المنطقة التي حول القيروان ، وحولوا خرائب صقلية الى حدائق غناء وزرعوا النخيل وأنواع الفواكه وحولوا الجزيرة الفقيرة الى بلد يزخر بالخيرات وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تعج بالشعراء والمغنين والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة ويحصيها ابن حوقل في بالرمو العاصمة ما بين (٣٠٠) مسجد وقصر · واستعمل العرب في صقلية الورق الأبيض في كتاباتهم ونظموا الشعر الرقيق الذي لم يعرفه الرومان والجرمان ،وصارت الجزيرة وطناً لمن يسكن فيها ، وبكاها من غادرها ·· وبعد زوال السلطان السياسي للعرب بقي لهم فيها سلطانهم المعنوي من خلال علومهم وفن بنائهم وأدبهم·

ولقد بنى أهل صقلية قصورهم وحدائقهم على الطراز العربي واستعانوا بمن بقي من العرب ، سواء دخل النصرانية أم لا · وأخلص العرب في خدمة روجر ملك صقلية المتسامح الذي آمن بالثقافة العربية وبحضارة العرب ، فكان أغنى ملك على أصغر مملكة ، واستطاع معها أن يضم امارات يترك لحكامها المحليين أمر التصرف فيها ، فكان ملك صقلية وايطاليا وشمالي افريقيا · ومن أجله كتب الادريسي كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ورسم له سبعين خريطة تفوق خرائط بطليموس ، كما رسم خريطة للعالم نحتها على لوح من الفضة) ·

أما بالنسبة لايطاليا فقد جاء عن المؤرخ رينو ومن مجموعة مؤرخين فرنسيين وعن تاريخ كوندى: (كان العرب قد استولوا على صقلية ، وكان اثنان من أمراء ايطاليا يتنازعان على الحكم في المنطقة قرب نابولي، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية فدخل المسلمون الى أراضي (الأرض الكبيرة) ، وفي سنة ٨٤٦ م جاء غزاة العرب الى روما وصعدوا في نهر التيبر وغزوا أيضاً جنوة فنفر الأهالي وقاتلوهم) ·

وفي مجموعة الدون بوكه : (وفي سنة ٨٤٨ م غزا المسلمون مرسيليا وجميع الساحل الى جنوة ، وما زال زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة يتقدم متجها الى الشمال من الساحل حتى اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح) · ولبث المسلمون في تلك البلاد زمانا طويلا الى أيام فردريك الثاني امبراطور المانيا ، وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر ، وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين ، وكان يعرف العربية معرفة تامة) ·

ويقول المؤرخ ليوتبراند الذي عاش في الثلث الأول من القرن العاشر : ان العرب اغاروا على عدة مدن واستولوا عليها في بلاد ايطاليا منها كربو وبارة وتارنت كما قرعوا أبواب روما وغزوا جنوة ثم غزوا مرسيليا ·

وفي عهد عبدالرحمن الداخل نشطت صناعة السفن في المراسي وكانت جزر الباليار (أي ميورقة ومينورقة واليابسة وجزيرتا سردينية وكورسيكا) عرضة لغزوات المسلمين بحيث أن أهالي تلك البلاد وضموا أنفسهم تحت حماية شارلمان ·· ثم اكتسح المسلمون كورسيكا ، وكان ببين ملكا على ايطاليا ،فأرسل أسطولا لمطاردتهم فانسحبوا الى الوراء · وفي سنة ٨٠٨ جاء بعض الغزاة المسلمين ونزلوا سردينية ، ولكن المسلمين خسروا ثلاثة عشر مركباً ، وانهزموا) ·ويبدو أن عبدالرحمن الأول كان مائلاً الى مداراة شارلمان الذي أقام علاقات ود مع الدولة العباسية ·· فدعاه الى المصاهرة والسلم فأجابه شارلمان الى السلم ولم تتم المصاهرة ·· غير أن الغزوات البحرية للجزر والسواحل بقيت مستمرة ·

كذلك استولى العرب المسلمون على جزيرة كريت وكان العرب يسمونها (اقريطش) ويقال ان جماعة ممن كانوا يسكنون حوالي قرطبة ثاروا على حكم أميرهم فاستطاع أن يتغلب عليهم ، فهاجر قسم منهم الى طليطلة، أما الباقون فقد جاز بعضهم البحر الى المغرب وكان عددهم نحواً من ثمانية آلاف ،فتقبلهم (ادريس بن ادريس) في فاس ، فكان

مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس ، وسار بنهم نحو خمسة عشر الفا الى الاسكندرية ودخلوها ، ولكن عامل المأمون صانعهم على أن يذهبوا الى احدى جزر بحر اليونان فاختاروا اقريطش (كريت) وكان المعمور منها قليلا ، فنزلوا بها ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين • وكانت كريت تابعة للقسطنطينية ، ولكن العرب استولوا عليها وأسسوا دولة (كريت) التي دامت أكثر من مائة سنة من سنة (٨٢٨) الى (٩٦١) وقد أسسها عمرو بن شعيب ،وتداول ملكها أولاده من بعده الى أن استولى عليها البيزنطيون ثانية ، فصارت تحت حكمهم ولكن بقي فيها الكثير من العرب المسلمين •

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل : انه كان للمسلمين في بحر الروم أكثر من جزيرة مثل قبرس واقريطش (قبرص وكريت) اللتين كانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، غير أن هاتين الجزيرتين كانتا مختلفتين ، فأما قبرص فقد كانت قسمين : قسم للنصارى وقسم للاسلام ••• وأما كريت فقد حكمها المسلمون كلها •

وبعد فان العرب في فرنسا وايطاليا وجزر البحر المتوسط كانوا ككل من يدخل الى أرض ماغازيا ، يخرب ويغنم •• ولكنهم كما يقول غوستاف لوبون : (لما تكررت غزواتهم وأصابهم فيها من النجاح والتوفيق ما أصابهم رأوا أن يستقروا فيها وأن يحسنوا سياسة أهلها • ولما رسخت أقدامهم فيها كفوا عن عادة نهبها وأنعموا عليهم بنعم الحضارة ، وكان لهم فيها ما لهم في اسبانيا من الأثر النافع البالغ) •

ولا شك أن تأثير العرب كان عظيما في المجالين العلمي والأدبي ، ولقد دخلت العلوم الى أوربا عن طريق اسبانيا وصقلية وايطاليا بدءاً من القرن الحادي عشر والثاني عشر •

وظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة ، وبلغ تأثير العرب في جامعات أوربة من الاتساع ما شمل معه بعض المعارف التي يحققون فيها تقدماً مهماً كالفلسفة مثلا ، وكان للعرب شأن في جامعات ايطاليا وبخاصة جامعة بادوا، حتى قال الشاعر الكبير بترارك : يا عجبا استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين واستطاع فرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب ، لقد تساوينا نحن والأفارقة وجميع الشعوب غالبا وسبقناها أحيانا خلا العرب ، فيا للحماقة ويا للضلال •

أما المستشرقة زيغريد هونكه فهي ترى أن الحروب الغربية مع العرب والمسلمين كانت سببا في دفع الحضارة الانسانية قدما الى الأمام ونسمعها تقول (لئن كان التقارب بين الشرق والغرب في فترات متباعدة قد أدى الى نقل الحضارة العربية الى ربوعها لتبدأ حضارة الغرب فان التنازع الدائم بينهما قد مثل هو الآخر دوره في شحذ الهمم وخلق الحضارة الغربية واسباغ الخير على أوربة والبشر جميعا) •

وهكذا ، ومن بعد الحروب يجب أن يبدأ العالم في كتابة التاريخ ، تاريخ الحضارات وتمازج الشعوب في السلم •••

مصادر الدراسة

١ ــ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب — للمقري

٢ ــ المسالك والممالك — لابن حوقل

٣ ــ حضارة العرب — غوستاف لوبون / ترجمة: عادل زعيتر

٤ ــ شمس العرب تسطع على الغرب — المستشرقة : زغريد هونكه، ترجمة : فاروق بيضون، وكال وسوفي

٥ ــ التاريخ الأندلسي ــ من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة — د. عبدالرحمن علي الحجي

٦ ــ غزوات العرب لأوربة — شكيب أرسلان

٧ ــ غارات العرب على أوربة في فرنسا والسافوا وبيمونت وسويسرا — جوزيف رينو / ترجمة: شكيب أرسلان

٨ ــ غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر — فرديناند كلر / ترجمة: شكيبأرسلان

٩ ــ مقدمة (أنثولوجيا في الشعر الأندلسي) ليفيل خوسية هاجرتي ــ الشهير بارنيال شريش — بقلم : البيازين

١٠ ــ مقدمة مختارات من الشعر الاسباني من منشورات المعهد الاسباني العربي للثقافة في مدريد — بقلم : خيسيوس ريو ساليدو، ترجمة : محمد عبدالحميد عيسى

* * *

الصّيدلاني الأندلسي
أبو العبّاس النّباتي (ابن الروميّة)

فاضل السّباعي

ازدهر علم النبات والاعشاب في الأندلس ، ابتداءً من القرن الرابع الهجري ، (العاشر الميلادي) ، وشاع التداوي بالحشائش والاعشاب على أيدي علماءٍ أندلسيين ، لعل من أبرزهم تلك الطليعة المؤلفة من سبعة من الاطباء والصيادلة والعشابين ، الذين كانوا في قرطبة على عهد الخليفة الأموي القوي عبدالرحمن الناصر ؛ وقد صحب هؤلاء العلماء الراهب نقولا ، الذي وصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١م) ، موفداً من قبل صاحب القسطنطينية ، ليساعدهم في شرح وتفسير كتاب العشّاب الإغريقي الأشهر ديسقوريدس ، الذي كان الامبراطور قد قدّمه هدية الى الخليفة الأندلسي تقرباً مع هدايا اخرى ، وكان الراهب نقولا يتقن اللغة الإغريقية - التي لم يكن في قرطبة من يتقنها - فضلاً عن لغته اللاتينية .

والذي كان من أعضاء هذه اللجنة السباعية ، أنهم فهموا فهماً جيداً مضمون كتاب ديسقوريدس المسمى « **المادة الطبية** Materia medica » (المؤلّف في القرن الأول الميلادي)، ولكنهم **لم يحاولوا نقله الى العربية** (وكان قد تمّ نقله قبل ذلك ببغداد نقلاً غير دقيق) ، **لأنهم تجاوزوا هذه المرحلة** الى ما هو أبعد :

- فقد **أسقط** العلماء الأندلسيون ، في دراستهم لهذا الكتاب ، **النباتات التي ليس لها وجود في الأندلس** ،
- ثم انهم أخذوا **يتعرفون** النباتات الأندلسية **التي ليس لها في الكتاب ذكر** ،
- كما أنه ظهر في الأندلس ، في ذلك الحين ثم في الأجيال التالية ، كثير من العلماء الذين **عكفوا على تاليف الكتب والموسوعات في الحشائش والاعشاب** ، منهم : ابن جُلجل ،

وابن وافد، وامية بن أبي الصلت، والغافقي، والادريسي ، وأبو العباس النباتي ، وضياء الدين بن البيطار... وغيرهم ، وذلك كله اضافة الى ما كان عليه « الأطباء » الأندلسيون عامة من عناية بالمداواة بالأعشاب، كالطبيب الجراح أبي القاسم الزهراوي ، واطباء أسرة زهر ونخص منهم : عبدالملك ـ الجَد ، وزُهر ـ الأب ، وعبدالملك ـ الابن (صاحب كتاب التيسير في المداواة والتدبير).. وغيرهم كثير كثير .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان **أبا العباس النباتي** ، المولود في اشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) ، **كان واحداً من أعظم العشّابين الأندلسيين** . الا أن ما يتميز به هذا الصيدلاني المشّاب عن نظرائه ، أنه كان ـ الى علمه بالأعشاب ـ **«حافظاً»** من المعنيين بالحديث النبوي الشريف، رواية وتصنيفاً . واذا كان جهده العلمي قد مكّنه من أن يؤلف خمسة كتب في الحشائش والنبات ، فان دينه وتقواه قد جعلاه يصنّف عدداً يفوق ذلك من كتب الحديث . بيد أنه من المؤسف أن مؤلفات هذا العالم الكبير **قد ضاعت كلها** ـ في ما نعلم حتى اليوم ـ فلم يصل الينا منها كتاب واحد !

وفي تقديرنا **لأبي العباس النباتي** ـ الذي تكنيه بعض المصادر التاريخية بـ « **ابن الرومية** » ، كنية « كان يكرهها ويقلق لها » كما ذكر المؤرخ ابن عبدالملك المراكشي(١) ـ نؤكد أنه كان **يتمتع بمزيتين علميتين** لم تجتمعا معاً ، وبهذا القدر من الوضوح ، عند غيره من العشّابين أو الأطباء، في الأندلس أو في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية .

أولى هاتين المزيتين أنه كان **عالماً طُلَعَة** ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. فهو يعشق المعرفة، ويتحرّى أسبابها ، ويجري وراءها ، وهو لذلك لم يلتزم القعود في مدينته اشبيلية ، بل قام **يطوف في ارجاء الأندلس**، من سهل وجبل وبادية وساحل... وقد أتى لسان الدين بن الخطيب على ذكره في كتابه « الإحاطة .. » ، قال : انه دخل غرناطة « غير ما مرة ، لسماع الحديث وتحقيق النبات ، ونقّر [أي : بحث وفتّش] عن عيون النبات بجبالها » ؛ وقال في حقه أيضاً : انه كان « نسيجَ وحده... وعجيبةَ نوع الانسان في عصره وما قبله وما بعده ، في معرفة (النباتات...) على اختلاف أطوار منابتها ، حساً ومشاهدة وتحقيقاً ... قام على الصنعتين، لوجود القدر المشترك بينهما، وهما : الحديث والنبات ، اذ موادهما الرحلة ، والتقييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ... »(٢) .

على أن مطامح أبي العباس العلمية ما كانت لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس ، بل **استنهضت همته للقيام برحلة هي ـ في ظننا ـ أطول ما انجزه نباتيّ عشّاب في تاريخ حضارتنا** . واذا كان تلميذه الأندلسي ، ضياء الدين بن البيطار المالقي ، قد سافر ـ **كما يحدثنا معاصره مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة** ـ « الى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم ، ولقي جماعة يعانون هذا الفن ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير ، وعاينه في مواضعه »(٣) ، وذلك قبل أن يستقر في القاهرة ثم يلقى وجه ربّه في دمشق ، بعد أن صنف أكبر موسوعة عربية في بابها « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ...

أقول : اذا كان ابن البيطار قد فعل ذلك ، فان الرحلة العظمى التي حققها أبو العباس كانت أطول من ذلك مسافة ، ولا تقل في مضمارها خطراً !

فقد غادر النباتي أبو العباس الحافظ، اشبيلية سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، مجتازاً البحر الى العدوة المغربية . ومن هناك أخذ يتنقل بين **مدن شمال افريقية** وسواحلها وسهولها وفيافيها ، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية ، مستمعاً الى ما يخبرونه به من معلومات عندهم عن النباتات التي يعهدونها في مناطقهم وينتفعون بها في غذاء ودواء ، حتى نزل **الاسكندرية فالقاهرة ،وسار على ضفاف النيل** ... وهو ، في ذلك كله ، يبحث عن النباتات والأعشاب ويتحقق من منافعها . والطريف أنه اعتذر ، شاكراً ، تكريماً بذله له صاحب مصر والشام « الملك العادل » بأن يقيم عنده ويكون طبيباً ورئيساً !

وبعد مصر ، زار أبو العباس **الديار المقدسة** فأدى الفريضة ، ثم توجه الى **الشام والعراق** ، وامعن في رحلته شرقاً وشمالا حتى اقليم **خراسان** (يقع اليوم في أفغانستان) ، ومضى فيه حتى مدينة « **مرو** » (تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفييتية) ، وكانت مرو ، آنذاك ، حاضرة غنية برجالها وعلمائها وفقهائها ، وكانت مكتباتها العامة والخاصة تزخر بالكتب والمخطوطات ، كما يحدثنا باستفاضة ياقوت الحموي ، الذي جمع من تلك الخزائن معظم موضوعات كتابه « معجم البلدان »(٤) .

ولقد مر أبو العباس بمدينة « **حران** » (تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم) ، في رحلته العلمية هذه ، التي استغرقت عامين وبعض العام ، وتمخضت عن **تأليفه كتابه الفريد « الرحلة النباتية » !**

وأما **المزية الأخرى** ، التي تمتع بها أبو العباس النباتي وفاق فيها نظراءه من المشائين ، فانها تتجلى في **حرصه على تحليه النباتات** (أي وصفها وصفاً علمياً) ، **وفي دقته في هذا الوصف** ... وقد تستنفده التحلية للنبتة الواحدة حتى يكاد لا يُبقي زيادة لمستزيد !

لنستمع اليه وهو يصف النبتة المسماة « **كف مريم** » ، يقول :

« نبتة منبسطة على الأرض ، رجلية الورق الى الاستدارة ما هي، صلبة الأغصان، في ورقها جمودة ويسير قبض ، مزغبة ما هي، شديدة الخضرة ، تتكون على الأرض في استدارة على قدر الشبر ، تخرج ، فيما بين تضاعيف الورق على الأغصان ، زهرة دقيقة الى الصفرة ما هي ، على شكل زهر الرجلة ثم يسقط ، فيخلفه بزر أصغر من الحلبة صلب يسقط ، وتورق ، وتنقبض الأغصان، وترتفع على الأرض حتى ترجع على الشكل الذي يتعارفه الناس على حسب ما تُجلب اليهم ... » .

ويذكر **المواضع** التي وقع فيها على هذه النبتة : « وقد رأيتها بصحراء مصر ... وأيضاً بالمغرب، بصحراء سجلماسة ونهرها. ورأيت [منها...] نوعاً بجبال بيت المقدس،

صغيراً ، أبيض اللون ، دقيق العيدان ،مدحرج الخلقة ، دقيق البزر ، وهذا النوع موجود أيضاً بطريق عسقلان في الصحارى »·

ولا يفوته أن يعلن **بثقة العارف** : « وقلّ من يعرف [هذه النبتة] على الصفة التي وصفت » ! ويضيف **باعتداد مقرون بالتواضع** : « ولم يحلّها أيضاً أحد قبلي ، فيما علمت »(٥) ·

والتعريف العلمي المعاصر لهذه النبتة، كما ورد في « معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية » ، أنها « كف مريم » ، أو « كف عائشة » ، أو « شجرة الكف » Rose de Jerico, St. Mary's Plower : نبات صغير سنوي بري من الصليبيات ، ينبت في أنحاء فلسطين والغور وسيناء وغيرها :ومتى تمّ نموّه وجفّ ، تقتلعه الريح وتذهب به ، حتى اذا صادف مكاناً رطباً عاد الى النمو ·

وبدا أن شجر « **الخيار شَنبَر** » ، واسمه العلمي Cassia fistula ، قد استرعى انتباه أبي العباس النباتي منذ نزل ثغر الاسكندرية ، ثم ما عتم أن رآه في القاهرة ··· فقال في كتابه « الرحلة النباتية » : « هو شجر معروف ، وثمره مألوف بمصر واسكندرية وما والاهما ، ومنهما يحمل الى الشام · وهو أيضا بالبصرة كثير ، ومنها يحمل الى المشرق » ·

ثم وصفه وصفا يجمع بين الدقة العلمية والوصف الشاعري ··· قال :

« شجرة كقدْر شجر الجوز ، وورقه كورقه ، الا أنه أصغر منه قليلاً ، وأطرافه حادة ، وهو أصلب من ورق الجوز ، وفيه شبه من ورق الشاهبلوط ·

« ويزهر زهراً عجيباً ، لم ترَ عيني مثله جمالاً وحسناً في خلقته، وذلك أنه يَخرج من بين تضاعيف الورق ، في شهر سبتمبر[ايلول] ، وهو في عُرجون طوله نحو ذراع، يخرج من جهاته الأربع عروق في طول الأصبع، وتنفتح أطرافها عن زهر ياسميني الشكل في قدر خمس ورقات في كل زهرة في نهاية الصفرة ، فيأتي شكل العُرجون ، وهو متدلٍ بين تضاعيف الأغصان ، كأنها ثريا مسروجة ·

« وهذا الزهر ، اذا آن أن يخرج الثمر ، يستحيل لونه الى البياض ، ويذوي ، ويسقط ، وتبرز أنابيب القضيب الشنبرية على الشكل المعروف ، منها الطويل ومنها القصير ، عناقيد كعناقيد الخرنوب ، تتدلى كأنها العِصيّ ، شديدة الخضرة ، ثم تسودّ اذا انتهت »(٦) ·

وبدا ، أيضاً ، أن وصفه للنبات كان يستغرقه أحياناً : الا أنه يشير ، غالباً ، الى ما فيها من **منافع للأبدان** ··· فبعد تحليته للنبتة التي سماها « **الليقيئة** » **أو** « **الليفيئة** » **(بالفاء)** ، تلك التي رآها بصعيد مصر ، وفي الحجاز حيث يسمونها « الملقم » ، وفي أرض الغور بفلسطين ، وببطن مرو في خراسان ، يقول : ان جِراء هذه النبتة ،

التي هي على شكل جِراء « قثّاء الحمار »الا أنها أكبر ··· ان في داخل هذه الجِراء ثمراً دُلاَّعيّ الشكل ، « وهو عندهم نافع لحيات البطن »(٧) ·

* * *

ان أبا العباس النباتي ، العالم المسكون بهاجس المعرفة وما يُمليه ذلك عليه من الحرص على التتبُّع والتحري والاستقصاء، قد حدَّثتنا عنه المصادر التاريخية المعاصرة له واللاحقة على مدى أربعة قرون ، بأن ترجمت لحياته وعرَّفتنا بشخصه بنبذ صغيرة كان المؤرخون يتناقلونها ويتداولونها، موجزين أو متزيِّدين ·

والمصادر التي ألمّت بترجمة أبي العباس هي ، حسب تسلسلها الزمني :

١ ـ « **التكملة لكتاب الصلة** » لابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) ،
٢ ـ « **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** » لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) ،
٣ ـ «**القدح المعلّى في التاريخ المحلّى**»، وبالأحرى « اختصاره »، لابن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) ·
٤ ـ « **الذيل والتكملة الكتابي الموصول والصلة** » لابن عبدالملك الأنصاري المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) ·
٥ ـ « **تذكرة الحفّاظ** » للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ،
٦ ـ « **الاحاطة في أخبار غرناطة** » للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ،
٧ ـ « **الديباج المذهَّب في معرفة أعيان المذهب** » لابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ) ،
٨ ـ « **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** » للمقري (ت ١٠٤١ هـ) ·

وقد بدا أن واحداً من هؤلاء المؤرخين القدامى لم يتوقف عند صاحبنا أبي العباس ليكتب عن علمه الغزير ! ولكن لاح ، أيضاً ، أنه لم يخطر لواحدٍ من أبناء القرن العشرين أن يفعل ذلك ، وفي تراثنا الكبير مئات العلماء ، بل الألوف ، الثاوون في بطون المخطوطات ، هذه التي تشملها عتمات الخزائن العربية والعالمية ··· فكيف يمكن أن يُدرس علم هذا الرجل ، وقد امتدت يد الانسان والكوارث والزمن الى مؤلفاته الخمسة عشر ، فلم يصل الينا منها ـ في علمي حتى الساعة ـ مؤلف واحد ؟ وهل تقوم دراسة ، حول علم عالم ، وعلمه غائب أو مغيَّب ؟

ضاعت مؤلفات أبي العباس النباتي كلها، ما تعلّق بعلم الحديث وكذلك تلك **التي صنفها في النبات** ، وعددها ـ كما أحصيتها في المصادر ـ خمسة ، هي :

١ ـ « **تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس** » ،
٢ ـ « **شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس** » ،
٣ ـ **مقالة في** « **تركيب الأدوية** » ،
٤ ـ « **التنبيه على أغلاط الغافقي في أدويته** » ،
٥ ـ « **الرحلة النباتية** » ·

أجـل ، ضاعت مؤلفاته كلهـا . ولكن المصنفين في أمتنا جروا على أن يأخذوا العلم والمعرفة بعضهم عـن بعض ، بأن يستخرج أحدهم من كتب السابقين نصوصاً يستشهـد بها في كتابه دعماً لرأيه أو استيفاءً للموضوع .

والـذي فعله **العشّاب الأندلسي ابن البيطـار** ـ معاصرُ أبي العباس وتلميذه ـ انه ، استجابة لطلب صاحب مصـر « الملك الصالـح أيوب » ، قـد انصرف الى اعـداد موسوعة جاءت في أربعة أجزاء هي « **الجامع لمفردات الأدويـة والأغـذية** » ، جمع فيها ، باحاطة استثنائية ، أسماء المفردات المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، فكان يسمي المفردة النباتية ، وأحياناً الحيوانية والمعدنية ، ويدرج تحتها ما وصل الى علمه من معارف الأطباء والنباتيين والعلماء حولها ، وذلك بأن يذكر اسم العـالم تليـه المعلومة المنسوبة اليه . وكان من نصيب أبي العباس أن المصنف استقى منـه معلومات ـ حسب مَسرد أعددتُه ـ **في مئـة ومفردتين اثنتين !**

ولدى رجوعي الى هـذه الموسوعة ، وقفت فيها على نماذج وافيـة من علم أبي العباس النباتي ، استمدها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » ، الذي كان قـد ألّفـه مـن وحي رحلتـه المشرقية .

ومما لاحظته في المفردات ، المئـة والاثنتين ، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات مـن أبي العبـاس ، أن ما يرد في المفـردة الواحدة من المعلومات كان **نصيب أبي العباس فيها غالباً هو الأوفى** : وأحياناً لم يكن يرد في المفردة الا ما **يقوله نباتيُّنا الطُلعة وحده**، وهذه أحصيتها فكانت **٣٨ مفـردة** .

ولكن ما يسترعي الانتباه ويستحق مزيداً من الاعجاب، أن **٦٦ مفردة** (من الـ ١٠٢) **قد انفرد عالمُنا الإشبيلي بتحليتها** فلم يشاركه في التحلية أحـد ، **وذلك يؤكد تفوقاً علمياً له** على أقرانه من العلماء في المضمار الواحد .

* * *

☐ الحواشـي :

١ ـ « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ١ : ٤٨٧ ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت).

٢ ـ « الاحاطة في اخبار غرناطة » ١ : ٢١٣ و ٢٠٨ ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط الثانيـة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ .

٣ ـ « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ، ص ٦٠١ ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

٤ ـ «معجم البلدان» ٥ : ١١٢ ـ ١٤ ، طبعة مصورة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ .

٥ ـ « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، ٤ : ٧٤ ، طبعة مصورة ، مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) .

٦ ـ « جامع المفردات .. » ٢ : ٨١ .

٧ ـ « جامع المفردات .. » ٤ : ١١٧ .

أسباب الخلاف اللغوي وأسلوب البحث في تراث العالم

محمد وليد حافظ

بدأ التفكير في تدوين اللغة وجمعها ، واستنباط قواعد النحو مع ظهور اللحن . فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير خطر هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، بدأ اللحن خفيفا منذ أيام الرسول ﷺ ، ولم ينج منه حتى كثير من الخلفاء الأمويين وولاتهم .

أما المحرك الرئيس لنشأة العلوم العربية فهو الدين الجديد ، فان اهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث ، ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما . وعنايتهم بالقرآن الكريم حملتهم على الاهتمام بقراءاته وتفاسيره ، فلم تنقض المئة الثانية للهجرة حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله، وللدين كتبه وجدله وأصوله ومتكلموه وفرقه(١) . ثم جاء النحو يتقدم رويداً رويداً ، والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع ، ثم انتقل الى الكوفة ، ومهما كان الرأي في واضع أول مؤلف نحوي فان الكتاب المدون الأول الذي وصل الى عصرنا هو كتاب سيبويه (ـ ١٨٠ هـ) .

كان الخليل (ـ ١٧٠ هـ) كما قال ابن جني « كاشف قناع القياس في علمه »(٢) . وليس مصادفة كما يقول بعضهم أن تعاصر مدرسة القياس في النحو مدرسة الرأي في الفقه ، التي رفع لواءها الإمام أبو حنيفة النعمان (ـ ١٥٠ هـ) ، فالمدرستان تكونتا في ظل تفتح العقل العربي .

وهكذا وضعت في القرن الثاني أسس العلوم ومناهجها . وبدأ كل علم يستقل بنفسه ، ويظهر الاختصاصيون فيه .

على أن ظهور مدرسة القياس في النحو العربي رافقه ظهور الخلافات النحوية ،

وتمايز مدرستي البصرة والكوفة . واذا كان بعض الباحثين يميل الى رد الخلاف الى أسباب سياسية ، مثل تشيع أهل البصرة للزبير وتشيع أهل الكوفة لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) ، والى تقريب العباسيين للكسائي زعيم مدرسة الكوفة ، وأحد القراء السبعة ، فاننا نعلم أن الخلاف كان يدور حول أمور خطيرة هي السماع والقياس ، وان جدلاً طويلاً دار حول من يحتج بكلامهم، وان أهل الكوفة اتهموا بالأخذ عن قبائل عربية كانت تعيش على تخوم الجزيرة العربية ممن خالطت العجمة ألسنتهم ، وأنهم كانوا أميل الى الترخص في السماع • ونميل كذلك الى أن الاجتهاد، وهو باب شرعه على مصراعيه تفتح العقل العربي هو مفتاح الخلاف •

تطور الخلاف واشتدت حدته بتأثير السياسة والعصبية والقبلية ، وأصبح مادة للتسلية حيناً ولشحن النفوس بالعداء حيناً • وقصة سيبويه مع الكسائي في المسألة الزنبورية(٣) مأساوية حتى ليقال ان سيبويه ذهب ضحيتها •

كان لا بد من البحث عن مخرج من الهوة التي وصل إليها الخلاف ، ينقذ النحو، وعلماء البلدين من المهاترات التي لا تخدم العلم في شيء ، فظهرت مدرسة أبي علي الفارسي (ــ ٣٧٧ هـ) التي حرصت على أن يكون النحو علماً كسائر العلوم ، بما تعنيه الكلمة من نزعة عقلية موضوعية وشمولية بمقدار حرصها في الوقت نفسه على أن يصل الانسان الى الايمان عن طريق العقل ، فسلكت سبيلين الى هذا الهدف ، وهما :

أولاً ــ فهم اللغة العربية التي استنبطت منها علومها فهماً موضوعياً عميقاً ، وذلك من خلال مقولتين ينطلق منهما اليوم علم اللغة الحديث : وهما :

١ ــ اللغة ظاهرة اعتباطية •

٢ ــ اللغة ظاهرة اجتماعية •

تعني المقولة الأولى وجود ظواهر في اللغة لا تعلل ، أبرزها العلاقة بين اللفظة ومعناها أي بين الدال والمدلول، ومنها ظاهرة العدل ، وظاهرة الاستغناء •• فعلينا تقبُّل هذه العلاقات الاعتباطية دون محاولة تعليلها•

وتعني المقولة الثانية أن المجتمع صاحب هذه اللغة ، فعلينا تقبل ما قاله المجتمع حتى العصر الذي ابتدأ فيه العلماء دراستهم الوصفية التحليلية الشاملة للغة العربية وهو ما يسمى اصطلاحاً بعصر الاحتجاج ، باعتبار العلاقة الاعتباطية أساساً ، أي دون حاجة الى أن نتساءل : لماذا قال العرب هذا أو ذاك من ألفاظ وتراكيب ، ونتخذ ما قالوه قاعدة ، ثم تتطور اللغة عن طريق القياس ما دام المجتمع نفسه يتطور •

ثانياً ــ اذا تجاوزنا الظواهر التي لا تعلل ، فان سواها يعلل ، والتعليل معناه الإفهام عن طريق العلاقة السببية • وعلى أساس العلة الجامعة المانعة خطا ابن جني الخطوة الحاسمة على طريق وضع القاعدة اللغوية الشاملة المطّردة(٤) •

كان ابن جني بعـد استاذه أبي علي المرشح الأول لمهمـة اخراج النحو من مأزقه وذلك للأسباب التاليـة :

١ ــ مذهبـه الاعتزالي : « والاعتزال منهج يستند الى تحكيم العقـل ، وهو منهج في البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس »(٥) · « وقد كانت ثقـة المعتزلة كبيرة بالعقل ، لا يحـدها الا احترام أوامر الشرع ، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبل أقروه ، وما لم يقبل رفضوه »(٦) وسلسلة علماء المعتزلة طويلة ، في طليعتهم سيبويه، مروراً بالفراء والفارسي والزمخشري وابن يعيش ·

٢ ــ تتلمـذه الطويـل على أبي علي الفارسي ، وأبو علي « قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع اصحابنا ــ يعني البصريين ــ »(٧) · ولا عجب فقـد أقام على هذه الطريقة ــ يعني طريقة القياس والعلل ــ مع جلّة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة ، لا يمتاقه ولد ، ولا يخدم بـه رئيساً »(٨) ·· وقد لازم ابن جني أبا علي منذ عام ٣٣٧ هـ عام اجتياز أبي علي بالموصل الى حـين وفاة الأستاذ عام ٣٧٧ هـ ، وهي ملازمة لم تقتصر على التتلمذ ، فقد غـدا التلميذ نداً لأستاذه ، مستشاراً فيما يعرض للأستاذ من مسائل ، علـى نحو مـا نرى في مواضع كثيرة من الخصائص »(٩) ·

٣ ــ نضوجـه العلمي زمـن تأليفه « الخصائص » وهو الكتاب الذي ألّفـه في أواخر عمره بعد وفاة أستاذه عام ٣٧٧ هـ ، أي بعدما بلغ ابن جني الستين مـن عمره ، وقبل وفاته ببضعة عشر عاماً على الأكثر ، وبعد فراغه مـن كتب هامـة له ، مثل سـر الصناعة ، وشرح تصريف المازني ·

٤ ــ تفكيره الموضوعي القائم على احترام متقدميـه احتراماً عميقـاً دون الخضـوع لآرائهم، وما وصلوا اليه من نتائج· ويتجلى هذا الاحترام في تجنب أي اهانة لسابقيه مما نلحظه لدى العلماء المتأخرين من أمثال أبي حيـان النحوي (ــ ٧٤٥ هـ) وابن هشام الأنصـاري (ــ ٧٦٢ هـ) ويتجلى بوضوح أكثر فيما نورده من طريقة مناقشته لآرائهم، وتتجلى حريته الفكرية في مبدئه الصريح :« للانسان أن يرتجل من المذاهب ما يدعو اليه القياس ، ما لم يلو بنص ، أو ينتهك حرمة شرع ·· واجماع أهل البلدين ــ يعني البصرة والكوفة ــ انما يكون حجة اذا أعطاك خصمك يـده ألا يخـالف المنصوص والمقيس على المنصوص ، فأما ان لم يعط يده بذلك ، فلا يكون اجماعهم حجـة عليه »(١٠) لأن النحو علم منتزع من استقراء هذه اللغة « فكل من فرق له من علة صحيحة ، وطريق نهجة كان خليل نفسه ، وأبا عمرو فكره »(١١) ·

هـذا مـع وضع شروط قاسية لمخالفة المتقدمين، منها « أن يناهضه اتقاناً، ويثابته عرفاناً ، ولا يخلد الى سانح خاطره ولا الى نزوة من نزوات فكره ·· غير معازّ به ــ أي برأيه ــ ولا غاض من السلف »(١٢) ·

شعر ابن جني ، وهو العـالم المزود بصفات العالم السالفـة الذكر ، الى جانب صفات بدهية مثـل الصبر الشديد ، وعدم التعنت ، بالحاجة الى دراسة اللغـة دراسة

شاملة لاستخلاص أسرارها كما يقول الأستاذسعيد الأفغاني(١٣) . ولا أدل على هذا الغرض من عنونة كتابه بالخصائص ،وبالحاجة الى تأسيس علم أصول النحو على غرار علم أصول الفقه ، ولا سيما أنه وجدأن « الرفع والنصب والجر والجزم أمر فرغ منه في أكثر الكتب المصنفة فيه »(١٤)وقد بحث عن عمل أسلافه ، فلم يجد الا عملين لم يرضيا طموحه ، أحدهما للأخفش(ـ ٢١٥ هـ) والثاني لأبي بكر السراج (ـ ٣١٦ هـ) .

والنحو في مفهوم ابن جني ليس قسيمالصرف ، على نحو ما يفهم في العصور المتأخرة وانما هو « انتحاء سمت العرب فيتصرفه من اعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسبوالتركيب ، وغير ذلك »(١٥) . ونستطيع اجمال صنيع ابن جني في تأسيس أصولالنحو ودراسة خصائص اللغة في الوصولالى **النظام العام للغة** عن طريق بحث القوانينالعامة لها ، وعن طريق طرد هذه القوانين من خلال القياس . ففصل الكلام على قواعدالقياس ، وعلى أنواع العلل ، وعلى طريقة الوصول الى العلة الجامعة التي لا يطعنفيها طاعن لتأسيس **القاعدة اللغوية الشاملة.**

اما أسباب اختلاف العلماء في نظر ابنجني ، فلا بد من الاشارة بادىء الأمر الى أنه لا يطعن في خلق أحد من متقدميه ، ولافي علمه ، ولا يشك في نزاهة أحد منهم ، ولا يرد الخلاف الى أسباب مزاجية أو عصبيةأو سياسية ، وهو يوثق متقدميه ، ويصدق ما نقله السلف ، ويبحث المشكلة بحثاموضوعيا منطلقا من **طبيعة اللغة العربية نفسها، وطبيعة العلل التي تتحكم في العلاقاتاللغوية ، والدلالات التي تحملها الألفاظ ، وطبيعة البحث العلمي نفسه .**

١ـ١ : ان اللغة العربية التي استخلصت منها القواعد لم تكن لغة واحدة . ويحدث أن يجتمع في كلام الفصيح لغتان فصاعدا(١٦)مثل اجتماع (سقى) و (أسقى) بمعنى واحد في بيت لبيد :

سقى قومي بني مجد واسقى نميرا والقبائل من هلال

و « وفى » و « أوفى » في بيت طفيل الغنوي :

اما ابن طوق فقد اوفى بذمته كما وفىبقلاص النجم حاديها(١٧)

ومن ذلك قولهم (بغداد) و (بغدان) ، ويجوز أن تكون للقبيلة الواحدة لفظتان للمعنى الواحد ، متساويتان في الاستعمال ،أو أن تستعيرها من قبيلة أخرىلتلحق اللفظة الدخيلة لطول الاستعمال باللفظة الأولى (١٨) .

ويروي ابن جني عن الأصمعي حكايةالرجلين اللذين اختلفا في « الصقر » أهو بالسين أم بالصاد ، فتراضيا بأول واردعليهما ، فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما، انما هو « الزقر » ويعقبقائلا : « ألا ترى الى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد في هذه الحال الى لغته لغتين آخريينمعها ، وهكذا تتداخل اللغات »(١٩) بل يفرد

باباً خاصاً لتركب اللغات(٢٠) ، وباباً خاصاًباختلاف اللغات وكلها حجة(٢١) وباباً خاصاً في العربي الفصيح ينتقل لسانه(٢٢) ويسمع لغـة غيره ، أيراعيها ويعتمدها أم يلغيهـا ويطرح حكمهـا(٢٣) ٠

ولا يخفى على قارىء الخصائص تتابع الأبواب الثلاثة الأخيرة ، وان الباب السابق لها لا يبعد عنها كثيراً ، مما يؤكد الحاح ابن جني على هذه المسألة ٠

ويصيب ابن جني كبـد الحقيقة في معرض دفاعه عن سيبويه حين يذكر الأمثلـة التي فاتتـه في « الكتاب » في قـوله « وان انساناً أحاط بقاصي هذه اللغات المنتشرة وتحجر اذراءها(٢٤) المترامية على سعة البلاد، وتعادي ألسنتها اللـداد ، وكثرة التواضع بين أهليها من حاضر وباد ، حتى اغترق(٢٥) جميـع كلام الصرحاء والهجناء ، والعبيـد والإماء في اطرار الأرض ، ما بـين منثـور ومنظوم ، ومخطوب به ومسجوع ، حتى لغات الرعاة الأجلاف ، والرواعي ذوات صـرار الأخلاف(٢٦) ، وعقلائهم والمدخولين ، وهذاتهم الموسوسين ، في جـدهم وهزلهم ، وحربهـم وسلمهم ٠٠ فلم يخلل من ذلك ــ على سمته وانبثاثه ، وتناشره واختلافه ــ الا بأحرف تافهة المقدار ، متهافتة على البحث والاعتبار ، ولعلها أو أكثرها مأخوذة عمن فسدت لغته ، فلم تلزم عهـدته ، لجدير أن يعلم بذلـك توفيقه ، وأن يخلى له الى غايته طريقه »(٢٧) ٠

١ــ٢ : ثم ان اللغة سواء كانت تواضعاً أم الهاماً لم تكن في وقت واحد « فانها لا بد ان يكون وقع في أول الأمر بعضها ، ثم احتيج فيما بعد الى الزيادة عليه ، لحضور الداعي اليـه ، فزيد فيها شيئاً فشيئاً »(٢٨) وهذه الأشياء التي أضيفت على قياس ما كان وضع في الأصل مختلفاً ، وان كان كل واحد آخذاً مـن صحة القياس حظاً ، ويجـوز أيضاً أن يكون الموضوع الأول ضرباً واحداً ، ثم رأى من جاء من بعـد أن خالف قياس الأول الى قياس ثان جـارٍ في الصحـة مجرى الأول ٠

أما أهل الوبر فتناقلوا كلام آبائهـم وأجدادهم ، وليس كذلك أهل الحضر ، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قـد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية الفصيحة وأخلوا بأشياء من اعراب الكلام »(٢٩) ٠

١ــ٣ : ناهيك عن « كثرة هذه اللغـة ، وسعتها ، وغلبة حاجـة أهلها الى التصرف فيهـا »(٣٠) و « شـدة تداخلها ، وتزاحـم الألفاظ والأغراض على جهاتهـا »(٣١) ٠

٢ــ١ : قد يكون للحكم الواحد علتـان أو أكثر منهما ، كرفع المبتدأ ، فالبصريون يعتلون لرفعه بالابتداء ، والكوفيون يرفعونه اما بالجزء الثاني الذي هو مرافعه عندهم ، واما بما يعـود عليه مـن ذكره على حسب مواقعه(٣٢) ، وكذلك رفع الخبر ، ورفـع الفاعل ، ويعقب ابن جني على هـذا تعقيباً عميق الدلالة وصريحها : **« وعلى هـذا باب معظم العربيـة(٣٣)** ٠

٢ـ٣ : وقد تدعو علتان مختلفتان الى حكمين في الشيء الواحد ، مثل اعمال أهل الحجاز ما النافية للحال ، واهمال بني تميم لها ، والسبب أن أهل الحجاز كأنهم لما رأوها داخلة على المبتدأ والخبر دخول « ليس » عليهما ، ونافية للحال نفيها اياها اعملوها عملها اذ اجتمع فيها الشبهان بهما ، أما بنوتميم فلما رأوها حرفاً داخلا بمعناه على الجملة المستقلة بنفسها ، ومباشرة لكل واحد من جزأيها ، أجروها مجرى « هل »(٣٤) ٠

٣ـ١ : ويسمع الشيء فيستدل به من وجه على تصحيح شيء أو افساد غيره ، ويستدل به من وجه آخر على شيء غير الأول، مثل اتصال الضمير المنصوب بالمرفوع في نحو (أكرمته) فهذا موضع يمكن أن يستدل به على شدة اتصال الفعل بفاعله ، ولكنه يفسد استدلال من قال : ان المفعول به انما نصبه الفاعل وحده ، لا الفعل وحده ، ولا الفعل والفاعل جميعا(٣٥) ٠

٣ـ٢ : وقد يرد شيء من اللفظ ، فيجوز جوازاً صحيحا أن يستدل به على أمر ما، وأن يستدل به على ضده البتة ، وذلك نحو « مررت بزيد ، ورغبت في عمرو » فالدلالة الأولى لهذه الأفعال الموصولة بحرف الجر أن الجار معتد من جملة الفعل الواصل به ، لأن الباء في نحو « مررت بزيد » معاقبة لهمزة النقل في نحو « أمررت زيداً » ٠ والدلالة الثانية هي أن حرف الجر جار مجرى بعض مجروره ، لأنك تحكم لموضع الجار والمجرور بالنصب ، فتعطف عليه بالنصب ، فتقول : « مررت بزيد وعمراً » ، ولأنه لا يفصل بين الجار والمجرور ٠ وهكذا استخلصت من اللفظ الواحد دلالتان كلتاهما مقبولة في القياس(٣٦) ٠

٤ـ١ : « العلماء اختلفوا في الاعتلال لما اتفقت العرب عليه ، كما اختلفوا أيضا فيما اختلفت العرب فيه ، وكل ذهب مذهبا ، وان كان بعضه قويا ، وبعضه ضعيفا »(٣٧) ٠

٤ـ٢ : يستعرض ابن جني في باب « صدق النقلة ، وثقة الرواة والحملة »(٣٨) المشهورين من علماء السلف ، مثنيا على خلقهم ، فعلي (رضي الله عنه) بادىء هذا العلم ، والمرشد اليه ، ثم ابن عباس (رضي الله عنه) ، ثم أبو الأسود الدؤلي ٠٠ وهذا أبو عمرو بن العلاء يعترف بأنه زاد في شعر العرب بيتا واحدا :

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

فيتخلص من تبعات هذا العلم وتحرجه، ويتحوب الى الله ٠ وهذا الأصمعي صناجة الرواة والنقلة حذف من اللغة الكثير لأنه لم يقوَ عنده اذا لم يسمعه ٠ وكفاه ثقة أنه توقف عن تفسير القرآن الكريم ، وحديث النبي ﷺ ، فكيف يتهم بالزيادة في كلام العرب ٠ ونظيرهما أبو زيد ، وأبو عبيدة ، وأبو حاتم ، والكسائي ، وسيبويه ، وأبو علي الفارسي الذي « كان من تحوّبه وتأنيه وتحرّجه كثير التوقف فيما يحكيه ، دائم الاستظهار لا يراد ما يرويه ، فكان تارة يقول : أنشدت لجرير فيما أحسب ، وأخرى: قال لي أبو بكر فيما أظن ٠٠ »(٣٩) ٠

فما الذي أوقع الخلاف بين علماء على هذا الخلق والعفّة والنزاهة ؟ انه شرف هذا العلم ، وكرم هذا الأمر من جهة ، والحرص الشديد من العلماء على هذا العلم، وتحرّيهم الصدق والدقة من جهة أخرى « ولعل أكثر من يرمى بسقطة في رواية ، أو غمر في حكاية محمي الصدق فيها ، بريء عند الله ذكره من تبعتها ، لكن أخذت عليه اما لاعتنان شبهة عرضت له .. واما لأن ثالبه ومتعيبه مقصر عن مغزاه ، مغضوض الطرف دون مداه .. فلولا أن هذا العلم في نفوس أهله كريم الطرفين ، جدد السمتين لما تسابوا بالهجنة فيه ، ولا تنابزوا بالألقاب في تحصين فروجه ونواحيه، ليطووا ثوبه على أعدل غروره(٤٠) ومطاويه »(٤١) .

٤ـ٣ : « لا يمنع العالم قوة القوي من اجازة الوجه الآخر اذا كان ذلك الوجه من مذاهبهم وعلى سمت كلامهم »(٤٢) ولا بد آنذاك أن الوجه الذي أفتى به هو أظهرها عنده . ومن أمثلته رأي سيبويه في قولهم « له مائة بيضاً » « انه حال من النكرة ، وان جاز أن يكون (بيضاً) حالاً من الضمير المرفوع في (له) ، وعلى ذلك حمل قوله :

لعزة موحشاً طلل(٤٣)

فقال فيه : انه حال من النكرة ، ولم يحمله على الضمير في الظرف ، أفيحسن بأحد أن يدعي على أحد متوسطينا أن يخفى هذا الموضع لديه ، فضلاً عن المشهود له بالفضل: سيبويه »(٤٤) .

٤ـ٤ : وقد يفتي العالم بالوجه الأضعف لأنه صحيح على الحالات « ووجه الحكمة في الجمع بين اللغتين: القوية والضعيفة في كلام واحد أن يروك أن جميع كلامهم ، وان تفاوتت أحواله على ذكر منهم ، وثابت في نفوسهم ، وليؤنسوك بذاك ، حتى اذا رأيتهم وقد جمعوا في عقد واحد بين ما يقوى ويضعف كنت اذا أفردت الضعيف منهما بنفسه ، ولم تضممه الى القوي، فيتبين به ضعفه وتقصيره عنه، أنس به وأقل احتشاماً لاستعماله »(٤٥) . وقد رأى العلماء في مثل هذا « سعة في التفسح، وارخاء للتنفس ، وشحاً على ما جشموه فتواضعوه أن يتكارهوه فيلغوه ، ويطرحوه ، ونظير هذا الانسان يكون له ابنان أو أكثر من ذلك فلا يمنعه من ذلك نجابة النجيب منهما الاعتراف بأدونهما ، وجمعه بينهما في المقام الواحد اذا احتاج الى ذلك »(٤٦) .

ويظهر هذا التفسير الحرص الشديد من ابن جني على ألفاظ هذه اللغة وأوجه استعمالها حرص الأب على أبنائه ، ومثل له بأكثر من مثال ، منها قول الفرزدق :

كلاهما حين جدّ الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما راب

« فقوله : (كلاهما قد أقلعا) ضعيف لأنه حمل على المعنى، وقوله (كلا أنفيهما راب) قوي لأنه حمل على اللفظ »(٤٧) وجمل ابن جني منه قوله تعالى « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٤٨) فحمل أول الآية على اللفظ وآخرها على المعنى ، والحمل على اللفظ أقوى(٤٩) ، وقرأ عمارة « ولا الليل سابق

النهـار »(٥٠) « فقال أبو العباس : ما أردت؟ فقال أردت : سابقٌ النهارَ ، فقال : فهلا قلته ، فقال عمارة : لو قلته لكان أوزن »(٥١) ٠

كيف نناقش مواقف العلماء ونختـار مـن بـين آرائهم وعللهـم ؟

١ ــ يجب اختيار الرأي الأقوى ورفض الرأي الأضعف « فمنها ــ أي مـن تقـاود السماع وتقـارع الانتزاع(٥٢) ــ أن يكثر الشيء فيسأل عن علته ، كرفع الفاعل ونصب المفعول ، فيذهب قـوم الى شيء ، ويذهب آخرون الى غيره ، فقد وجب اذا تأمل القولين واعتماد أقواهما ورفض صاحبـه »(٥٣) ٠

٢ ــ « فان تساويا في القـوة لم ينكر اعتقادهما جميعاً ، فقد يكون الحكم الواحد معلولاً بعلتـين »(٥٤) وأفرد لـه ابن جني الباب التاسع عشر من الخصائص ٠

٣ ــ قد يرد عن العالم الواحد رأيان متضادان ، وهنا ترد الاحتمالات التاليـة :

آ ــ اذا كان أحد القولين مرسلاً والثاني معللاً ، اخذ المعلل وتؤوّل المرسل ومثـاله قول سيبويه في التاء من (بنت) و(أخت) انها للتأنيث(٥٥) وقوله مع ذلك في باب ما ينصرف وما لا ينصرف: « انها ليست للتأنيث »(٥٦) ٠ والقول الأول مرسل ، والثـاني معلل مـن سيبويه بأن ما قبلها ساكن ، وتاء التأنيث في الواحد لا يكون ما قبلها ساكناً الا أن يكون ألفـا ، كقناة وفتاة ٠ ويرى ابن جني الا يحمل القولان على التضاد ، بل يحمل قوله : « انها للتأنيث » على المجاز ، « ووجه الجمع بين القولين ان هذه التاء وان لم تكن عنـده للتأنيث فانها لما لم توجد في الكلمة الا في حال التأنيث استجاز أن يقول فيها : انها للتأنيث، الا ترى أنك اذا ذكرت قلت : « ابن » فزالت التاء كما تزول التاء من قولك « ابنة » فلما ساوقت تاء « بنت » تاء « ابنة » وكانت تاء « ابنة » للتأنيث قال في تاء « بنت » ما قال في تاء « ابنة » ٠ وهذا من أقرب ما يتسمح به في هـذه الصناعة »(٥٧) ٠

ب ــ أن يكون القولان غير معللين ، فينظر حينذاك الى الأليـق بالمذهب ، والا جرى على قوانينه فيجعل هو المراد المعتزم منهما ، ويتأول الآخر ان أمكن ٠

والمثال أيضاً من الكتاب « كقوله ــ أي سيبويه : « حتى » الناصبة للفعل(٥٨) ٠ وقد تكرر من قوله انها حرف من حروف الجر ٠ وهذا ناف لكونها ناصبة له ، من حيث كانت عوامل الأسماء لا تباشـر عوامل الأفعال ،فضلاً من أن تعمل فيها ٠ وقـد استقر من قوله في غير مكان ذكر عدة الحروف الناصبة للفعـل ، وليست فيها « حتى » ، فعلم بذلك وبنصه(٥٩) عليه في غير هذا الموضع ان (أنْ) مضمرة عنده بعد حتى، فالمذهب اذاً هو هذا ٠ ووجه القول في الجمع بين القولين بالتأويل ان الفعل لمـا انتصب بعد (حتى) ، ولم تظهر هناك (أن) وصارت (حتى) عوضاً عنها ونائبة عنهـا نسب النصب الى (حتى) وان كـان في الحقيقة (أن) »(٦٠) ٠

ودعم ابن جني موقفه بمثال معنوي ، هو قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »(٦١) فظاهر هذا تناف بين الحالتين،ووجه الجمع بينهما أنه لمـا كان الله أقدره

على الرمي ، ومكنه منه ، وسدد لـه ، وأمره به ، فأطاعه في فعله ، نسب الرمي الى الله ، وان كان مكتسباً للنبي ﷺ ، مشاهداً منه »(٦٢) ٠

ج ـ « ان يرد اللفظان عن العالم متضادين ، غير أنه قد نص في أحدهما على الرجوع عن القول الآخر ، فعلم بذلك أن رأيه مستقر على ما أثبته ولم ينفه ، وان القول الآخر مطرّح من رأيه »(٦٣) ٠

ويميز في هذه الحالة حالتين فرعيتين :

١ ـ « ان تعارض القولان مرسلين غير مبان أحدهما من صاحبه بقاطع يحكم به عليه ، **بحث عن تاريخهما** ، فعلم أن الثاني هو ما اعتزمه وان قوله به انصراف منه عن القول الأول اذا لم يوجد في أحدهما ما يجازبه عن صاحبه »(٦٤) ٠

٢ ـ « فان استبهم الأمر فلم **يعرف التاريخ** وجب سبر المذهبين ، وانعام الفحص عن حال القولين ، فان كان أحدهما أقوى من صاحبه وجب **احسان الظن** بذلك العالم، وان ينسب اليه أن **الأقوى منهما هو قوله الثاني** ٠٠٠ وان الأضعف منهما هو الأول منهما الذي تركه الى الثاني ٠ **فان تساوى القولان في القوة وجب أن يعتقد فيهما أنهما رأيان له**، فان الدواعي الى تساويهما فيهما عند الباحث عنهما هي الدواعي التي دعت القائل بهما الى أن اعتقد كلاً منهما ، وعليه طريق الشافعي في قوله بالقولين فصاعداً ، وقد كان أبو الحسن ركاباً لهذا الشبح(٦٥) آخذاً به غير محتشم منه ، وأكثر كلامه في عامة كتبه عليه ٠٠٠ ومن الشائع في الرجوع عنه من المذاهب ما كان أبو العباس تتبع به كلام سيبويه ، وسماه مسائل الغلط ، فحدثني أبو علي عن أبي بكر أن أبا العباس كان يعتذر منه ، ويقول : هذا شيء كنا رأيناه أيام الحداثة ، أما الآن فلا ٠ وحدثنا أبو علي قال : كان أبو يوسف(٦٦) اذا أفتى بشيء أو أملى شيئاً ، فقيل له : قد قلت في موضع كذا غير هذا يقول : هذا يعرفه من يعرفه ،أي اذا أنعم النظر في القولين وجدا مذهباً واحداً »(٦٧) ٠

ومن أمثلة الآراء المتضادة من العالم الواحد ما كان يراه أبو علي في « هيهات » انها اسم فعل تارة ، وانها ظرف تارة أخرى، على قدر ما يحضره في الحال ، وفي الفاصل بين (أما) وجوابها أنها تارة جملة شرط ،وتارة اسم مفرد ، و « هذا ونحوه من خلاج الخاطر وتمادي المناظر دعا أقواما الى أن قالوا **بتكافؤ الأدلة**»(٦٨) وهذا كما هو واضح يعود بنا الى الدلالات المختلفة للفظة الواحدة، وهو ما تقدم في الفقرة الثالثة من أسباب اختلاف العلماء ٠

وسبب تغير الخاطر في رأي أبي علي أنه من عند الله ، ولكنه لا يأتي أيّا كان ، فلا بد من أن يكون الانسان مؤهلاً علمياً ، يقول أبو علي : « الا أنه لا بد من تقديم النظر ، ألا ترى أن حامداً البقال لا يخطر له »(٦٩) ٠

وينبه ابن جني في هذه المناسبة الى ضرورة تسجيل الخاطر ، وعدم الاعتماد على الحافظة ويروي أنه رأى في حداثته معنى يجمع بين آية كريمة وبيت من الشعر ، ولم يثبت رأيه كتابة . ثم انه بعد مضي سنين طوال كدَّ ذهنه ليذكر وجه الجمع الذي ارتأه فيما مضى ، فلم تسعفه ذاكرته(٧٠) .

وختاماً للبحث نقول : اذا كنا أفضنا بعض الافاضة في السبب الأخير من أسباب اختلافات العلماء وهو طبيعة البحث العلمي ،وما بني عليه من منهج في مواقفهم والاختيار من بين آرائهم فعذرنا أن السبب الأول ،وهو طبيعة اللغة العربية أعقد من أن يحيط به بحث أو باحث ، بَلْهَ أن يبت فيه ، أما السبب الثاني وهو طبيعة العلل التي تتحكم في العلاقات اللغوية فقد أشبعه ابن جني بحثاً في الخصائص ، فشرح أنواع العلة من موجبة ، ومجوزة ، واحتياطية ، وسمى كما سبق في المقدمة الى التخلص من تخصيص العلل للوصول الى العلة الجازمة ، أما السبب الثالث وهو ما يتعلق بالدلالات فينظر اليه في رأينا على ضوء النظام العام للغة الذي هو محور الجهد الرئيسي في «الخصائص» والذي يجب أن يكون الضابط لاجتهاد المجتهدين في هذه اللغة .

□ الحواشي :

١ ـ انظر « في أصول النحو » للاستاذ سعيد الأفغاني ص ١٠٠ .

٢ ـ الخصائص ١/٣٦١ .

٣ ـ خلاصتها أن يحيى بن خالد البرمكي ، جمع في مجلسه بين سيبويه والكسائي ، فسأل الكسائي سيبويه : كيف تقول : (قد كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، أو فاذا هو أياها » ؟ فقال سيبويه : « فاذا هو هي » ولا يجوز النصب . فقال له الكسائي : لحنت . فاحتكم الى فصحاء العرب الذين كانوا بالباب ، فأيدوا الكسائي . ولا خلاف في أن الحق الى جانب سيبويه ، وتؤيده شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، مثل « فاذا هي بيضاء » الأعراف ٧/١٠٨ و « فاذا هي حية تسعى » طه ٢٠/٣٠ و « فاذا هي شاخصة » الأنبياء ٢١/٩٧ . وانظر مجالس ثعلب وأمالي ابن الشجري ١/٢٢٩ والانصاف في مسائل الخلاف ٧٠٢ وفي اصول النحو ١٨٠ .

٤ ـ انظر الجزء الاول من الخصائص ، باب «تخصيص العلل» .

٥ ـ في أصول النحو ١٠٤ نقلا عن مقالة للاستاذ احمد امين في مجلة مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ .

٦ ـ المذاهب الاسلامية . احمد أبو زهرة ص ٢١٥ .

٧ ـ الخصائص ١/٢٠٨ .

٨ ـ الخصائص ١/٢٧٧ .

٩ ـ انظر مثلا الخصائص ١/٢٣١ و ١/٣٨٧ .

١٠ ـ الخصائص ١/١٨٩ .

١١ ـ الخصائص ١/١٩٠ .

١٢ ـ الخصائص ١/١٩٠ .

١٣ ـ في أصول النحو ٩١ .

١٤ ـ مقدمة الخصائص للمؤلف .

١٥ ـ الخصائص ١/٣٤ .

١٦ ـ انظر الباب ٥١ من الجزء الاول من الخصائص .

١٧ ـ اللسان (ولي) .

١٨ ـ انظر الخصائص ١/٣٧٢ .

١٩ ـ الخصائص ١/٣٧٤ .

٢٠ ـ هو الباب الثاني والخمسون من الخصائص ج١/٣٧٤ .

٢١ ـ هو الباب السادس والخمسون من الخصائص ج٢/١٠ .

٢٢ ـ هو الباب السابع والخمسون من الخصائص ج٢/١٢ .

٢٣ ـ هو الباب الثامن والخمسون من الخصائص ج ٢/١٤ .

٢٤ ـ أي أطرافها وحواشيها ، الواحد ذرو ، أقرب الموارد (ذرو) .

٢٥ ـ أي استوعب .

٢٦ ـ هو خيط يشد فوق خلف الحلوبة لئلا يرضعها ولدها ، والأخلاف جمع خلف بكسر الخاء وسكون اللام وهو للحيوان كالثدي للانسان .

٢٧ ـ الخصائص ٣/١٨٦ .

٢٨ ـ الخصائص ٢/٢٨ .

٢٩ ـ الخصائص ٢/٢٨ .



٣٠ ـ الخصائص ١/٢١٥ ٠
٣١ ـ الخصائص ١/١٨٣ ٠
٣٢ ـ انظر الخصائص ١/١٦٦والانصاف في مسائل الخلاف ٤٤ ٠
٣٣ ـ الخصائص ١/١٠١ ٠
٣٤ ـ انظر الخصائص ١/١٦٧ ٠

٣٥ ـ القائل بان ناصب المفعول به هو الفاعل وحده هو هشام ابن معاوية الضرير ، والقائلون بان ناصبه الفعل والفاعل جميعا هم الكوفيون ٠ وانظر المسألة مفصلة في الانصاف في مسائل الخلاف ٧٨ ـ ٧٩ وشرح الرضي على الكافية ١/٢١ وانظر الخصائص ١/١٠١ ٠

٣٦ ـ انظر الخصائص ١/١٠٦ ٠
٣٧ ـ الخصائص ١/١٦٨ ٠
٣٨ ـ هو الباب التاسع والخمسون بعد المائة من الخصائص ج ٣/٣٠٩ ٠
٣٩ ـ الخصائص ٣/٣١٣ ٠
٤٠ ـ جمع غر ، وغرور الثوب مكاسره ، اي حيث ينثني وينكسر ٠
٤١ ـ الخصائص ٣/٣١٢ ٠
٤٢ ـ الخصائص ٢/٤٩٢ ٠

٤٣ ـ تمامه : يلوح كانه خلل ٠ وهو لكثير عزة ، ويروى : لمية ٠٠ فينسب الى ذي الرمة وانظر الكتاب لسيبويه ١/٧٦ ٠

٤٤ ـ الخصائص ٢/٤٩٢ ٠
٤٥ ـ الخصائص ٣/٣١٧ ٠
٤٦ ـ الخصائص ٣/٣١٨ ـ ٣١٩ ٠

٤٧ ـ الخصائص ٣/٣١٤ ٠ والبيت في هجاء جرير لما زوج ابنته لابن اخي امرأته ، ثم طلقها ٠ اي الترقا حين وقعت الالفة بينهما ، ووقف قبل الوصول الى الغاية ٠ انظر شرح ابيات المغني للبغدادي ٤/٢٩٠ ٠ وقال الدكتور عبد الرحمن بدوي في « المنطق الصوري والرياضي » ص ٥٥ ـ ٦٠ : « من الواجب مراعاة المعنى ، فان استعملا ـ اي كلا وكلتا بمعنى جمعي جاء الفعل بعدهما في حالة التثنية بالضرورة، وان استعملا بشكل استغراقي وجب أن يأتي الفعل بعدهما في حالة الافراد » ٠

٤٨ ـ البقرة ٢/١١٢ ٠
٤٩ ـ الخصائص ٢/٣١٤ ٠
٥٠ ـ يس ٣٦/٤٠ ٠
٥١ ـ الخصائص ٣/٣١٨ وانظر ١/١٢٥ ٠

٥٢ ـ تفاوت السماع اطراده وعدم اختلافه ، كرفع الفاعل اتفق السماع فيه ٠ وتقارع الانتزاع اختلاف الاستنباط ٠ انظر الباب التاسع من الخصائص وحاشية المحقق رقم ٦ ص ١٠٠ ٠

٥٣ ـ الخصائص ١/١٠٠ ٠
٥٤ ـ الخصائص ١/١٠١ ٠
٥٥ ـ الكتاب (بولاق) ٢/٨٢ و ٢/٣٤٨ ٠
٥٦ ـ الكتاب (بولاق) ٢/١٣ ٠
٥٧ ـ الخصائص ١/٢٠٠ ٠

٥٨ ـ الكتاب ١/٤١٣ : (اعلم أن حتى تنصب على وجهين) ٠
٥٩ ـ انظر الكتاب ١/٤٠٧ ٠
٦٠ ـ الخصائص ١/٢٠٤ ٠

٦١ ـ الانفال ٨/١٧ ٠
٦٢ ـ الخصائص ١/٢٠٤ ٠
٦٣ ـ الخصائص ١/٢٠٥ ٠
٦٤ ـ الخصائص ١/٢٠٥ ٠

٦٥ ـ الثبج ما بين الكاهل الى الظهر ، وثبج الشيء أعلاه ومعظمه ووسطه ، أقرب الموارد (ثبج) ٠

٦٦ ـ هو القاضي يعقوب بن ابراهيم (ـ ١٨٢ هـ) حافظ محدث فقيه ، لازم أبا حنيفة ، وولي قضاء بغداد (المعارف لابن قتيبة ٤٩٩) ٠

٦٧ ـ الخصائص ١/٢٠٥ ـ ٢٠٦ ٠

٦٨ ـ الخصائص ١/٢٠٦ ٠ وتكافؤ الادلة تساويها ، فلا ينصر مذهب على مذهب ، ودلالة كل مقالة من القائلين به مكافئة لدلالة سائر المقالات ٠

٦٩ ـ الخصائص ١/٢٠٧ ٠
٧٠ ـ انظر الخصائص ١/٢٠٧ ٠

★ ★ ★

ابن رشد
العالم والفيلسوف

حسان الكاتب

●● لا شك في أن ابن رشد كان أحد كبار فلاسفتنا الذين يزخر بهم تاريخنا المجيد ،وقد ترك لنا مآثر علمية جليلة ، استفادت منها بلاد الغرب التي تنعم الآن بحضارة راقية ، وقد كان لابن رشد وغيره من علماء العرب والمسلمين ، الفضل الأول في بناء قاعدة تلك الحضارة • فقد استمد الغرب من تراثنا الخالد ، ذلك التراث الذي ما زال طلاب العلم الغربيون ينهلون منه في جامعاتهم ، وفي مجالات بحوثهم ودراساتهم • وقد بحث ابن رشد كثيراً في الفلسفة ، ولكنه لم يترك الحقول الأخرى ، فمكف على القراءة والكتابة ،ويروى أنه لم ينقطع عن القراءة والكتابة الا في ليلتين احداهما كانت عند وفاة والده ، والثانية كانت ليلة زواجه ، فقد ألف ابن رشد في الفيزياء والفلك والطب والفلسفة وغيرها(١) وصدق المؤلف المعروف جورج سارتون عندما قال في كتابه : « المدخل الى تاريخ العلوم » : « ان ابن رشد كان من أكابر فلاسفة الاسلام ولقد أثر على فلاسفة أوربا بفلسفته أكثر من أرسطو نفسه • وبدون ريب فان ابن رشد هو مؤسس الفكر الحر ، فقد فتح أمام علماء أوربا البحث والمناقشة على مصاريعها ، لذا فانه أخرجها من ظلمات التقيد الى نور العقل والتفكير(٢٢) •

ولقد طغى نشاط ابن رشد الفلسفي على شهرته المرموقة ، وثقافته الفياضة في العلوم الأخرى ، مثل الطب والفلك • وقد ذكر جورج سارتون في كتابه « المدخل الى تاريخ العلوم » : « ان شهرة ابن رشد في عالم الفلسفة كادت أن تحجب منجزاته الطبيمية ، على أن ابن رشد كان يمتبر في الحقيقة من أكبر الاطباء في عصره • فقد ألف نحو عشرين كتاباً في الطب، بمضها تلخيصات لكتب جالينوس ، وبعضها مصنفات ذاتية ، وقد ترجم أكثرها الى العبرية واللاتينية ، وأشهرها (كتاب الكليات في الطب) وهو موسوعة طبية في سبعة مجلدات، ترجمه الى اللاتينية الطبيب بوناكوزا من جامعة بادوا في سنة ١٢٥٥ ميلادية ، وطبع مرات عديدة مضافاً اليه كتاب (التيسير) لابن

زهر » . فنتيجة ذلك ان ابن رشد قد اشتهر شهرة عظيمة بين الاوربيين في مجالين أساسيين من المعرفة . هما الطب والفلسفة ، ولكن لن ننسى جوانبه الفكرية والثقافية الأخرى التي لم تكن أقل اشراقا(٣) .

●● ولد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (أبو الوليد) في قرطبة بالأندلس وعاش في الفترة بين (٥٢٠ ـ ٥٩٥) هجرية (١١٢٦ ـ ١١٩٨) ميلادية ويسميه الافرنج Averroes . وكان ينحدر من سلالة من المتبحرين والقضاة اللامعين(٥) ، فجد ابن رشد كان قاضياً صنف بالفقه وله فتاوى بنوازل عصره ذات مكانة عالية ، وتسلم والد ابن رشد أيضاً القضاء، لكن لما شهر به جده ، ولما حظي به من مكانة وكيما يميز عنه يضاف في العادة اليه عبارة (الحفيد) ويضاف الى جده في نفس الوقت عبارة (الجد)(٦) .

زار ابن رشد مدينة مراكش عاصمة الموحدين مرات كان أولها ، فيما يبدو سنة ٥٤٨هـ ـ ١١٥٣م في أيام عبدالمؤمن بن علي . ويبدو أن ابن رشد كان منذ ذلك الحين على صلات طيبة بآل زهر . ولعل انصراف ابن رشد عن التكسب بالطب هو الذي زوى عنه منافسة آل زهر وعداوتهم وكسبه صداقتهم . وتوثقت صلات ابن رشد بأبي مروان ابن زهر فاتفقا على أن يؤلفا كتاباً جامعاً في الطب يضع ابن رشد كلياته ، أو الجانب النظري منه ، ثم يضع ابن زهر(٧) جزئياته أو الجانب العملي منه ، ووفى ابن رشد بما كان الطبيبان قد اتفقا عليه ووضع كتاب الكليات (٥٥٧هـ الموافقة لـ ١١٦٢م) . ولكن ابن زهر لم يجد من وقته المملوء بالتطبيب ما يوفره على وضع الكتاب المطلوب فوضع لابن رشد كتاباً آخر اسمه « التيسير » في المداواة والتدبير(٨) .

وفي سنة ٥٤٨ هجرية قدمه ابن طفيل الى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(٩) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين وكان الفيلسوف ابن طفيل ذا تأثير على هذا السلطان وكان السلطان يعتمد عليه في جلب العلماء والحكماء الى بلاطه، وكان بين هؤلاء الفيلسوف ابن رشد، وكان لايزال في دور الشباب .

وقد وصف لنا أحد تلاميذ ابن رشد ، المقابلة الأولى التي جرت لأستاذه مع هذا السلطان ، جاعلا صيغة الكلام على لسان ابن رشد نفسه . قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدت عنده أبا بكر ابن الطفيل ، فمدحني أبو بكر أمامه، ثم سألني عن اسمي وأسرتي، وقال لي :

« ما هو رأي الفلاسفة في السماء ؟ هل هي حادثة أم قديمة ؟ » .
فخفت واعتذرت، وأنكرت اشتغالي بالفلسفة، فأدرك أمير المؤمنين ما اعتراني من الخوف ، فالتفت الى أبي بكر (ابن طفيل) ، وأخذ يحادثه في ذلك ، ويذكر له أقوال أرسطو ، وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة ، وما قال أهل الملة في الرد عليهم ، حتى تعجبت من علمه وسعة اطلاعه . وما زال يتلطف في كلامه حتى هدأ روعي وتكلمت بما حضرني من ذلك ، وأبديت رأيي(١٠) .

بيد أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، اذ أن ابن رشد أخذ يتردد من ذلك الحين على قصر السلطان ، ويلتقي بابن طفيل ، وفي ذات يوم دعا ابن طفيل ابن رشد ، وقال له : ان

أمير المؤمنين شكا اليه مايجده في أسلوب ارسطو وترجمته من الصعوبة والغموض ، وانه يريد رجلا يشرح هذه الكتب· ومما قاله ابن طفيل لابن رشد :

« انك أقوى مني عزماً ، فعليك بكتب ارسطو ؟ وأعتقد أنك ستأتي عليها كلها ،لاني أعرف سمو عقلك، ووضوح فكرك ،وتجلدك، أما أنا فان سني ، واشتغالي بخدمة الأمير ، وصرف عنايتي- كل ذلك يمنعني من الاقدام على هذا الأمر (١١) ·

لما طعن ابن طفيل في السن ، حل ابن رشد محله في الطبابة للخليفة ، عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢)م بيد أن(١٢) ذلك لم يكن مؤدياً الى انقطاع الصلة بين السلطان والفيلسوف · وبهذا نستطيع أن نعتبر ابن رشد شارح المعلم الاول أرسطو ، وأكبر الفلاسفة الشراح اثراً في الغرب من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين(١٣) ·

ولقد بالغ سلطان الموحدين يعقوب المنصور في اكرام ابن رشد بعد وفاة والده ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم ابن رشد فسعى به أعداؤه الى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق ، فنفاه وسائر الفلاسفة من ارضه · ثم عاد الأمير الى نفسه فاستدعاه الى مراكش واعتذر اليه ، وظاهر نعمته عليه · ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش سنة ٥٩٥ هجرية(١٤) ـ ١١٩٨ ميلادية(١٥) ·

●● فلسفة ابن رشد باختصار :

تدور فلسفة ابن رشد على قدم العالم وعلم الله وعنايته والمعاد وحشر الأجساد فعنده أن العالم مخلوق وان الخلق خلق متجدد به يدوم العالم ويتغير ، وان الله هو القديم الحقيقي ، فاعل الكل وموجده ، والحافظ له وذلك بتوسط العقول المحركة للافلاك ·وعنده أن الله عقل ومعقول معاً ، وان علم الله منزه عن أن يكون علماً بالجزئيات الحادثة المتغيرة المعلولة ، أو علماً بالكليات التي تنتزع من الجزئيات · فكلا العلمين بالجزئيات والكليات حادث ومعلول ، أما علم الله فعلم يوحد العالم ويحيط به ، فيكفي أن يعلم الله في ذاته الشيء ليوجد(١٦) ولتدوم عناية الله به ، وحفظه الوجود عليه ، وعنده أن العقل الفعال الذي يفيض المعقولات على العقل الانساني ، أزلي أبدي ، وان العقل الانساني بحكم اتصاله بالعقل الفعال · وافاضة هذا العقل عليه ، ابدي هو الآخر · أما النفس فصورة الجسم تفارقه وتبقى بعده منفردة · وأما الجسد الذي كان سيبعث ، فهو ليس عين الجسد الذي كان لكل انسان في الحياة وانما هو جسد يشبهه · وأكثر كمالا منه ، ويرى ابن رشد أن يعمل الانسان على اسعاد المجموع · فلا يخص شخصه بالخير والبر · وأن تقوم المرأة بخدمة المجتمع والدولة ، كما يقوم الرجل ، وان المصلحة العامة هي مقياس قيم الافعال من حيث الخير والشر ، وان كان العمل خيراً أو شراً لذاته ، وكان العمل الخلقي هو مايصدر عن عقل وروية من الانسان ، وليس الدين عنده مذاهب نظرية ، بل هو أحكام شرعية ،وغايات خلقية ، بتحقيقها يؤدي الدين رسالته ، في خضوع الناس لأوامره ، وانتهائه عن نواهيه(١٧) ·

وانطلق ابن رشد في آرائه الأخلاقية ، من مذهب أرسطو وأفلاطون ، قال بالاتفاق مع افلاطون بالفضائل الأساسية الاربع الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، ولكنه اختلف عنه بتأكيده أن فضيلتي العفة والعدالة عامتان

لكافة أجزاء الدولة (الحكماء والحراس والصناع) . وهذه الفضائل كلها توجد من أجل السعادة النظرية، التي هي المعرفة العلمية الفلسفية ، المقصورة على « الخاصة » وقصر الخلود على عقل البشرية الجماعي ، على المعرفة الفلسفية والعلمية ، التي تغتني وتتطور من جيل الى أخر. وقد كان لهذا القول الأخير دور كبير في تطور الفكر المتحرر في أوربا في العصر الوسيط والحديث ، وأكد ابن رشد على أن الفضيلة لا تتم الا في المجتمع ،وشدد على دور التربية الخلقية وأناط بالمرأة دورا حاسماً في رسم ملامح الأجيال القادمة ، فألح على ضرورة اصلاح دورها الاجتماعي في انجاب الأطفال والخدمة المنزلية وبسط ابن رشد أهم آرائه الأخلاقية من خلال شروحه على الأخلاق الى نيقوماخوس لأرسطو وجوامع سياسة أفلاطون(١٨) .

●● مؤلفات ابن رشد :

١ ـ في الطب :

ينحصر اهتمام ابن رشد في الطب بعلم التشريح، وآلية الدورة الدموية عند الانسان، وتشخيص بعض الأمراض ، ووصف بعض الأدوية لها . كما ذكر ابن رشد في عدة أماكن من مؤلفاته أن الجدري لا يصيب الانسان أكثر من مرة واحدة ، وهذا ما توصل اليه الطب الحديث . كما فهم فهماً جيداً شبكة العين . وهناك قول مأثور عن ابن رشد من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله .

ونذكر فيما يلي المؤلفات الطبية لابن رشد :

١ ـ كتاب الكليات في الطب .

٢ ـ تلخيص كتاب الحميات لجالينوس .

٣ ـ تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

٤ ـ تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس .

٥ ـ كتاب في الفحص .

٦ ـ مقالة في اتصال العقل بالأسنان .

٧ ـ مراجعات ومباحثات بين ابن الطفيل وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتابه الموسوم بالكليات .

٨ ـ مسألة في نوائب الحمى .

٩ ـ مقالة في حميات العفن .

١٠ـ مقالة في الترياق .

ب ـ في الفلك :

١ ـ مقالة في حركة الفلك .

٢ ـ شرح كتاب السماء والعالم لأرسطوطاليس

جـ ـ في الحيوان .

كتاب في الحيوان .

د ـ في الطبيعيات :

١ ـ جوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات .

٢ ـ تلخيص كتاب الطبيعيات لنيقولاوس .

٣ ـ شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس .

٤ ـ تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس .

هـ ـ في المنطق :

١ ـ كتاب الضروري في المنطق .

٢ ـ تلخيص كتاب البرهان لأرسطوطاليس .

٣ ـ مقالة في العقل .

٤ ــ مقالة في التعريف في صناعة المنطق ٠
٥ ــ مقالةفي اتصال العقل المفارق بالانسان٠

و ــ في النفس :

١ ــ شرح كتاب النفس لأرسطوطاليس ٠
٢ ــ تلخيص كتاب المزاج لجالينوس ٠

ز ــ في الفقه :

١ ــ كتاب المقدمات في الفقه ٠
٢ ــ كتاب نهاية المجتهد في الفقه ٠

ح ــ في الفلسفة :

١ ــ تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس ٠
٢ ــ تلخيص كتاب الاخلاق لأرسطوطاليس ٠
٣ ــ كتاب تهافت التهافت ٠
٤ ــ شرح كتاب القياس لأرسطوطاليس ٠
٥ ــ مسألة في الزمان ٠
٦ ــ مقالة في فسخ شبهة من اعترض على الحكيم ٠
٧ ــ مقالة في الرد على ابن سينا ٠
٨ ــ مسائل في الحكمة ٠

ط ــ متفرقات :

١ ــ كتاب التحصيل ٠
٢ ــ شرح الأرجوزة المنسوبة الى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب ٠
٣ ــ شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس ٠
٤ ــ تلخيص كتاب الاسطقسات لجالينوس ٠
٥ ــ تلخيص كتاب العلل والاعراض لجالينوس ٠
٦ ــ تلخيص كتاب التقرف لجالينوس ٠
٧ ــ كتاب منهاج الأدلة في علم الأصول ٠
٨ ــ كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ٠
٩ ــ مقالة عن المتصلين ٠
١٠ــ كتاب عن البرهان لأرسطوطاليس عن ترتيبه للقوانين(١٩) ٠

وقد اهتم ابن رشد بالحركة وملازمتها للزمن في الأجسام ، وملازمتها للفراغ ،ومعنى الميل ، وقادت تلك الأفكار الىعلمالديناميكا٠ واعترف كولومبوس مكتشفأمريكا وبخطيده أنه قد كان لمؤلفات ابن رشد الفضل الكبير فيوصوله الى أمريكا٠وأورد المؤلف رينان(٢٠): مايثبتهذه الحقيقة٠ وأضاف رام لاندو(٢١): « على الرغم من أن بعض العلماء الاسبان تعودوا أن ينعتوا فلاسفة الغرب المسلمين الكبار بـ« الاسبان » فقدكانوا كلهمفيالحقيقة الواقعة عرباً ، بدليل أن أسرهم كانت قد نشأت في الأصل في الشرق الأدنى ، ثم ارتحلت الى اسبانيا ٠ في حين نشأت أسر قلة منهم في مراكش٠وكان أشهرهمعلىالاطلاق ابن رشد٠ المعروف في الغرب Averroes

أسرعت البلاد الأوربية منذ القرنالثالث عشر الميلادي الى تعلم فلسفة ابن رشد ، فاندفع الكثير الى ترجمة مؤلفاته في هذاالمجال، وانصرفالآخرونالى دراستها والتعليق عليها٠ وان كان اسم ابن رشد كاد أنينسى في البلاد العربية والاسلامية ، لمدة سبعة قرون ، فقد ظل صداه يتردد في أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، واذا كان أثره في الثقافة العربية والاسلامية قد بقي ضئيلا ، بل كاد أن يكون معدوما ، فان تأثيرهكانقوياً نافذا فيتطوير الثقافة الغربية والفكرالأوربي

الحديث · يقول الدكتور محمد كامل عياد في مقالة بعنوان (تأثير ابن رشد على مرالعصور) قدمها في مهرجان ابن رشد الذي عقد في الجزائر عام ١٣٩٨ هجرية : « هكذا انتشرت حوالي منتصف القرن الثالث عشر مؤلفات ابن رشد بين الباحثين الأوربيين ، وشاعت آراؤه في أواسط المثقفين ، وتغلغلت فلسفته في الجامعات وبالأخص جامعة باريس · كان أكثر الأساتذة الذين سمح لهم بتدريس فلسفة أرسطو يعتمدون في الدرجة الأولى على شروح ابن رشد الذي اشتهر باسم الشارح ·

وقد امتازت طريقة ابن رشد في الشرح على غيرها لأنه كان يتناول النص بالايضاح فقرة ، فقرة ، ويفسر كلام أرسطو تفسيراً دقيقاً ، ويحلل معانيه تحليلا عميقاً · فكان يضع لهذه الغاية ، من الشروح ما هو صغير ومتوسط ، وكبير ، فهو اما أن يلخص ، أو يوضح باختصار ، أو يسهب في التفسير ويستطرد في التعليق · وهذه الطريقة التاريخية ملائمة لحاجات الطلاب ، ومفيدة في التعليم ، ولذلك نالت استحسان الجميع »(٢٢) ·

□ الحواشي :

١ ـ العلوم البحتة في الحضارة العربية والاسلامية للدكتور علي عبدالله الدفاع صفحة ٩٥ ـ ٩٦ ·
٢ ـ المصدر السابق ص ٩٤ ·
٣ ـ المصدر السابق صفحة ٩٣ ·
٤ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ـ مجلد ٦ ـ ص ٢١٢ ـ ط ٣ ·
٥ ـ عبقرية الحضارة العربية ـ منبع النهضة الأوربية ـ اعدد من المؤلفين الاجانب ترجمة عبدالكريم محفوض ـ اصدار وزارة الثقافة السورية بدمشق ١٩٧٢ ·
٦ ـ مائة اوائل من تراثنا للدكتور سهيل زكار دمشق ١٩٨٢ ·
٧ ـ تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون للدكتور عمر فروخ ص ٦٤٦ ·
٨ ـ طبقات الأطباء ـ ٢ : ٦٧ ·
٩ ـ تاريخ الأدب العربي لاحمد حسن الزيات ص ٣٦٣ ·
١٠ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، نقلا عن الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد في مقدمة حي بن يقظان ص ٢٢ ·
١١ ـ المصدر السابق ·
١٢ ـ ابن طفيل لتيسير شيخ الأرض ـ دار الشرق بيروت ط ١ ١٩٦١ ·
١٣ ـ الموسوعة الموجزة لحسان بدر الدين الكاتب (صاحب هذه الدراسة) الجزء الأول ـ صفحة (٢٣ ـ ٢٤) ـ دمشق ١٩٧١/٣/١١ ·
١٤ ـ تاريخ الأدب العربي لاحمد حسن الزيات ص ٣٦٣ ·
١٥ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٦/ص ٢١٢ ·
١٦ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ القاهرة ١٩٦٥ ·
١٧ ـ انظر الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة الفلسفية المختصرة وتاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون للدكتور عمر فروخ ص ٦٥٨ ـ ٦٨١ ·
١٨ ـ معجم علم الأخلاق ـ دار التقدم بموسكو ترجمة توفيق سلوم ١٩٨٤ ·
١٩ ـ عيون الأطباء لابن ابي اصيبعة ·
٢٠ ـ ابن رشد والرشدية لرينان ·
٢١ ـ الاسلام والعرب لرام لاندو ·
٢٢ ـ العلوم البحتة في الحضارة العربية والاسلامية للدكتور علي عبدالله الدفاع ·



حارس أعفي من الخدمة بعد ١٥٠٠ عام

محمود عصام الميداني

دمشق الفيحاء ، المدينة التي تحكي قـدم الانسان وعراقـة التاريخ ، والتي حباها الله موقعـا طيبا ، فقيل إنها « إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البـلاد » ، واذا كانت توصف بأنها مدينة خمسة آلاف العام التي لم تنقطع فيها الحيـاة ، فان لسورها فضلا كبيرا في الحفاظ عليها عبر جزء غير يسير مـن تاريخهـا الطـويـل ٠

يذكر ياقـوت الحموي في كتـابه معجم البلدان ، أن أول حائط بني بعـد الطوفان هو حائط دمشق وحائط حران ، ولعل هذه المبالغة بقدم تاريخ حائط دمشق أو سورها قد نجمت عن ارتباطه بتاريخ مدينة دمشق ، التي يرد ذكرها في كشوف إيبـلا منذ القرن الثالث والعشرين قبـل الميلاد ، كمـا يتردد ذكرها أيضاً في أخبار تحوتمس الثالث منـذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ٠

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن دمشـق مـن المواطـن الأولى للآراميـين ، والآراميون شعب عربي قـدم الى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية منـذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، واستقر في المنطقة الواقعة بـين جبل البشري وتدمر ، ومن ثم انطلق الى المناطق الخصيبة المجاورة ، فكانت دمشق أحـد منـازله ٠

وليس بالأمر المستغرب أن تصبح دمشق مركزاً هاماً للآراميين ، نظراً لما تتمتع بـه مـن موقع هام يغـذيه شريان مائي هو نهر بردى ، ويدلنا على ذلك اسمها الذي حملته وهـو (دار ميسق) والتي تعني الأرض أو الدار المسقية ، وهـذا ما يرسيه ويؤكـده الواقع الجغرافي للمدينـة ٠

والمعتقد أنها نشأت مدينة صغيرة وسط غوطة واسعة على الضفة اليمنى لنهر بردى ، ويؤكد الأثاريون أن المدينـة الآرامية كانت تشغل الجانب الغربي من مدينة دمشق القديمة

في منطقة تعرف اليوم باسم تـل السمّاكة ، يلاحظ فيها ارتفاع ظاهر يتراوح بين ٥ـ٦ أمتـار عـن الأحياء المجاورة ، ولا يستبعد الآثاريون أن تكون بقـايا قصـور ملوكهـا الآراميين مدفـونة تحت الحي القديم الآهـل بالسكان اليـوم ٠

وباحتكاك المدنية مع الشعوب المجاورة، بدأت تتجمع فيها أنشطة المنطقتين الوسطى والجنوبية مـن سورية ولتصبح من المراكز التجارية الهامـة آنـذاك ٠

☐ نشـأة السـور :

من المعروف أنه في عام ٣٣٣ ق٠م ، دخلت المدينة تحت حكم اليونان أيام الاسكندر المقدوني لتصبح فيما بعد من المدن السلوقية الهامة في المملكة السورية وعند البطالمة خلفاء الاسـكنـدر في مصـر ، وأصبحت عاصـمة لانطيوخوس السلوقي عام ١١١ ق٠م ٠

وباستيلاء القائد الروماني بومبيوس على دمشـق عام ٦٤ ق٠م ، دخلت دمشـق تحت حكم الرومان ، وصارت تؤلف صلة الوصل بين الشرق والغرب فازدهرت تجارتها وأينعت فيها الحياة العمرانية حتى غدت احدى الحواضر الهـامة ، مما دعـا الامبراطور سيبتيموس سيفروس الذي حكم بين عامي ١٩٣ـ٢١١م٠ وأصله من طرابلس بليبيا ـ ومن بعده ابنه



■ مدخل سوق الحميدية حيث كان باب النصر وتظهر القلعة في يسار الصورة ■

كاراكالا ٢١١ـ٢١٧ م من زوجته جوليا دومنه Julia Domna وهي من مدينة حمص بسورية ، الى بناء سور حجري حول مدينةدمشق يتناسب مع أهميتها حين أصبحت عاصمة المنطقة الجنوبية من سورية ،وعُدّت احدى المدن العشر المسماة « ديكابوليس Decapolis » وبدأت بذلكحياة السور ، ويغلب الرأي على الباحثين بان السور بُني بشكل مستطيل طوله ١٥٠٠موعرضه ٧٥٠ م وارتفاعه حوالي ١٠ م ، يُنفَذ الى داخله من خلال ثلاثة أبواب فيالشمال هي : باب توما وباب جينيق وباب الفراديس ، ومن بابين جانبيين هما : البابالشرقي والباب الغربي الذي دُعي فيما بعد بباب الجابية ، ومن بابين جنوبيين هما : بابكيسان (تذكر بعض المصادر أنه اسم من أصلح الباب زمن معاوية) والباب الصغير ،وفيدراسات حول السور رفض بعض الباحثين الشكل المستطيل وبأنه بني بشكل بيضوي قريب من مخططه الحالي باستثناء التعديل الذي حصل في شماله ·

هذا ولا يعلم مصدر الحجارة التي بنيمنها السور ، وان كنا نُخمّن أنها قد قطعت من الصخور الناشزة في منطقة الربوة ،وحُملت على مياه نهر بردى يوم كان غزيراً، وقبل أن تُشتَق منه الفروع لري غوطةدمشق ·

ومن الجدير بالذكر أن تخطيط المدينةوبناء السور ليسا من أعمال الرومانفحسب، اذ ان التاريخ يروي كيف كرّمت مدينةدمشق المهندس الدمشقي أبوللو دوروس Apollo Dorus في القرن الثاني الميلاديالذي بنى الجسر الحجري الشهير على نهر الدانوب ، وأقام ساحة تراجان Trajan في روما ، وأنشا العديد من الحمامات والأبنية والأقواس ، زيّن بها المنشآت أيامالامبراطورية الرومانية ، وكان من أثر هذا التمازج الحضاري بين الشرق والغرب ظهورالحضارة الهلنستية التيظهرت فيها الشخصية المتميزة لحضارة الشرق القديم · مما دفعالكاتب الروماني جوفينال المتوفى سنة ١٤٠م



■ جدار القلعة الشمالي حيث يجري ترميمه من قبل مديرية الآثار العامة ■

الى القول : «منذ زمن بعيد يصب نهر العاصي ماءه في نهر التيبر جالباً معه لغته الغريبة وعاداته وعوده وقيثارته » .

□ السور في العصر العربي الاسلامي :

ما ان امتدت الموجة العربية الاسلامية في المحيط العربي لاعادة تحرير البلاد ونشر الدين الجديد ، حتى ظهرت مقاومة دولة الروم في بلاد الشام يقودها جنود الاحتلال البيزنطيون من خلف أسوار مدينة دمشق . وخلال حصار المدينة عام ١٣ هـ/٦٣٤ م ، كان القائد أبو عبيدة عند باب الجابية ، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان أمام الباب الصغير ، وعمرو بن العاص أمام باب الفَرَج ، وكان ضرار بن الأزور في ثُلّة من الفرسان يطوف على الأبواب يجري الاتصال بين القواد العظام ، يُذكي الحماسة في النفوس ويحث الجند على القتال .

حاصر الجيش العربي دمشق نحواً من ٧٠ يوماً حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق، وكان القائد العظيم خالد بن الوليد ـ كما يذكر الطبري ـ لا يخفى عليه شيء من أمر الأعداء واتخذ كهيئة السلالم وأوهاقاً (الوهق حبل له أنشوطة) يرميها الجنود على الأسوار ، ولما ثبت وهقان منهما تسلقهما القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ، ويؤكد الطبري أن ذلك كان في أحصن مكان يحيط بدمشق وأكثره ماء وأشده مدخلاً ، حتى اذا استويا على السور كبّر الجند ومالوا الى الحبال فوثبوا فيها وفتحوا الأبواب ، ودخل الجيش من الباب الشرقي عنوة . عند ذلك افلت الأمر من أيدي المدافعين وعرضوا الصلح على أبي عبيدة وعوملت المدينة كأنها فتحت صلحاً بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب .

السور في العهـدين الأموي والعباسي :

وما ان استقرت الدولة الأموية في بلاد الشام حتى تبوأت مدينة دمشق مكانها اللائق كعاصمة للأمويين ، ولا يتردد ذكـر السور كثيراً في تاريخ الأمويين ، اذ انها كانت المدينة المنيعة ومركز الاشعاع الذي انطلقت منـه الشواتي والصوائف تـثـبّت دعائم العروبة والاسلام في أقاصي بلاد الشـام وبتجاوزها منطلقه الى بلاد ما وراء النهر شـرقاً والى الأندلس وأواسط فرنسا غرباً وفي هذا يقول أمير الشعراء :

لولا دمشـق لمـا كانت طليطلـة   ولا زهت ببني العباس بغـدان

ويحدثنا مؤرخو هذه الفترة عن أحواض الميـاه والنوافير والسقايات (السُبُل) التي كانت مثبتة عنـد أبواب السور وفي ساحات المدينـة وشوارعها ، وكانت تبنى القصور خارج السور ، كالقصـر الذي ينسب الى الحجاج بن عبدالملك (في دمشق حـي يعرف بقصر الحجاج) ، وقصـر عاتكة مكان الحي المعروف بقبر عاتكة وهما جنوب غرب المدينة القديمـة ، وكـذلك بدأت تظهر الميـادين والساحات خارج السور لحفلات الفروسـية والمقابر خارج المدينة وعند أبواب السور .

وبانتقـال الخلافـة الى العباسيين ، انتقلت العاصمة الى بغـداد وهُدم السور منـذ عام ١٣٢ هـ/٧٥٠ م ، وفقد أهميته وتحولت المدينـة الى احيـاء مغلقـة تعيش حياتها الخاصـة ، واقيمت البـوابات بـين الأحيـاء ، وفي كل حي كان يقـام المسجد والحمّام والسوق وكأنها قرى مستقلة ، الا انها كانت ترتبط بمركز المدينة وهو جامعها الكبير (المسجد الأموي) .

ثم عادت للسور أهميته وحظيت المدينة بالاهتمام والرعاية وبخاصة أيام نورالدين زنكي ٥٤٩ـ٥٧٠ هـ/١١٥٤ـ١١٧٤ م ، وكان من الأعمال الهامـة التي قام بهـا اعادة السور وتدعيمه بالأبراج القوية ، واقامة الأسواق والمساجد الى جانب الأبواب . ولم يكن عدد الأبواب ثابتاً خلال فترات التاريخ ، فمـا ان يُهدم السور حتى يعاد تجديده ، فتُفتَح أبواب وتغلق أخرى ، وعندما امتدت المدينة خـارج السور في جزئهـا الشمالي ، انتقـل السور ليساير نهر بردى بعد أن كان يساير أحد فروعه ، وأطلق على الحي الجديد اسم (بـين السورين) وما يزال هذا الحي محتفظاً باسمه ومظهره القديمـين .

ولقد كان تدعيم السور وتجديده ضمن خطـة للوقوف في وجـه الحملات الصليبية والعامل طبيعي هو تعرض سورية لسلسلة من الهزات الأرضية كما يـذكر ابن القلانسي في كتابه تاريخ دمشق ، وبأنه خلال العامين ٥٥١ و ٥٥٢ هـ/١١٥٦ و ١١٥٧ م ، قـد أصابت الزلازل مدن حلب وشيزر ودمشق تهدمت خلالها الدور في حلب وانهار حصن شيزر ، وهو يذكر في تأريخه ليوم ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٥٢ هـ أن دمشق ضربتها ست هزات أرضية في يوم واحد ، ويبدو أن هذه العوامل مجتمعة دعت نورالدين الى تجديـد

السور وبناء الأبراج وفتح البوابات ، وزوّدكل باب بسويقة (باشورة) صغيرة وأقام المساجد على الأبواب ، وليستمر الاهتمام بالسور زمن صلاح الدين الأيوبي ومن خَلَفَه من الأيوبيين ٠

ونظراً لأن المدينة كانت في حالة حرب مستمرة زمن الحروب الصليبية فقد بنيت قلعة دمشق على أنقاض قلعة قديمة كان قد بناها الأمير السلجوقي تتش عام ٤٧١ هـ/١٠٧٨م، في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة وأعيد اصلاحها عام ١٢٠٦ م ، وما تزال القلعة قائمة الى اليوم شامخة بقامتها المهيبة تطل من علٍ بجدرانها وأبراجها تروي قصة صمودها في وجه الطامعين ، وقد عملت مديرية الآثار العامة على كشف جدرانها بهدم البيوت والأسواق التي التصقت بها على مرّ الزمن لاظهار هذا الأثر بالشكل الذي يتناسب مع أهميته ٠

ويكبو السور إثر الاجتياح المغولي عامي ١٢٦٠ و ١٤٠٠ م خلال الهجمة الوحشية على بلاد الشام والرافدين ، ولكنه يعود للظهور مرة أخرى أيام العثمانيين وليبدأ السكان ببناء منازلهم خارج السور مع توسع المدينة وازدياد عدد سكانها، واعتلته مساكنهم في كثير من أجزائه ، وتُركت القلعة بعد أن بقيت فترة من الزمن سكناً للوالي العثماني وبقيت ملجأ للسكان عندما تنهار مقاومة السور أمام الولاة المتصارعين ، وظهرت أحياء جديدة خارج السور كحي القنوات وسويقة صاروجة ، وكانت الأحياء تمتد باستحياء وبحذر ورهبة شديدين خلال فترات الأمن ، ليعود أهلوها للالتجاء الى حنايا سورهم أيام الأزمات والمحن ٠

وفي أيام والي دمشق محمد العظم نُظِّم القسم الغربي من سوق الحميدية ٠ واقيمت المشيرية العثمانية مكان القصر العدلي اليوم(غرب مدخل سوق الحميدية حاليا) خارج حدود السور ، وكان ذلك عام ١١٩٥ هـ/١٧٨٠ م، مما دفعنا الى اعتبار هذا التاريخ هو نهاية خدمة السور لمدينة دمشق رسمياً ٠

هذا ولم يبق من هذا السور الا الجزء الذي بين باب السلامة وباب توما ، وجزء بين الباب الشرقي وباب توما ، والجزء الذي بين الباب الشرقي والزاوية الجنوبية الشرقية من السور وجزء آخر عند الباب الصغير ،وكذلك جزء كشف عنه حديثاً جنوب باب النصر في القسم الغربي من السور ، وما تزال فتحات الأبواب قائمة الى اليوم ومنها ما يزال يحتفظ بالأبواب الحديدية الضخمة ، عدا باب النصر الذي هُدم وباب جينيق الذي لا يعرف مكانه بالضبط ٠

أما اليوم فتقف بقايا السور والقلعة مع الأبواب المتبقية تُذكّر بتاريخ دمشق وأحداثها ، وفي هذه البقايا حجارة منذ أيام الرومان وأخرى زمن نورالدين وثالثة مملوكية وفوقها حجارة عثمانية . يمثل كل صفٍ منها عهداً أو حضارة عاصرت حضارة

دمشق التي تمثلت تلك الحضارات وتفاعلت معها وتراكمت فيها معطياتها ، وكانت المدينة تصل بين هذه الأحجار بملاط طابعه عربي اسلامي حفظ لها أصالتها وأبقى لها طابعها العربي الأصيل ، الا أنها قد تجددت اليوم وتحولت الى مدينة تضارع مدن الحداثة في العالم ، محتفظة في الوقت نفسه برونق الأوابد الأثرية ، ومنها سورها العظيم ، الذي دافع عنها لأكثر من خمسة عشر قرناً من الزمن وكان لها الحارس الأمين .

محمود عصام الميداني

★ ★ ★

□ مراجع البحث :

١ ـ تاريخ الطبري .... ابن جرير الطبري

٢ ـ خطط الشام .... محمد كرد علي

٣ ـ تاريخ دمشق .... ابن القلانسي

٤ ـ مجلة الحوليات الأثرية لعام ١٩٧٩ .... د. عبدالقادر ريحاوي

٥ ـ موجز تاريخ سورية القديم .... د. حرب فرزات

٦ ـ آثارنا .... د. أبو الفرج العش

٧ ـ دمشق وأهميتها العمرانية .... بشير زهدي

٨ ـ نزهات أثرية .... د. سليم عادل عبدالحق

٩ ـ الآثار الاسلامية في مدينة دمشق .... كارل ولتسينجر

١٠ـ قلعة دمشق .... د. عبدالقادر ريحاوي

١١ـ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى .... فيليب حتي

★ ★ ★

تلخيص المتشابه في الرسم
وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم

تاليف : الخطيب البغدادي　　تحقيق : سكينة الشهابي　　عرض : د. نسيب نشاوي

عودتنا الأديبة الباحثة الأستاذة سكينة الشهابي على تلقي بحوثها في التراث العربي الاسلامي واحياء ما اندثر من المخطوطات النادرة ، وقد أخرجت مؤخراً ١٩٨٥ م موسوعة أعلام المحدثين : « تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم » للخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ صاحب « تاريخ بغداد » العالم المصنف العظيم المشهور . مؤلفاته تزيد عن الستين ما زال أكثرها مخطوطاً وقد نشر منها القليل مثل كتاب « البخلاء » ١٩٦٤ م بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب وزملائه وكتاب « التطفيل وحكايات الطفيليين » ١٩٦٦ م بتحقيق الاستاذ كاظم جعفر ، وكتاب « الفقيه والمتفقه » ١٣٨٩ هـ بتحقيق الشيخ اسماعيل الانصاري ، وكتاب « اقتضاء العلم والعمل » ١٣٨٦ هـ بتحقيق الشيخ ناصر الدين الالباني ، وكتاب « الرحلة في طلب الحديث » ١٩٧٥ م بتحقيق الأستاذ نور الدين العتر، وكتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ١٩٨٣ بتحقيق الدكتور محمود الطحان .. عدا عن « تاريخ بغداد » ١٩٣١م، والكتاب الذي نحن بصدده « تلخيص المتشابه وحماية ما أشكل منه » ١٩٨٥ م .

للأستاذة الفاضلة سكينة الشهابي محققة « تلخيص المتشابه » تجربة راسخة وأصيلة في معرفة التراث العربي وتحقيقه ونشره واحياء مخطوطاته ، فقد أمضت ثلاثة عشر عاماً في مجال البحث العلمي بمجمع اللغة العربية بدمشق ـ وما تزال ـ تطالع كنوز المخطوطات وتستكشف أسراره وتنوه بعظمتها وخفاياها وتحيي ما درس منها ... وقد أغنت المكتبة العربية بنشرها كتاب « تلخيص المتشابه » محققاً تحقيقاً علمياً لا ريب .

استعانت المحققة بعدد من النسخ المخطوطة المحفوظة بمكتبات الوطن العربي ، فصورت نسخة من دار الكتب بالقاهرة وأخرى من تونس وثالثة ورابعة من الظاهرية بدمشق وخامسة

من القدس ، وفي ضوء ما جاء في النسخ جميعاً بذلت الجهد لتقويم النص المخطوط واعطائه شكله السليم مستعينة بالمصادر تارة وبالاجتهاد الشخصي تارة أخرى الى أن تم لها وضع التصور النهائي للنص الأصلي ، فالكتاب الذي تقدمه كتاب رجال فيه نحو ١٤٤٢ ترجمة علاوة على ما ورد فيه من أحاديث نبوية يزيد عددها عن ألف حديث شريف ·

كانت غاية الخطيب البغدادي رحمه الله أن يجمع في كتابه الأسماء المتشابهة في الرسم لحمايتها من التصحيف والتحريف وهي أسماء رواة الحديث النبوي ليس غير وقد أورد في خطبة الكتاب قول علي بن المديني : « أشد التصحيف التصحيف في الأسماء » ، نورد فيما يلي مقتطفات من خطبة الكتاب المحقق توضح أبوابه وفصوله :

« ·· الحمد لله الذي بفضله ونعمته تتم الصالحات ·· ثم اني رسمت في هذا الكتاب ، بتوفيق الله وعونه من أسماء المحدثين وأنسابهم ومن الأسماء والأنساب التي يدونونها في كتبهم ما تشتبه صورته في الخط دون اللفظ ، مفرداً عما يقع الاتفاق فيه حال النطق به ، والكتب له ، اذ كنا قد فرغنا قبل من ذلك النوع في كتابنا الذي ألفناه في « المتفق والمفترق » وقد جعلت هذا المرسوم فصولا خمسة كل فصل منها يشتمل على أبواب عدة يتضمن كل باب تراجم كثيرة :

- ذكرت في الفصل الأول ما تشتبه صورته في الخط وتتفق حروفه في الهجاء ·
- وفي الفصل الثاني ما يشتبه في الخط ، وهجاء بعض حروفه مختلف ·
- وفي الفصل الثالث ما كان في بعض حروفه تقديم على بعض مع اتفاقها في الصورة ·
- وفي الفصل الرابع ما يتقارب لاشتباهه ، وبعض حروفه مختلف في الصورة ·
- وذكرت في الفصل الخامس نوادر هذا الكتاب ، ولخصت جميع ذلك وقيدته بذكر لفظ حروفه وشكلها وتسمية شيوخ المذكورين الذين سمعوا منهم ، وخالفيهم الذين صحبوهم ونقلوا عنهم وسياق بعض رواياتهم وأخبارهم ··

·· كان وكيع بن الجراح كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

خلق الله للحديث رجالا ورجالا لآفة التصحيف

، الكتاب كما تقول المحققة « قطعة خالدة من التراث » وقد وثقته بالكتب وحرصت فيه على ما حرص عليه الخطيب من تقديم الرجال وضبط أسمائهم أو أسماء آبائهم ، كما كانت غايتها أيضاً في تخريج الحديث ، ضبط روايته وتسهيل فهمه ، اعتماداً على الكتب الصحيحة الستة أولا ثم على الكتب الشاملة مثل « الجامع الصغير » و « كنز العمال » ثانياً بادئة برواية الخطيب نفسه في تاريخ بغداد ·

وللأستاذة سكينة الشهابي فرع آخر من حياتها العلمية وقفته على مصنفات الحافظ ابن عساكر صاحب كتاب «تاريخ مدينة دمشق» فقد نشر لها مجمع اللغة العربية بدمشق عدة أجزاء من هذا الكتاب لا يقل الجزء الواحد عن ألف صفحة من الحجم الكبير منها :

ـ جزء (عثمان بن عفان) ١٩٨٤ م ٠

ـ ثم الأجزاء ٣٨ ، و ٣٩ و ٤٠ من هذا التاريخ الضخم ٠

ولها أيضاً تحقيق كتاب « المعجم المشتمل» للحافظ ابن عساكر ـ طبعته دار الفكر بدمشق ـ ١٩٧٩ ، وكتاب « المنتخب من كتاب أزواج النبي » للزبير بن بكار طبعته مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٣ م ٠

وأخيراً جاء هذا « تلخيص المتشابه في الرسم » ١٩٨٥ م للخطيب البغدادي ٠

وكأنما استقت من العالمين الكبيرين الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ والحافظ ابن عساكر ت ٥٧١ هـ حب البحث وتعميق النظر وتدقيق الأخبار وسعة الاطلاع وكثرة المحفوظ من القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي وأنساب العرب وقبائلهم وأخبارهم وأسماء محدثيهم وألقابهم وكناهم وسلاسل اسنادهم ٠٠

وكثيرا ما تقرن اسمي الرجلين الخطيب البغدادي والحافظ ابن عساكر تستعين بكتب أحدهما لمعرفة الآخر وتنوه بفضلهما وعلمهما وسبقهما زمانيهما على بعد ما بينهما ٠

أحبت في الخطيب البغدادي وفي الحافظ ابن عساكر زهدهما وغناهما عن الناس وكبحهما جماح النفس وبعدهما عن مزالق الهوى علاوة على منهجهما العلمي النادر المثال ٠٠ وأوردت في مقدمتها للكتاب «تلخيص المتشابه » قطعة من شعر الخطيب البغدادي نقلتها عن ابن الجوزي صاحب «المنتظم» تفصح عن صلابة عود الخطيب وتحمله ضربات الزمان ومذهبه في الحياة ٠٠ وفيها قوله :

لعمرك ما شجاني رسم دارٍ وقفت به ولا ذكر المغاني
ولا أثر الخيام أراق دمعي لأجل تذكري عهد الغواني
ولا ملك الهوى يوما قيادي ولا عاصيته فثنى عناني
عرفت فعاله بذوي التصابي وما يلقون من ذل الهوان
فلم أطمعه في ، وكم قتيل له في الناس ما يحصى وعاني
طلبت أخا صحيح الود محضا سليم الغيب مأمون اللسان
فلم أعرف من الاخوان الا نفاقاً في التباعد والتداني

وللأستاذة الشهابي منهج في التحقيق التزمته وسارت عليه لاستكشاف كنوز التراث ٠

التّراث العَربي .. خطة ومنهج*

د. شكري فيصل

١ ـ المقدمة :

● مكانة التراث في حركتنا الثقافية :

يشغل التراث العربي من نفوس المعاصرين مثل المنزلة التي شغلها في نفوس أصحابه حين كانوا يعكفون عليه : ينشئونه أو يصنعونه .. انه يمثل عبقريتهم وخبرتهم وثقافتهم ، على نحو ما يمثل في وجدان المعاصرين بواعث هذه العبقرية ومظاهر هذه الخبرة والطريق الى تحديث الثقافة .. انه يكون منا (نحن ـ الماضي) وبالتالي يكون (نحن ـ المستقبل) بمقدارما يكون من تأثير الماضي في صياغة المستقبل ، وبمقدار ما نستطيع أن نجهد نحن في فهم هذا الماضي وأن نعمل في سبيل الارتفاع فوقه والاضافة عليه .

والاجماع منعقد بين دارسي النهضات على أن بذور المستقبل لا تنفصل عن تراب الماضي ، وأن النظرة الى وراء انما هي شرط لتصويب النظرة الى أمام .. وأن في الحياة العربية الماضية من الحوافز والتجارب والمبادرات والابداعات ، ما لا يمكن أن نستغني عنه في تطلعها نحو الآتي .

★ بحث لم ينشر كان المرحوم كتبه لاحدى اللجان في معهد المخطوطات العربية بالكويت .

فلا عجب اذن أن يشغل هذا التراث أذهان المعاصرين وأن يلتفتوا اليه بالعين الفاحصة ، وأن يقيموا بينه وبين حركتهم المعاصرة هذه الجسور التي تمر من فوقها أجيال المستقبل في طريقها الى بناء هذا المستقبل ، والى تصميم مساراته حيناً، أو املائه بالقوى الخفية الفاعلة حيناً آخر ٠

ولقد التقى على الاهتمام بهذا التراث العرب والمستعربون ، الشرقيون والمستشرقون ٠٠ واجتمع عليه أعداؤه وأصدقاؤه ٠

فأما أعداؤه فقد أدركوا منذ حين بعيد أنهم لا يستطيعون أن يقيموا هذا الجيل من الناس اليوم ، وهو فهم يهدف الى السيطرة والاستثمار والغلبة والاحتواء والالتهام ـ الا اذا فهموا جذوره الأولى ، وادركوا بدايات هذه الجذور أو عرفوا تربتها ومسالكها الى النمو ليكون عملهم نقيضاً لهذا النمو وتضاداً معه ٠٠ ولذلك وضعوا أيديهم على كل مظاهر الفرقة فيه ، فأحْيَوا هذه الفرقة ، وأمسكوا بكل مظاهر الضعف فأفادوا منها لتأصيل هذا الضعف ، وفقهوا كل أسباب القوة والابداع فقطعوا هذه الأسباب الى كل مظاهر الابداع ٠٠ ولم يدعوا منفذاً من منافذ الشك الا سلكوه اليه ولا صورة من صور التوهين الا هالوها عليه ٠

وأما أصدقاؤه فقد راوا فيه كذلك بداية التعرف الى الذات ، ولكن لا لطمسها كما فعل الأعداء ، بل للانطلاق بهذه الذات ، وأيقنوا أنهم حين يريدون أن تخلص حياتهم في الحاضر مما أصابها من عوج أو أمت فانهم لا بد لهم أن يتبينوا مصادر هذا العوج وبدايات هذا الأمت ،وأن يكونوا من ذلك على بصيرة ٠٠ وانهم حين يريدون الاسهام في الحياة الحضارية المعاصرة فانهم لن يجدوا دوافعهم المحركة الى ذلك الا اذا استمدوا من هذا التراث ما يؤكد عندهم قدرتهم ويضع أمام أعينهم تجاربهم السابقة ٠٠ ان هذا التراث هو جواز دخولهم الى موكب الحضارة المعاصرة ومشاركتهم فيها ٠

التراث اذن والاهتمام به ليس عملا تاريخياً ماضياً بقدر ما هو عمل حيوي مستقبلي ٠٠ والأمر لا يمكن أن يبقى ،كما هو الأن ، في حدود الوفاء النظري له والاشادة العاطفية به ٠٠ وانما هو كذلك، أو قبل ذلك ، في الانتفاع به ، والوفاء

لأنفسنا من خلاله ٠٠ انه ليس زينة ،ولكنه سلاح ٠٠ وليس تباهياً وادلالا ، ولكنه قبل ذلك نوع من الاعداد ولون من كسب الثقة بالنفس ٠ والثقة بالنفس أشد ما تحتاج اليه الشعوب في هذا التفجر الحضاري المتسارع ٠

ومن أجل هذا اكتسب التراث في نفوسنا نوعاً من القداسة ٠٠ لا أستعمل الكلمة بمعناها أو بظلالها الغيبية ، وانما أريد منها معناها الشاهد ، معناها الموضوعي ، الذي يولد في النفس العربية ألقها ويحفظ عليها بريقها وتوهجها ، والذي يضع الأسس لاقرارها على أصول سليمة ، تنطلق من القولة التي كان أطلقها أستاذنا الشيخ أمين الخولي : ان أول الجديد قتل القديم فهماً ٠

٢ ـ العمل للتراث في الماضي :

لقد ابتدأ الاهتمام بهذا التراث مع بدايات النهضة ٠٠ ولكن العناية به على مدى هذين القرنين : التاسع عشر والعشرين كانت هذه العناية الممزقة ان صح التعبير ٠٠ لم يكن لهذه العناية منهج مرسوم ، ولم يكن وراءها نظرة كلية سابقة على العمل ، ولم تنهض به قوة واحدة مؤتلفة ٠٠

كانت قوى الوطن العربي والبلاد الاسلامية مشتتة ، وقد جوبه الاهتمام بهذا التراث مشتتاً ٠٠ بدأ كل من حيث استطاع أن يبدأ ، وعمل كل في الاتجاه الذي استطاع أن يعمل فيه ٠٠ ونهضت الحكومات أحياناً بهذا العبء في بعض البلاد ، مصر مثلا ، واحتمل العبء مؤسسات أو أفراد أو جماعات في بلاد أخرى ٠٠ وانعكست كل مظاهر التجزئة النفسية والفكرية والسياسية على العمل في هذا التراث حين عملنا له وعلى اهماله حين أهملناه ٠٠ واستبدت بالتوجه نحوه والعمل له اتجاهات مختلفة يمكن أن تكون موضع بحث دقيق خاص ، لعل هناك من ينهض به ويربط بينه وبين مظاهر الحيوات الأخرى ٠٠ وأصبحنا ندرك بوضوح ، يوماً بعد يوم ، أن هذا التراث ـ وهو بطبيعة الحال تراث مشترك ـ لابد فيه من عمل مشترك ، وأن ثقل الحمل يقتضي ، أول ما يقتضي ، التعاون على حمله ، وان انتسابه الى الوطن العربي والبلاد الاسلامية يحتم ان يكون العمل فيه نقطة التقاء بين أطراف الوطن العربي والبلاد الاسلامية ٠٠ وان النظر الجزئي له انما هو استمرار لروح التجزئة ،والعمل المشتت فيه انما هو تغذية لهذا التشتت والفوضى ، واطالة لطريق الهدف ، وتعويق لحركتنا في الوصول اليه

من هنا يستمد العمل للتراث واهتمام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم به قيمته ·· انه جزء من العمل الصامت للوحدة والعمل الصلب لها ·· العمل الذي يؤتي ثمرته باذن ربه كل حين ·

٣ ـ نحو خطة عمل جديدة : الميادين الخمسة :

ولكن كيف نستطيع أن نعمل للتراث عملا مشتركاً اذا كان التفتيت هو الذي يطبع الحياة العربية ويبدد جهودها ؟ ··ان ذلك يقتضي توليد النقيض من النقيض ·· ولن يكون صعباً اذا توفر لنا الايمان بأن العمل للتراث هو في ذاته عامل وحدة ، وان من واجبنا أن نجنب هذا الميدان أن يؤول ـ كما آلت اليه ميادين كثيرة في الحياة العربية ـ اقليمياً ضيقاً ·

قد تتكاثر الآراء ، وتختلف المناهج، ولكنني أرجو أن أقترح الخطة التالية :

يبدو لي أن العمل في التراث يمكن أن يتحرك في الميادين الخمسة التالية ، أو المراحل الخمس التالية :

الميدان الأول : مرحلة التعرف :

ليس هناك من يزعم أننا نعرف هذا التراث كله ·· اننا نعرف بعضه ، ولا نزال نجهل الكثير منه ·· فنحن نجهل مواطنه التي تبدد فيها ، ونجهل ما تضمه هذه المواطن بعد أن توزعته أقطار ومكتبات وأفراد وجماعات في الشرق والغرب ·· ولذلك فان من الطبيعي أن نجهد في خطوتنا الأولى ، لمعرفة هذا التراث وتوزعه .. وهي معرفة تتدرج في مستويين متعاقبين :

أ ـ معرفة أولية سريعة للأمكنة التي تفرق فيها هذا التراث أو للأمكنة التي نقدر أن يكون فيها ·

ب ـ معرفة مفصلة للمخطوطات ذاتها ·

أ ـ في المعرفة الأولية :

هناك مجموعات وكتل من هذا التراث لا تزال مستغلقة على الوصول اليها ·· فهل نحن على معرفة دقيقة بكل مجموعات التراث في آسيا مثلا أو في افريقيا ؟ في

الأقطار الاسلامية التي يشغلها الاتحاد السوفياتي أو في بعض مقاطعات الهند ؟..
في المساجد أو الزوايا أو البيوتات الخاصة في المشرق العربي أو في المغرب العربي ؟..
ودع عنك ذكر المراكز الأخرى التي تشتت فيها هذا التراث ٠

ب ـ وأعني بالمعرفة المفصلة :

أن نتبين تفاصيل هذه الكتل والمجموعات ٠٠ وأن تكون لدينا قوائم تمهيدية تدل عليها ، وتيسر السبيل من بعد الى التعرف الدقيق لها ٠

الميدان الثاني : مرحلة الجمع :

اذا كنا لا نملك أن نستعيد هذه الثروة من البلاد التي آلت اليها ـ وهو أمر أحسب أن من الواجب أن نتحرك نحوه ـ واذا كنا لا نملك أن نعاود تجميعها في مكان واحد ٠٠ فان المعطيات التقنية الحديثة ، وكذلك تجاربنا السابقة في معهد المخطوطات ـ تمكن لنا ، في كثير من اليسر ، أن تكون عندنا صور دقيقة « أفلام » لها ٠٠ ألم يكن ذلك هو الذي ابتعث فكرة انشاء معهد المخطوطات ؟!٠٠٠

ان هذا الجمع اذا تيسر انجاز ضخم في نطاق احياء التراث وفي نطاق النهضة السليمة ، وتصحيح لحركة الاحياء هذه ٠٠ فكثيراً ما نعمل في كتاب ونحن لا نجد نسخه الأفضل ، وكثيراً ما نقدم أعمالا ثانوية على أعمال رئيسية ، وأعدنا طبع كتب سقيمة طبعاً تجارياً وكان من الممكن اعادة النظر فيها ٠٠ وقد اضطررنا أحياناً الى طبع كتب قبل أن تطبع أصولها التي أخذت عنها ٠٠ ومثل هذا الجمع ذو أثر كبير على احكام العمل بعد في المراحل التالية ، وتوجيهه توجيهاً سديداً لا نقدم معه على عمل قبل استكمال مواده الأولى استكمالا جامعاً أو قريباً من أن يكون جامعاً ٠

الميدان الثالث : مرحلة الفهارس الأولية :

اجتماع مصورات هذه المخطوطات في بلد عربي ، أو في عدد من البلاد العربية يفتح الطريق عريضاً أمام عمل تنظيمي آخر شاق هو اعداد الفهارس الأولية وطباعتها طباعة مبدئية على شكل قوائم ، وتعميم نشرها على المؤسسات العلمية في الوطن العربي كله ٠

الميدان الرابع : مرحلة الفهارس الدقيقة :

وذلك عمل علمي يحتاج الى ان نعدله منذ الآن ·· لأنه يقتضينا مجموعات من العلماء في كل فرع من فروع الثقافة الاسلامية ، ينقطعون لهذه الفهرسة العلمية ، ويقصرون جهدهم عليها ··وحسبهم أن يكونوا رواد هذا التراث ، وحسبهم من عملهم العلمي أن يمكن لهم من التعريف به وفتح الأعين عليه ·

وهذه المرحلة في حقيقتها تمهيد لعملية التحقيق في المرحلة التالية ، لأن معرفة النسخ وتقييمها وانسابها ومصادر مؤلفيها يوفر كثيراً من الجهد في عملية التحقيق ، ويمهد لها ·

الميدان الخامس : مرحلة التحقيق والنشر:

وهذه المرحلة ثمرة المراحل السابقة، ثم هي بدورها بذرة الحركة العلمية التي نريد أن نضطلع بها ·· ان نشر هذا التراث نشراً محققاً هو السبيل الى الافادة منه ثم هو السبيل كذلك الى تصفيته وتنقيته وتجاوز تراكماته، واعادة تكوين صورة الحياة العلمية العربية في حركتها طوال القرون منذ أن كانت نشأتها الى أن كان ازدهارها ثم كان توقفها ·· ونحن في حاجة الى هذه الصورة لتجلية المشكلات التي علقت بتاريخنا ··

ان أي أمر علمي نفكر فيه الآن من مثل تجديد كتابة التاريخ ، وتوثيق النصوص ، واعداد المعجم التاريخي ، ودراسة التطور اللغوي ، ومعرفة المنحول والموضوع، وتبين العناصر الثابتة والمتحولة ·· ان كل ذلك مرهون بنشر مالم ينشر من هذا التراث على هذا النحو العلمي الذي يمهد الطريق الى الدراسات العلمية ، ويوفر كثيراً من الجهد في سبيلها·

ولن يكون مقبولا أن نتابع طرائق النشر التي كانت منذ بداية النهضة ·· انه لا بد من أن يكون لنا طرائقنا الجديدة في النشر : طرائق تستفيد من التقنيات الحديثة من جهة ، وتمهد لاستخدام هذه التقنيات وبخاصة في مجال الحاسب الآلي.. فلم يعد سراً أن جهوداً كبيرة نستطيع أن نحتفظ بها اذا نحن أخضعنا عملية التحقيق والنشر بحيث نستطيع أن نستخدم بها بعد ذلك الحاسب الآلي ·· وهو أمر

له آثار كبيرة على حركة الفهرسة والتثبت والتوثيق والوصول السريع الى المواد اللازمة لدراسة موضوع ما في الثقافة الاسلامية ٠

* * *

٤ ـ صعوبات مترقبة :

وبعد ، فأنا أقدر أني تحدثت عن هذه المراحل الخمس حديثاً موجزاً جداً ٠٠ ان كل مرحلة منها في حاجة الى فيض من الدراسات ، وفي حاجة الى كثير من الاعداد ، حتى تقود الى المرحلة التي تليها ، وحتى تحقق المراحل في مجموعها غايتها البعيدة ٠

ان لكل من هذه الميادين مشاكلها العالقة بها ٠٠ ففي ميدان التعريف بالجمع نواجه مشكلة الصلة بالبلاد التي هُجّراليها هذا التراث ومزق فيها ، وموقف هذه البلاد ، أوروبية أو اسلامية ، من التعاون معنا في هذا السبيل ٠٠ فهناك قيود مطروحة ، وهناك حذر ، وهناك معارضات ، وهناك عصبيات ٠٠ وتلك أمور يجب أن تنهض بها الأجهزة السياسية في الجامعة العربية وفي ميدان الفهارس الأولية أو التفصيلية نحتاج الى أعداد كبيرة من المتخصصين لأن هذه الفهارس التحليلية هي نصف الطريق الى البحث العلمي والدرس الجاد وهي التي تضمن تنظيم الجهد وتوفير الوقت ٠

وفي ميدان التحقيق والنشر نحتاج الى جهود ضخمة من جهود العاملين في التحقيق والمتخصصين في الطباعة ، كما نحتاج الى اصطناع منهج واحد أو مناهج متماثلة تعين على النهوض بهذه المرحلة ٠٠ وتبدو لنا هنا مشكلة تضام الجهود وتكاملها ومعرفة السبيل الى ذلك مشكلة واضحة حقاً أمام هذا التنابذ السياسي الماثل ٠

ولست الآن لأحصي هذه المشاكل والصعوبات ، والخطط التي يمكن أن تستخدم لتذليل هذه الصعوبات ٠٠ ولكني قدمت الاشارة الى بعضها وألفت الآن الى بعض آخر :

من ذلك أن نتساءل : هل تجمع هذه المصورات في بلد واحد ؟ ٠٠ وهل نقيم فروعاً في الكليات لتحقيق التراث ، أم تؤسس معاهد مستقلة ؟ ٠٠ وهل تكون هذه المعاهد في بلد بعينه أم في عدد من البلاد ٠٠ وهل تتولى النشر شركة واحدة

أم تتصرف فيه الفعاليات العلمية في كل بلد على هواها ٠٠ وهل نستخدم المركزية الضيقة أم نوزع المسؤولية بين الأقطار العربية ، أم نزاوج بين المركزية وبين توزيع المسؤولية يتولى ذلك جهاز قادرتوضع بين يديه الامكانات المختلفة ؟ ٠٠ الى آخر الأسئلة المشابهة التي تفرض نفسها ٠

٥ ـ ثلاث ملاحظات :

وأخيراً لا أجد بدأ من ابداء الملاحظات التالية :

أولا :

ان الأخذ بهذا الاسلوب المرحلي في الميادين المختلفة ليس بديلا مباشراً عن الأوضاع السائدة ولا الغاء لها ، ولكنه تمهيد لوضع أفضل ٠

ولهذا فان الأوضاع السائدة يجب أن تستمر مهما تكن درجة فعالياتها ، ومهما تكن مظاهر التناقض فيها ٠٠ ان النقد والتوجيه مما يساعد على ترشيدها والتنسيق بينها ٠٠ ولذلك يجب أن يقترن هذا المشروع المقترح بسلسلة من التدابير التي توائم بينه وبين الواقع الحالي بحيث ينصهر هذا الواقع الحالي بعد ذلك في اطار هذا المشروع ويكون من صلبه ٠

ثانيا :

ان هذه المرحلة في العمل لا تعني أن تكون مرحلية زمنية بحيث نعمل في المرحلة الأولى أولا ثم نعمل في التي بعدها ٠٠ولقد قرنت بين تعبيري : الميدان والمرحلة قاصداً الى ذلك ، فالمراحل متداخلة متكاملة على نحو تداخل الميادين وتكاملها ٠٠ ونستطيع ، في حدود ما بين أيدينا من وسائل ومواد ومشاريع أن نمضي قدماً هنا أو هناك ، في هذا الميدان أو ذاك ٠

ان طبيعة هذا العمل أنه متنام دائماً وانه لا حدود له ٠٠ لأن هناك كشوفاً كثيرة عن المخطوطات ٠٠ولهذا فان العمل في أي مرحلة يمكن أن يكون رافداً للعمل في المراحل الأخرى ٠

ثالثا :

وأياً كان الحال فان الذي يجب الا يغيب عن أذهاننا أننا في حاجة ماسة الى الاستعانة بالخبرات العملية المتجددة في نطاق النسخ والتصوير والتكبير والنقل

لأن الأخذ بها يمكن أن يكون توفيراً لكثير من الجهود ·· وأقترح هنا أن تكون عندنا اتصالات عملية بالمؤسسات التي تعنى بهذه الأشياء امتحاناً للاستفادة من خبراتها المستحدثة ·

ان عملنا في التراث يحتاج الى الافادة من كل ما في المعاصرة من تقنية يمكن استخدامها ·· انه يحتاج الى ثورة رشيدة، ولا يمكن أن يكون كاملا في نطاق تصوراتنا التي ألفناها منذ بدأنا معهد المخطوطات ، لأن التصورات العملية والعلمية تسبقنا في ذلك ·

* * *

٦ ـ الخاتمة :

أيها الأخوة والزملاء ،

اني أعرف أن ما يدور في ذهن كل واحد منا هو ـ أو بعضه ـ مايدور في ذهن الآخر ·· وقد يكون ما عندكم أضعاف ما عندي ·· ولكني انما أردت أن أضع بين أيديكم تصوراً يفتح الطريق ، بفضل مناقشاتكم ومشاركاتكم الجادة ، الى التصور الأكمل ، ويساعد على تقليب الرأي في قضايا التراث بغية الوصول الى فكرة جامعة وتخطيط صحيح ·

ونحن نقدم على هذا العمل وفي أذهاننا وقلوبنا أنه عمل أصيل في حركة النهضة وسير للبحث العلمي في جامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية ·· انه عمل يحتاج الى متابعة متصلة ، ويحتاج الى نفقة كبيرة ، وادارة حكيمة ، وجهود اقليمية متكاملة مع الجهد المركزي ·· ويحتاج الى أن يؤمن به المشرفون على التنظيمات العربية ·· فاذا لم يتيسر لنا تحقيق هذا الايمان فان من الخير أن ننفض أيدينا منه حتى لا تحملنا الأجيال مسؤولية الاخفاق فيه أو العجز عنه ·

ولن يحقق ما نرجوه مثل أن نعمل له متكاتفين عليه بين الأقطار العربية جميعاً ·· والثقافة قادرة على أن تتلافى تهاون السياسة في هذا الشأن بل هي كذلك قادرة على حفزها وتوجيهها · ومن ذلك ننطلق ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتب وأنباء تراثية

خلق الانسان في اللغة

لابي محمد الحسن بن احمد بن عبد الرحمن . تحقيق وتقديم دكتور احمد خان . راجعه وزاد في حواشيه مصطفى حجازي . من منشورات معهد المخطوطات العربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الكويت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ صدره الأستاذ الدكتور محي الدين صابر مدير المنظمة .

عالج المحقق في المقدمة تاريخ التأليف في خلق الانسان ، وعرض أسماء المؤلفين مرتبة زمنيا على سني وفياتهم ، ثم عرض خطة المؤلف في كتابه وهي قوله في الاستهلال : « اذكر كل ما في جسد الانسان من عضو أول حرف من اسمه ألف وكل ما أول حرف من اسمه باء وتاء وثاء ثم نجري ذلك على ترتيب حروف المعجم الى آخرها حتى آتي على سائر الأعضاء الظاهرة والباطنة وغير الأعضاء مما يشتمل عليه الجسد ويتعلق به كالدم والمخ والشعر وما أشبه ذلك مما لا ينفك منه بشر مخلوق . » ثم أورد المؤلف في كل حرف ما ذكرته العرب من هذه الأسماء وما أنثته وما نطقت فيه بالتذكير والتأنيث . وما أشكل فيه من الاعراب كما أضاف فقرا من كلام جالينوس مما ليس هو من علوم العرب حتى لا يخلو الكتاب من فائدة ، ولا يعرى من طريفة .

هذا ويحيط بالمؤلف وبحياته جو من الغموض حاول المحقق الفاضل أن يخفف هذا الغموض . والمظنون انه عاش في أوائل القرن السابع الهجري .

يقع الكتاب في نحو ٤٥٠ صفحة من القطع المتوسط . وفي آخره فهارس عامة تسهل الرجوع الى كل ما فيه من الآيات والاحاديث والأمثال والألفاظ والأشعار والاعلام والشعراء والقبائل والكتب المذكورة في الكتاب .

لا شك أن هذا الكتاب كنز مفيد للغويين والأدباء والأطباء والمترجمين الذين قد يعوزهم لفظ عربي في هذا المضمار .

المؤلفات الرياضية لشرف الدين الطوسي في مجلدين

تحقيق رشدي الراشد . صدر عن دار الآداب الرفيعة للنشر في باريس عام ١٩٨٦ . طبع المجلد الأول على نفقة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي والمجلد الثاني على نفقة مركز الدراسات والبحوث العلمية في سورية .

والكتاب بنصه العربي وترجمته الفرنسية يوضح التقدم الكبير الذي سبقت اليه الحضارة العربية الاسلامية في مجال الرياضيات ويسفر عن وجه مجهول لتلك الحضارة من وجوه هذا العلم ويمين على اعادة التاريخ لبعض فصول الرياضيات ولا سيما ما يتعلق ببداية التحليل الرياضي . وقد عاش المؤلف في أواخر القرن السادس الهجري الذي يوافق أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

رسالة التنبيه على سبيل السعادة للفارابي . دراسة وتحقيق الدكتور سحبان خليفات من منشورات الجامعة الاردنية ١٩٨٧ .

كتب المعلم الثاني أبي نصر الفارابي كثيرة وغالبيتها تحتاج الى ضبط وتحقيق ولو كانت مطبوعة . وقد عوّل محقق الرسالة على ثماني نسخ مخطوطة لها اضافة الى طبعة حيدر آباد الدكن . وقدم لها بمقدمة مستفيضة ضبط فيها عنوان الرسالة وأثبت صحة نسبتها الى الفارابي وقارنها بمؤلفاته الاخرى كما أبان مصادر الرسالة من عربية ويونانية وتقفى أثرها في الفكر الفلسفي الاسلامي .

علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب

دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم . من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

قام بهذه الدراسة الدكتور محمد مرايااتي ومحمد حسان الطيان ويحيى مير علم وقدم لها الدكتور شاكر الفحام .

ولا شك أن هذا الجزء الأول الذي صدر من هذه الدراسة ١٩٨٧ يوضح مهارة العرب في هذا الميدان لمصر من عصور حضارتهم المتقدمة كما يوضح الطرق الأساسية للتعمية في عباراتهم ويعطي القارىء فكرة طريفة عن طواعية اللغة العربية لشتى الأغراض والمقاصد .

المؤتمر الفلسفي العربي الثاني وانشاء الجمعية الفلسفية العربية

تعاونت الجامعة الاردنية ومركز دراسات الوحدة العربية في الدعوة لهذا المؤتمر الذي انعقد في الجامعة الاردنية من ١٣ الى ١٦ كانون الأول ١٩٨٧ بعد أن أعد المدعوون له من المشتغلين بالفلسفة في ربوع الوطن العربي بحوثاً تتناول المحاور الاربعة الآتية : ١ ـ الفلسفة والسلطة ٢ ـ الفلسفة والعلم ٣ ـ الفلسفة والتراث ٤ ـ الفلسفة والفن . وكان أبرز ملامح المؤتمر المستوى الرفيع الذي كتبت فيه تلك البحوث ، والمستوى الراقي الذي نوقشت فيه والذي كان في بعض الأحيان جافاً وقاسياً . ومع ذلك فقد ساد الجو روح الاخاء العلمي والجهد الموضوعي والحرية الواعية . ثم أفضى المؤتمر في ختامه الى انشاء الجمعية الفلسفية العربية وتضم مختلف المشتغلين بالفلسفة في الأقطار العربية وتكون أداة ارتباط بينهم مع اعتماد عمّان مقراً لها وانتخاب الأستاذ الدكتور أحمد ماضي رئيساً لها أيضاً .

فاطمة عصام صبري

في ذمـــة الخلـــود

أعـــلام تراثيـــون

الدكتور أحمد ناجي القيسي

عضو المجمع العلمي العراقي اختاره الله الى جواره في ١٨ رمضان سنة ١٤٠٧ـ١٦ أيار ١٩٨٧ وكان قد ولد في بغداد سنة ١٣٣٨ ـ ١٩١٩ في أسرة علم وفضل ونشأ فيهـا علـى محبة العلم ٠

درّس في دار المعلمـين العاليـة وكليـة الآداب والشريعـة وفي الجامعـة المستنصريـة ببغداد وشارك في تأليف عدد مـن الكتب أو تحقيقها من أبرزها « كتاب الوفيـات » لأبي الوفاء الحاجي الاصبهاني (اشترك في تحقيقه مـع الدكتور بشـار عواد معروف و « دقائق التصريف » للقاسم بن المؤدب (بالاشتراك) ٠

الدكتور جواد علي

عضو المجمـع العلمي العراقي توفاه الله يوم السبت ٣ صفر ١٤٠٨/٢٦ ايلول١٩٨٧ وكان قد ولد في الكاظمية سنة ١٣٢٤ـ١٩٠٧ حصل على شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز من جامعة همبورغ ٠

عرف بدراساته الدقيقة المتعمقة فيميادين الحضارة العربية ، وله مجموعة مـن البحوث التاريخية واللغوية من أبرزها « موارد تاريخ الطبري » ، و « موارد تاريـخ المسعودي » ، و « معجم الفاظ المساند » ، وقد دلت علـى الأصالة والشمول ٠

ركز جهوده العلمية على تاريـخ العرب قبـل الاسلام ، واحاط بالبحوث التي كتبهـا المؤرخون القدماء والمحدثون عنه في العربيـة وغيرها ، فنسق منها ونقدها وحللها ، ثم أخرج كتابه الذي يقع في عشر مجلدات ضخمة لهـا مكانتها المتميزة ٠

واهتم الدكتور جواد علي باللغة العربية القديمة وبتاريخ اليمن وحضارته قبل الاسلام، واستوعب النقـوش والكتابـات القديمـة ، واختص باللغة اليمانية القديمة ٠

الاستاذ عبدالهادي هاشم

نعى مجمع اللغة العربيةوهيئةتحريرمجلة « التراث العربي » بدمشـق أحد أعضائهما الأستاذ عبدالهادي هاشم ٠ ولد عـام ١٩١٢ بدمشـق وتوفـاه الله في ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٨ ـ ٨ كانون الثاني ١٩٨٨ ٠ شغـل مناصب متعددة في سورية منها محاضـر في كلية الآداب في فقه اللغة ورئيس لجنةالتربية والتعليم وأمين عام في وزارة المعارف ومدير دار الكتب الظاهرية ثم سمي رئيس تحرير الموسوعة الفلسطينية وكان له نشاط واسع في ميدان اللغة العربية ونشر عدة مقالات في مجلة المجمع وفي غيرها وشارك في مؤتمرات عالمية واقليمية متعددة ٠

الدكتور جابر عزيز الشكـري

عضو المجمع العلمي العراقي توفاهالله في الأول من شهر كانون الأول ١٩٨٧ وكان قد ولد سنة ١٩١٨ ٠ حصـل على دكتوراه في الكيمياء من جامعة زوريخ سنة ١٩٤٦ وعاد الى العراق فدرّس في دار المعلمين العليـا ببغداد ثم شغـل مناصب عـدة ثم سمي في الجامعة باحثاً علمياً متفرغاً وأستاذاً للكيمياء ولمادة تاريخ العلوم والحضارة العربيـة في كليتي العلوم والتربيـة الى سنـة تقاعـده ١٩٨٣ ٠ من مؤلفاته « الكيمياء عندالعرب» و « النفط في التراث العربي » و « المصطلح الكيميـاوي في التراث العربي » و « الجوانب الفنية في اخراج المخطوط العربي » ٠

اعداد محمد مطيع الحافظ ونزار اباظة